ترجمات كلاسيكية
(١)

اليونانيون فى مصر البطلمية

دراسات فى التاريخ الاجتماعى للعصر الهللينستى

تأليف
الأستاذ الدكتور/ نفتالى لويس

تقديم الأستاذ الدكتور
لطفى عبد الوهاب يحيى

ترجمة الدكتور
السيد جاد

الأسكندرية
٢٠٠٦

اليونانيون في مصر البطلمية:
دراسات في التاريخ الاجتماعيّ للعصر الهللينستيّ

تأليف:
أ. د. نفتالى لويس

تقديم:
أ.د. لطفى عبد الوهاب

ترجمة:
د. السيد جاد

الإسكندرية، ٢٠٠٦م

هذه ترجمة كتاب:

Naphtali Lewis, *Greeks in Ptolemaic Egypt: Case Studies in the Social History of the Hellenistic World*, Oxford, 1986

(*ISBN 0-19-814867-4*)

رقم الإيداع : ٢٤٠٦٥ / ٢٠٠٦

I.S.B.N.

977 - 6093 - 71 - 4

مطابع غباشى بطنطا - ت : ٣٣٣٤٨٩٨

إلى:

جان بينجين

الأستاذ بجامعة بروكسل

رمزاً للصداقة والإعجاب

إهداء المترجم

إلى:

روح الأستاذ الدكتور داود عبده داود

أستاذ الآثار اليونانية والرومانية بجامعة الإسكندرية

تحية تقدير لعالم فاضل جليل

"حقاً لقد انفصلوا شيئاً فشيئاً، وابتعدوا عن الحياة الحقة التى تجرى من حولهم هنا، لقد أغلقوا على أنفسهم حصن مكاسبهم الأصم، وأصبحوا معزولين عن المصادر الحية للقرية التى اعتقدوا أنهم جعلوا منها وطناً ثانياً لهم . . . إلا أن الروابط مع الجسم الذي نشأوا منه بقيت غير منفصمة في أعماق وجودهم يحسون ومضاتها في بعض الانفعالات."

جيورجيوس فيليبّوس، المشتغلون بالقطن،
ترجمة د. عبد المحسن الخشاب، ص ٩٤

المحتويات

قائمة الخرائط

قائمة اللوحات

تقديم

العمل العلمىّ الذي بين أيدينا يلقَى ضوءاً مطلوباً، بل هو في الواقع لازم كل اللزوم، للتعرف على أحد جوانب الحياة في مصر على عهد البطالمة. والترجمة التى يتخذ هذا العمل صورتها الحالية اختار أن يقوم بها زميلى وتلميذى الدكتور السيد جاد؛ لينقل من خلالها إلى القارئ العربى دراسة قام بها العالم الكبير الأستاذ نفتالى لويس. وهى دراسة تستمد قيمتها الأساسية من أن واضعها هو أحد عمد الكتابة في تاريخ مصر في العصرين البطلمىّ والرومانىّ؛ فقد كرس هذا العالم على مدى عقود طويلة قدراً متزايداً من الجهد الخلاق للبحث في هذا المجال، واستبطان تفاصيله وتياراته واتجاهاته، كما اهتم في دراساته بالحياة اليومية في تلك الفترة، معتمداً بصفة أساسية على ما جاء في الأوراق البردية من معلومات تعكس، كما لا يخفى، حياة المجتمع الذي كان يعيش على أرض مصر في معاملاته التفصيلية بجوانبها المتعددة التى تتصل مباشرة بواقع الحياة.

كذلك تستمد هذه الدراسة قيمتها من أن الذي قام على ترجمتها على معرفة جيدة بطريقة المؤلف وتوجهاته في الكتابة عن تاريخ مصر، فقد ترجم له غير هذا العمل عملاً آخر هو "الحياة في مصر تحت الحكم الرومانىّ،" وقد نحا فيه المؤلف كذلك نفس النحو، وهو العناية بالحياة اليومية التى كانت تدور في المجتمع. ومن هنا فإن المترجم كان يتعامل في نقل الدراسة الحالية إلى العربية مع نوع من العمل العلمىّ الذي لا يشعر إزاءه بالغرابة، وإنما يدرك أبعاده ومسالكه إلى حد كبير، ومن هنا تضيق الهوة بين النَصّ المُؤَلَّف والنَصّ المُتَرجَم حتى تقارب الالتصاق، الأمر الذي يزيد من قيمة الانتفاع بالمعلومات الواردة فيه.

والمحور الذي يدور حوله العمل العلمىّ الحالىّ هو الحياة اليومية لليونان في مصر على عهد البطالمة الذين امتد حكم أسرتهم للبلاد ما يقرب من ثلاثة قرون قبل أن تتحول مصر إلى ولاية رومانية في ٣١ ق.م. ولكى

نستطيع أن نتفهم حياة اليونان في مصر على حقيقتها في الفترة موضوع الدراسة ينبغى علينا أن نتوقف قليلاً؛ لكى نتعرف على طبيعة وضع هذه الفئة التى أصبحت تشكل قسماً أساسيا من أقسام المجتمع الذي كان يعيش على أرض مصر التى كان هذا الوضع جديداً عليها وإن كان قد أصبح واقعاً نابضاً يشكل بعضاً من كيانها.

طرق اليونان أبواب مصر في ثلاث مناسبات على امتداد تاريخها القديم، وفى كل مناسبة كان الدافع الأساسىّ الذي يحفزهم على ذلك هو تعويض ما ضنت به عليهم طبيعة بلادهم الفقيرة من موارد، وذلك عن طريق محاولة الاستقرار في مصر، بكل ما تقدمه أرضها الخصيبة، وبكل ما يتيحه موقعها ومواردها من إمكانات وفرص تعينهم على أن يتخطوا شظف العيش إلى حياة أكثر يسراً ورخاءً. وقد عاصرت أولى هذه المناسبات أواخر الأسرة التاسعة عشرة، حين حاول اليونان اقتحام الأراضى المصرية بهدف الاستيطان بها مرتين، وذلك ضمن هجمات مجموعة من الشعوب التى عرفها المصريون القدماء تحت اسم شعوب البحر، والتى كانت تنطلق من جزر البحر المتوسط وبعض شواطئه الجنوبية في محاولات للاستقرار على سواحله الشرقية والجنوبية. وقد ظهر اليونان في هذا الصدد مرة تحت اسم الأكواشا (النطق المصرى لتسمية الآخيين) عام ١٢٣٠ ق.م. على عهد الفرعون مرنبتاح، ومرة ثانية تحت اسم الدنْين (النطق المصرى لتسمية الدانائيين) عام ١١٩١ ق.م. على عهد الفرعون رمسيس الثالث، ولكن لم يقدر لهم النجاح في هاتين المحاولتين الاستيطانيتين بعد أن ردهم المصريون على أعقابهم.

والمناسبة الثانية جاءت على عهد فراعنة الأسرة السادسة والعشرين حين بدأ بسماتيك الأول (٦٦٣-٦٠٩ ق.م.) بالاستعانة باليونان كجنود مرتزقة ضمن قواته المقاتلة، ثم ما لبث التجار اليونان أن جاءوا في أعقاب الجنود المرتزقة ليمارسوا تجارة نشطة مع القسم الشرقى للبحر المتوسط. إلا أن المصريين كانوا ينظرون إليهم دائماً على أنهم أقلية أجنبية. بل إن هذا الوضع الحرج حدا بالملك عحموزه (٥٦٨-٥٢٦ ق.م.)، خامس فراعنة الأسرة

المذكورة، إلى أن ينقل نشاط التجار اليونان في مصر في العام الثالث من حكمه إلى مدينة نقراطيس (كوم جعيف الحالية في محافظة البحيرة)؛ وذلك تحسباً وتفادياً لغضب المصريين. كذلك فإن التجار اليونان أنفسهم كانوا يحسون بهذا الوضع، ومن هنا فإنهم ظلوا يحتفظون بعلاقاتهم الحميمة مع مدنهم الأصلية في بلاد اليونان، كما اتجهوا بمعاملاتهم التجارية إلى هذه المدن بصفة أساسية.

ثم تأتى ثالث المناسبات التى عرف اليونان من خلالها طريقهم إلى أرض مصر، حين قدموا إليها على أثر فتح الإسكندر لها عام ٣٣٢ ق.م. ثم طوال العصر البطلميّ الذي ابتدأ عملياً حين آلت ولاية الأمور في مصر إلى بطلميوس بن لاجوس، غداة موت الإسكندر في ٣٢٣ ق.م.، ثم استقرت له الأمور في صورتها الكاملة مع بداية القرن الثالث قبل الميلاد، لتصبح أساساً لبيت حاكم من سلالته. ولكن، إذا كانت المناسبة الأولى لمحاولة قدوم اليونان إلى مصر قد انتهت دون أن يوطنوا أنفسهم فيها، وإذا كانت المناسبة الثانية لم تعرف إلا استيطان أقلية يونانية في قسم محصور منها، لا يزيد كثيراً عن مدينة صغيرة على أرضها، فإن اليونان في مصر على عهد البطالمة كان لهم شأن آخر. لقد أتى هؤلاء في ظل بيت حاكم مقدونيّ، ولكنه ينتسب للحضارة اليونانية ويدين بها وينطق باللغة اليونانية، ويعتمد في حروبه دفاعاً أو هجوماً على جنود من الإغريق احترفوا مهنة القتال وسيلة لكسب العيش، كما كان هذا البيت الحاكم يعتمد في إدارة شؤون مصر بشكل أساسيّ كذلك على الخبرة اليونانية، هذا إلى أنه كان ينظر إلى هؤلاء اليونان أولاً وأخيراً على أنهم من أرومته وبنى جلدته.

ومن هنا، ففيما عدا الجنود المرتزقة الذين كان ولاؤهم بالضرورة لمن يدفع لهم الأجر، دون أن يقيموا وزناً كبيراً للأرض التى يحاربون من أجلها، فإن اليونان الذين وفدوا إلى مصر في عصر البطالمة لم تشب انتماؤهم إلى مصر أية شائبة، فلم يكن انتماؤهم إلى المدن التى هاجروا أو هاجر آباؤهم أو أجدادهم منها، وهم ليسوا مواطنين في دويلة صغيرة لا تزيد عن مساحة مدينة واحدة، كما كان الحال في المدن اليونانية الاستيطانية التى كانت تقع على

الشريط الساحلىّ الغربىّ لآسيا الصغرى، على سبيل المثال، يدينون بالوفاء والولاء للمدينة الأم في بلاد اليونان الأصلية، ويتعاملون معها تجارياً في المقام الأول، ويعتمدون على مساندتها في الأزمات التى تنشب في تعاملهم مع جيرانهم من حين لآخر. لم يكن يونان مصر في عصر البطالمة يدينون بهذا النوع من الانتماء المتأرجح أو المزدوج الذي عرفوه قديماً؛ فقد اختلفت الظروف الآن اختلافاً بيّناً. لقد أصبح يونان مصر في عصر البطالمة مواطنين في بلد كبير غنى بموارده، غنى بفرصه، غنى بمشروعاته الاقتصادية والثقافية، له مساحة مترامية الأطراف لم تعرفها الدويلة اليونانية في كل تاريخها السابق، وله رقعة متسعة في علاقاته السياسية. ومن هنا كان الانتماء للوطن الجديد يشكل نوعاً جديداً من الانتماء لم يمارسه اليونان من قبل. حقيقة إنهم لم يشكلوا المجتمع بأكمله، كما كان الحال في مدنهم في بلاد اليونان، أو في المدن التى أسسها المهاجرون من قبل، وإنما أصبحوا قسماً من مجتمع يشملهم ويشمل غيرهم، ولكنه كان قسماً واضحاً بأعداده الملموسة، وبانتشاره في العاصمة وفى مدن الريف، وبامتيازاته المترتبة على حق المواطنة الذي اختصوا به دون غيرهم من فئات المجتمع القائم في مصر آنذاك.

هذا الوضع الذي وجد اليونان أنفسهم فيه في مصر في عصر البطالمة كان حرياً أن تكون له أبعاد جديدة خاصة به تقوم بدور الروابط بين اليونان وبين وطنهم الجديد الذي كان لهم فيه الوضع المميز، وإن لم يكونوا فيه هم العنصر الوحيد أو الفئة الوحيدة. وقد ظهرت هذه الأبعاد بالضرورة في عدد من الصور التى كان من بينها المواقع التى شغلوها في الإدارة المدنية للمجتمع وفى بناء اقتصاده وفى تدعيم أمنه وتثبيت النظام العسكرى الذي يعتمد عليه وفى رسم العلاقات بين أفراده من المواطنين وبين أبناء البلاد من المصريين، الذين كان من المحتم أن يدخلوا معهم في علاقات عمل وعلاقات يومية تشدّ الطرفين إلى بعضهما بأكثر من رابطة من تلك الروابط التى لا تلبث أن تفرض نفسها بأكثر من طريقة على الحياة المشتركة في الوطن الواحد. وقد حاول مؤلف هذا العمل العلمىّ الذي بين أيدينا أن يتتبع هذا الوضع الذي شغله اليونان

فى وطنهم الجديد ومجتمعهم المشترك الجديد فى ثمانية مواقع من خلال حياة ثمانية أشخاص عمل كلٌ منهم في مجاله الخاص به، بحيث شكلوا في مجموعهم دائرة متكاملة تمثل المجتمع في أغلب جوانب نشاطه، وتقدم من خلال ذلك صورة نابضة لهذا القسم من المجتمع الذي كان قائماً في مصر في عصر البطالمة.

وفى هذا الصدد فقد استطعنا من خلال هذا العمل العلميّ الفريد أن نتتبع النشاط العلميّ للمهندس كليون، مسؤول الأعمال العامة في إقليم أرسينوى في مصر الوسطى؛ ونشاط نيكانور، أحد أصحاب البنوك في أوكسيرينخوس (البهنسا الحالية)؛ وأعمال ديوفانيس الذي كان يشغل موقع الاستراتيجوس (أو: المحافظ) لإقليم أرسينوى. كذلك استطعنا من خلال هذا العرض الاجتماعيّ أن نتعرف على حياة الناسك بطوليمايوس في مدينة منف، وعلى نشاط دريتون وأسرته، وهو ضابط خيالة كان يعمل في إقليم طيبة، كما استطعنا أن نُلمَّ بجوانب من حياة مينخيس موظف القرية وهو يتابع صعوده في الخدمة المدنية في مدينة كيركيوزيريس، التى كانت تقع في القسم الجنوبيّ الغربيّ من إقليم أرسينوى. وأخيراً وليس آخراً استطعنا أن نتعرف على مسار الترقية في الخدمة العسكرية الذي سلكه ديونيسيوس بن كيفالاس في مدينة أكوريس (طهطا الحالية) في مصر الوسطى. وفى معالجته لحياة هؤلاء الأشخاص لا يكتفى مؤلف الكتاب بالتفاصيل الروتينية التى تروى سلسلة التفاصيل والأحداث التى مرت بها وشكلت فقراتها ثم يتوقف عند ذلك. ولكنه يعرج على ما كان يكمن وراءها من أصول، وما كان يتفرع عنها من اتصالات، بحيث لا يصبح الأمر سيرة شخصية لفرد هنا أو هناك عبر سنوات تشكل مسار حياته، وإنما تتحول هذه السيرة إلى جانب كامل متكامل من تاريخ المجتمع بأسره.

التاريخ الذي تقدمه هذه الدراسة – إذن – هو من نوع تاريخ المجتمعات أو التاريخ الاجتماعيّ للشعوب. وهو بصفته هذه تطور لم يصل إلى اكتماله إلا منذ أوائل النصف الثانى من القرن العشرين بعد بدايات شاحبة مترددة ترجع إلى العقود الأولى من القرن ذاته. وقد بلغ الاتجاه نحو دراسة

التاريخ الاجتماعىّ إحدى قممه حين قرنه المؤرخ الأمريكىّ، الروسىّ الأصل، م. روستوفتزف، بدراسة التاريخ الاقتصادى للمجتمع في عمليه العملاقين اللذين أصدرهما في الفترة المذكورة تحت عنوان "التاريخ الاقتصادىّ والاجتماعىّ للعصر الهللنستىّ" و "التاريخ الاقتصادىّ والاجتماعىّ للإمبراطورية الرومانية"، على الترتيب.

ويثير المنهج الذي اتبعته الدراسة الحالية، وهو المنهج الاجتماعىّ في دراسة التاريخ المصرىّ، مسألتين بارزتين من شأنهما أن تستوليا على اهتمام القارئ. وأولى هاتين المسألتين هى أن هذا المنهج، في حد ذاته، يشكل استكمالاً طال انتظاره للدراسة التاريخية التى كانت تشكو من عدد من نقاط الضعف قبل أن يبرز هذا الاتجاه. وإحدى هذه النقاط هى أن تاريخ مصر كان يكتب على أساس أنه تاريخ لحكام مصر في المقام الأول والأخير، وهو أمر لا يمكن الإقرار به. فالحاكم مهما كان شخصه ومهما بلغ من قوة أو حنكة لا يمكن أن يُقدم أكثر من قيادة أو زعامة للمجتمع، أمّا العمل ذاته وأمّا النشاط ذاته فهما من نتاج هذا المجتمع، وهما نتاج تتمثل فيه توجهات المجتمع المذكور، وطريقة تكوينه ومزاجه، وطريقة تفكيره وتقديره، وكلها أمور تخضع لعوامل خارجة كلّ الخروج على إرادة الحاكم وشخصيتها، من بينها الظروف الجغرافية التى يخضع لها المجتمع والمسار التاريخىّ الذي مر به والتكوين البشرىّ الذي وجد على أرضه بما يضمه هذا التكوين من تقسيمات وانتماءات ومعتقدات.

كذلك كانت هناك نقطة ضعف أخرى ظلت تراود كتابة تاريخ مصر حتى فترة قريبة، بل أكاد أقول إن آثارها لا تزال تلوح في الأفق حتى هذه اللحظة. ونقطة الضعف التى أعنيها هى أن العناية في كتابة تاريخ مصر كانت تنصب على الجانبين السياسىّ والعسكرىّ في المقام الأول والأخير، وكأن تاريخ مصر كان مجرد سياسية وحروب ينتهجها ويقوم بها حكام البلاد. وقد أصبح من الأمور المسلم بها الآن أن تاريخ أىّ مجتمع لا يمكن أن يقتصر على النشاطات السياسية والعسكرية؛ فهذه لا تشكل في النهاية سوى جانبين من جوانب متعددة ومتفاعلة ومتكاملة يتكون منها نشاط أىّ مجتمع، من بينها

الموارد الاقتصادية والتكوين الطبقىّ والانتماء العقائدىّ والمذهبىّ والتكتل الفئوى والولاء العنصرى (حقيقة أو تصورا)، وغير ذلك من جوانب النشاط اليومىّ المباشر أو البيْنىّ او غير المباشر. وفى ضوء هذا الوضع فإن كتابه تاريخ اجتماعىّ للمجتمع المصرىّ يشكل اتجاهاً جادّاً وصائباً من حيث إنه يبتعد عن تصور قديم قاصر هو كتابة التاريخ المصرىّ بوصفه نشاطاً سياسياً وعسكرياً فحسب.

ثم تبقى المسألة الثانية التى يثيرها هذا العمل العلمىّ وهى أن اليونان الذين وجدوا في مصر في عصر البطالمة كانوا يشكلون بالضرورة عنصراً وافداً أتى إلى مصر واستقر فيها في أعقاب ظروف قاهرة جعلت منه عنصراً مميزاً على أبناء البلاد الأصليين وهم المصريون. إن مثل هذا الوضع قد يثير في أذهان الكثيرين تساؤلاً مؤداه: هل نحن نتعرف على تاريخ مصر والمجتمع المصرىّ على عهد البطالمة حين نحاول التعرف على أحوال العنصر اليونانىّ الذي أتى إليها وأصبح يقيم فيها آنذاك كوطن ومستقر له لا يعرف سواه؟ إن بعض المتشددين منا، نحن المصريين، قد تراوده فكرة أن الاهتمام الأساسىّ ينبغى أن يكون بأحوال المصريين بوصفهم الشعب المصرىّ في المقام الأول والأخير، سواء في عصر البطالمة أم في غيره من العصور. ولكن إذا كان للتشدد الوطنىّ منظوره الخاص به، وإذا كان للحقيقة التاريخية منظورها الخاص بها، فليس من الضرورىّ ألا يلتقى المساران في شوط أو أكثر أو حتى في نهاية الطريق، بل ربما لا أكون مبالغاً إذا قلت إن الحقيقة التاريخية ربّما لا تختلف في التحليل الأخير عن الواقع الوطنى ذاته، من حيث إنها قد تشكل تطوراً وتفاعلاً يؤدى في بعض الأحيان إلى هذا الواقع ذاته.

وأحسب أن التساؤل المطروح أمامنا، وهو قيمة العناية بالتاريخ الاجتماعىّ لليونان الذين وجدوا في مصر على عهد البطالمة، يقع ضمن هذا الإطار. وهنا نستطيع أن نقول إن هؤلاء اليونان كانوا وافدين على مصر بالفعل ولكنهم أصبحوا يشكلون، بعد استقرارهم فيها، قسماً من المجتمع الموجود بها، بحيث أصبحوا جزءاً من تكوين المجتمع المصرىّ بمعنى المجتمع

المنتسب إلى أرض مصر. وهم بهذه الصفة يتفاعلون مع المصريين حياتياً، وحتى لو كان هذا التفاعل بطيناً أو محدوداً إذا دققنا في تفاصيله اليومية هنا أو هناك، فإن التفاعل الثقافيّ والحضاريّ قائم وزاحف ومستمر في طريقه دون أيّ توقف، ويظهر ذلك بجلاء حين تتغير الظروف التى يمر بها المجتمع تغيراً جذرياً بصورة أو بأخرى. وقد حدث ذلك بالفعل حين دخلت المسيحية مصر ثم اشتد أزرها مع بدايات العصر البيزنطيّ، فإذا بنا نجد التقسيم القائم في المجتمع المصرىّ إلى مصريين ويونان يذوب ليحل محله تقسيم آخر إلى وثنيين ومسيحيين. ثم حدث مرة أخرى حين فتح العرب مصر في أواسط القرن السابع الميلادىّ، جالبين معهم ثقافة جديدة ولغة جديدة وعقيدة جديدة، فإذا بتطور حضارىّ جديد يمحو أىّ أثر لأىّ تقسيم عنصرىّ أو طائفىّ سابق عليه.

وأعود إلى مسألة الاهتمام بالتاريخ الاجتماعىّ لليونان المقيمين بمصر على عهد البطالمة فأقول إنهم أصبحوا قسماً من المجتمع المصرىّ بوصفه المجتمع القائم على أرض مصر. ومن هنا لا بد من دراسة أحوالهم والاهتمام بها. أمّا الخلل القائم في هذا الصدد فهو في تصورىّ عدم الاهتمام بدراسة أحوال المصريين في ذلك العصر (وربما كذلك في العصر الرومانىّ) بالقدر الكافى، وهو أمر يؤدى في النهاية إلى دراسة غير متوازنة لتاريخ مصر. وقد يكون إهمالنا لتاريخ المصريين في هذين العصرين أكثر من سبب. وأُقَدّم هنا سببين قد يكمنان وراء هذا الوضع: أحدهما هو أن الدارسين الغربيين حين يدرسون تاريخ مصر آنذاك قد يتجهون إلى البحث عن امتداد للحضارة الغربية وأثرها على مصر، من خلال دراسة أحوال اليونان في المقام الأول، وهو أمر مفهوم ولا يستطيع أحد أن يلومهم إذا اقتصروا عليه أو أولّوه القسط الأكبر من اهتمامهم؛ ولكن الذين يلامون هم الدارسون المصريون، إذا اقتصروا هم كذلك على العناية بالتاريخ الاجتماعىّ لليونان دون تقديم عناية متوازية مع تاريخ المصريين.

أما السبب الآخر الذي أقدمه في هذا المجال فهو أن قسماً كبيراً من تاريخ المصريين في عهد البطالمة موجود في الوثائق المكتوبة باللغة المصرية

القديمة في خطها الديموطيقيّ. وأود هنا أن أقول إن الاهتمام بدراسة اللغة المصرية في خطها هذا لم ينل حتى الآن حظه الكامل من عناية الدارسين. ومن هنا جاء الخلل في دراسة القسم المصرىّ من المجتمع الذي كان قائماً على أرض مصر في عصرىّ البطالمة والرومان. وحين تحظى الوثائق الديموطيقية بالعناية اللازمة التى هى من حقها، سينبثق الاهتمام الكافى بدراسة أحوال المصريين ليعود لدراسة التاريخ المصرىّ توازنها المطلوب بين العنصريين الأساسيين (المصريين واليونان)، اللذين كانا يشكلان الكيان المصرىّ في العصرين المذكورين. وفى كل الحالات تظل هذه الدراسة محتفظة بقيمتها المتميزة كدراسة على قدر كبير من العمق والجدية والقيمة للأحوال الاجتماعية لأحد هذين العنصرين على عهد البطالمة.

لطفى عبد الوهاب

الإسكندرية في: ١١ أغسطس، ٢٠٠٠م

مقدمة المترجم

تأخر ظهور هذه الترجمة أكثر مما كنت أودّ، وإن كان يسرني أن تأخذ مكانها أخيراً إلى جوار الكتاب الذي سبق أن ترجمته لنفس المؤلف.[١] يسعدني أيضاً أن يُقدّم لهذه الترجمة وللكتاب أستاذي الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيي، الذي جعلت تعليقاته على بعض الفقرات أسلوبها أكثر سلاسة وأيسر فهماً. ولأن تقديمه للكتاب يعفيني من الإسهاب في هذه المقدمة، فإنني سأقتصر على ذكر بعض الملاحظات القليلة التي توضح الأسلوب الذي اتبعته في أثناء الترجمة.

إن النصوص اليونانية التي اقتبسها مؤلف هذا الكتاب قد تمت ترجمتها عن لغة الكتاب، الإنجليزية، وليس عن لغة النصوص ذاتها، وبطبيعة الحال لن يغيب عن القارئ المتخصص ما يصحب هذا النوع من الترجمة من عدم دقة أحياناً. بالإضافة إلى ذلك تجب الإشارة إلى أن المعقوفين [...]، اللذين يتخللان هذه النصوص في بعض الأحيان، يتضمنان إضافات لمؤلف الكتاب لتوضيح بعض النقاط الغامضة أو لتفسيرها. وفيما يتعلق بأسلوب كتابة الأسماء القديمة فقد اتبعت أسلوب التنظير الحرفيّ الذي انتهجه المؤلف في كتابتها عامة، وهو الأسلوب نفسه المتبع في كتابه الآخر. كذلك فإن الكتاب يحتوي على بعض العبارات من قبيل "منذ عشرين عاماً مضت" أو "منذ نصف قرن،" وغيرها، وهي عبارات ينبغي أن تحسب مدتها منذ عام صدور الكتاب في ١٩٨٦م.

وبالإضافة إلى ذلك فقد أضفت إلى هذه الترجمة شيئاً لم يكن في الكتاب الأصليّ، وأعني بذلك الاقتباس الذي وضعته في مقدمة الكتاب من قصة "المشتغلون بالقطن،" التي كتبها القصصيّ اليونانيّ جيورجيوس فيليبّوس عام ١٩٤٥م وترجمها الدكتور عبد المحسن الخشاب.[٢] إن موضوع القصة

(١) نفتالي لويس، الحياة في مصر تحت الحكم الرومانيّ، ترجمة الدكتور السيد جاد، الإسكندرية، ١٩٩٣م.

(٢) جيورجيوس فيليبّوس، المشتغلون بالقطن، ترجمة الدكتور عبد المحسن الخشاب، القاهرة، ١٩٦٨.

وموضوع هذا الكتاب متشابهان لدرجة تفوق كثيرا ما يوجد بينهما من تفاوت في طبيعة العمل وفى السياق التاريخىّ. إنهما يتحدثان عن اليونانيين في مصر، وتغلب على حديثهما الصبغة اليونانية ونظرة اليونانيين، ولكنهما يُظهران بوضوح وصدق، على الرغم من ذلك، طبيعة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بين اليونانيين، الذين كانوا يُشكلون إحدى فئات المجتمع المتميزة، أو الفئة المتميزة في العصر البطلمىّ بدون منازع *par excellence*، وبين أهل البلاد المصريين.

السيد جاد .... الإسكندرية، ١٩٩٩م.

تمهيد:

الأسرة البطلمية

على الرغم من أن استخدام الصفات العددية، مثل الأول والثانى، في الإشارة إلى الملوك البطالمة تقليد حديث نوعاً ما، إلا أنه يُسهل أمر التعرف على ترتيب كل منهم وعلى موقعه التاريخىَ:

الملوك وألقابهم	مدة الحكم (قبل الميلاد)
بطلميوس الأول: سوتير	٣٠٥ – ٢٨٣
بطلميوس الثانى: فيلاديلفوس	٢٨٥ – ٢٤٦
بطلميوس الثالث: يورجيتيس	٢٤٦ – ٢٢٢
بطلميوس الرابع: فيلوباتور	٢٢٢ – ٢٠٤
بطلميوس الخامس: إبيفانيس	٢٠٤ – ١٨٠
بطلميوس السادس: فيلوميتور	١٨٠ – ١٤٥
بطلميوس السابع: يوباتور	١٤٥
بطلميوس الثامن: يورجيتيس الثانى "فيسكون"	١٤٥ – ١١٦ (حكم قورينه من ١٦٣ – ١٤٥)
بطلميوس التاسع: سوتير الثانى "لاثوروس"	١١٦ – ١٠٧؛ ٨٨ – ٨٠ (حكم قبرص من ١٠٧ – ٨٨)
بطلميوس العاشر: الإسكندر	١٠٧ – ٨٨ (وقبلها في قبرص)
بطلميوس الحادى عشر: الإسكندر الثاني	٨٠
بطلميوس الثانى عشر: نيوس ديونيسوس "أوليتيس"	٨٠ – ٥٨؛ ٥٥ – ٥١

بيرينيكى *	٥٨ – ٥٥
بطلميوس الثالث عشر *	٥١ – ٤٧
كليوباترا السابعة: ثيا فيلوباتور *	٥١ – ٣٠
بطلميوس الرابع عشر *	٤٧ – ٤٤
بطلميوس الخامس عشر: قيصاريون	٤٤ – ٣٠

(*) أبناء بطلميوس الثانى عشر.

الألقاب

اللقب	المعنى
أديلفوى	الأخوان
أوليتيس	الزمار
إبيفانيس	"الإله" المتجلى
ثيا	الإلهة
ديكايوسونيه	العدالة "مجسدة"
سوتير	المنقذ أو المخلص
فيسكون	ذو البطن الممتلئ
فيلاديلفوس	المحب لأخته أو المحبة لأخيها
فيلوباتور	المحب لأبيه أو المحبة لأبيها

فيلوميتور	المحب لأمه أو المحبة لأمها
قيصاريون *	قيصر الصغير
لاثوروس	الحمصة
نيكيفوروس	جالب (أو جالبة) النصر
نيوس ديونيسوس	"الإله" ديونيسوس الصغير
يوباتور	ذو الأب المجيد
يورجيتيس	الخيّر

(*) إن الدراسات الحديثة تقبل عادة تأكيد كليوباترا أنه ابنها من يوليوس قيصر [ويلقبه البعض بالعربية "قيصرون": المترجم].

التقويم

- الأعوام: لقد حُسبت الأعوام مرتبة حسب سنى حكم كل ملك من ملوك الأسرة. وبينما يبدأ العام الأول مع اعتلاء الملك العرش (سواء أكان هذا الاعتلاء حقيقياً أم مزعوماً)، فإن العام الثانى يبدأ مع الخريف التالى، وتحديداً مع رأس السنة المصرية الجديدة، ويقابل أول توت.
- الشهور والأيام: لقد أحضرت الأسرة البطلمية معها التقويم القمرىّ المقدونىّ، إلا أنه بعد مرور عدة عقود على استخدام هذا التقويم عُدلت شهوره الاثنى عشر بحيث أصبحت تتوافق مع التقويم الشمسىّ المصرىّ الذي كان متوافقاً مع القمرىّ في ذلك الوقت. وقد طبق هذا التعديل في كل شئ باستثناء أمور الحياة اليومية. وبمرور الوقت قلّ استعمال الشهور المقدونية، حتى في الوثائق الرسمية. وترتيب الشهور المصرية التى كان الواحد منها يتكون من ثلاثين يوماً هو:

Phamenoth	برمهات	Thot	توت
Pharmouthi	برموده	Phaophi	بابه
Pachon	بشنس	Hathyr	هاتور
Payni	بؤنه	Choiak	كيهك
Epiph	أبيب	Tybi	طوبه
Mesore	مسرى	Mecher	أمشير

- وبالإضافة إلى الاثنى عشر شهراً التى يبلغ مجموع أيامها ثلاثمائة وستون يوماً، كانت هناك أيام نسئ تسمى باليونانية "إباجومينوى" *epagomenoi* أىّ: (أيام) إضافية. وبالنظر إلى أن نظام السنة الكبيسة لم يكن معمولاً به في ذلك الوقت، فإن التواريخ البطلمية كانت تتحرك يوماً واحداً كل أربع سنوات، عند مقابلتها بالتقويم الميلادىّ المتبع حالياً. ولهذا نجد أن أول توت يقابل السابع والعشرين من أكتوبر في المدة من عام ٢٦١ ق.م. إلى عام ٢٥٨ ق.م.، والسادس والعشرين من أكتوبر فيما بين عام ٢٥٧ ق.م. و ٢٥٤ ق.م.، والخامس والعشرين منه فيما بين أعوام ٢٥٣ و ٢٥٠ ق.م.، وهكذا دواليك.

- نظام مقابلة التواريخ: سوف تُذكر التواريخ في هذا الكتاب حسب التقويم الميلادىّ، بعد مقابلتها بنظيرتها في التقويم المصرىّ، متى كان ذلك ممكناً. أما في الحالات التى يُذكر فيها التقويم البطلمىّ منفرداً، فسوف تُذكر الأعوام أحياناً على الوجه التالى: ٢٠٣/٢٠٢ ق.م.؛ لأن العام كان يبدأ في الخريف.

الهجاء وكيفية نطق الأسماء

سوف نكتب أسماء الأشخاص وأسماء الأماكن المشار إليها في هذا

الكتاب حسب التقليد الذي يزداد انتشاراً في وقتنا هذا، والذى يفضل كتابة الأسماء اليونانية بطريقة التنظير الحرفيّ، بدلاً من كتابتها بالأشكال اللاتينية، أيّ الأشكال التى استخدمها الرومان أنفسهُم واستخدمت منذ عصر النهضة. وهكذا فإننا نكتب الآن ليساندروس بدلاً من ليساندر، وكليوباترا Kleopatra بدلاً من Cleopatra. وعلى الرغم من ذلك فسوف نستثنى بعض الأمثلة القليلة التى أصبح فيها الهجاء اللاتينىّ أو الإنجليزىّ مألوفاً في الاستخدام الحالىّ إلى حد يجعل من محاولة تغييره أمراً ليس له ما يبرره. ولهذا فسوف نكتب الإسكندر الأكبر، وبطلميوس، في أثناء الإشارة إلى الملوك، أما الأشخاص العاديون الذين يحملون هذه الأسماء فسوف نشير إليهم بالصيغ اليونانية أليكساندروس وبطوليمايوس.

إن طريقة نطق الحروف المتحركة في اللغات القديمة تختلف، على سبيل المثال، عن نظيرتها المعقدة في اللغة الإنجليزية، وهو الأمر الذي يسبب في كثير من الأحيان بعض الإحباط لدارسى هذه اللغة. إن اللغات القديمة بشكل عام تُخصص طريقة واحدة لنطق أىّ من حروفها اللينة والساكنة. وكانت الحروف اللينة، وكذلك الحرفان الساكنان غير المألوفين في اللغة الإنجليزية، تنطق في اليونانية القديمة بهذه الكيفية:

ينطق كما فى:	الحرف	ينطق كما في:	الحرف
over	ō	aha	a
syntax	y	get	e
aisle	ai	prey	ē
ghoul	ou	it	i
German: ach	kh	machine	ī
kh but more lightly aspirated	ch	come	o

وسوف نُحدد في هذا الكتاب حروف المدّ عند ذكرها لأول مرة في

النص أو في وثيقة ما، أو إذا كان هناك داع لذلك، كما في حالة توتوئيس Totoēs؛ لنُذكّر القارئ أن الحروف الأربعة الأخيرة تُكوّن مقطعين وليس مقطعاً واحداً.

الاختصارات

تضم مصادر هذا الكتاب نحواً من ستمائة بردية (حواليّ أربعين منها مكتوبة باللغة المصرية القديمة، في خطها المعروف باسم الكتابة الديموطيقية، أما الباقى فمكتوب باليونانية)، مضافاً إليها بعض قطع الفخار التى تعرف باسم أوستراكا *ostraca*. والتقليد المتبع في الإشارة إلى واحدة أو أخرى من هذه المصادر هو أن يكتب حرف "*P.*" بدلاً من كلمة *Papyrus* أو حرف "*O.*" بدلاً من كلمة *Ostracon* متبوعاً باختصار يحدد عادة إما الموقع الذي عثر فيه على البردية أو قطعة الفخار، كما في حالة *P. Tebtunis*؛ أو اسم المكتشف، كما في حالة *P. Grenf.(ell)*؛ أو اسم المكان الحاليّ للبردية، كما في حالة *P. Lond.(on)*؛ والاستثناءات القليلة من الاختصارات لهذه القاعدة المذكورة في هذا الكتاب هى:

- *BGU* ويشير إلى الوثائق اليونانية الموجودة في المتاحف المصرية في برلين الشرقية والغربية.
- *P. Ent.* ويشير إلى مجموعة الالتماسات المشار إليها في الفصل الرابع؛ وكلمة *Ent.* هى اختصار لكلمة *Enteuxis* اليونانية.
- *UPZ* ويشير إلى العمل الضخم الذي أعاد فيه فيلكن U. Wilcken تحقيق وثائق سارابيون المذكورة في الفصل الخامس، ونشرها.
- *PSI* ويشير إلى مجموعة *Papiris greci e latini* التى بدأ نشرها في فلورنسا عام ١٩١٢م.
- *WO* ويشير إلى U. Wilcken, *Griechische Ostraka aus Ägypten und*

Nubien, 2 vols., Leipzig und Berlin, 1899 والذى أعيد طبعه مع بعض الإضافات في أمستردام عام ١٩٧٠م.

كذلك استخدمت أيضاً بعض الاختصارات التالية في الحواشى:

- *SB* ويشير إلى دورية *Sammelbuch griechischer Urkunden aus Ägypten* التى بدأ نشرها عام ١٩١٣م، والتى تعيد تجميع ونشر بعض الوثائق التى سبق صدورها متناثرة في دوريات ومجلدات أخرى.

- *SEG* ويشير إلى *Supplementum Epigraphicum Graecum* التى تضم مجموعة النقوش اليونانية والتى بدأ نشرها في لايدن عام ١٩٢٣م.

كذلك توجد قوائم بأهم الأعمال المنشورة والاختصارات التى تشير إليها في الكتب التالية:

- J. F. Oates, et ali., *Checklist of Editions of Greek Papyri and Ostraca, Bulletin of the American Society of Papyrologists*, Supplement 4, 1985

- E. G. Turner, *Greek Papyri: An Introduction,* Oxford, 1986, 2nd (paperback) edition, 1980, pp. 156-171

مقدمة

ينتهى التاريخ اليونانىّ الذي يُدرس في المدارس والجامعات عادة عند عام ٣٣٨ ق.م.، عندما قضى فيليب (Philip) المقدونىّ على استقلال دويلات المدن اليونانـــية، ويمتد أحياناً لمدة خمسة عشر عاماً أخرى حتى وفاة الإسكـــندر (Alexander) الأكبر. هذه الحدود التاريخية تستند إلى نظرية ترى أنه لا فائدة من دراسة النظم السياسية لدويلات المدن اليونانية بعد أفول نجمها، بل وتأسف على الكيفية التى فقدت بها الثقافة اليونانية هويتها الحضارية المميزة، بعد انتشارها عن طريق هجرات اليونانيين بأعداد كبيرة إلى بلدان الشرق بعد فتوحات الإسكندر. وفى الوقت الذي كان فيه فينكلمان (Winckelmann) وغيره من علماء القرن الثامن عشر يستكشفون "نقاء" الفن اليونانىّ في عصره الكلاسيكىّ، بل و "نقاء" الثقافة اليونانية عامة، كان الباحثون ومحبو الفن يحتقرون العالم اليونانىّ "المتداعى" بعد الإسكندر؛ لكونه غير جدير بأن يسمى عالماً هللينياً. وقد استعمل هؤلاء الباحثون في الإشارة إلى القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد لفظة العصر الهللينستىّ (المتأغرق) تمييزاً له عن أن يكون يونانياً صرفاً. وتشكل هذه القرون الثلاثة المرحلة الفاصلة بين فتوحات الإسكندر في الشرق وبين الوقت الذي أصبحت فيه المنطقة بأكملها تحت نفوذ روما المتزايد. وهكذا فإننا نجد، على سبيل المثال، أن قاموس أوكسفورد (Oxford) للغة الإنجليزية، الذي يرجع إلى أواخر القرن التاسع عشر، يذكر ضمن معانى كلمة هللينستىّ أنها تشير إلى: أ) الشكل المعدّل للغة اليونانية والمتضمن لكثير من العناصر الأجنبية، والذى كان سائداً في مصر وسوريا وبعض البلاد الأخرى بعد عصر الإسكندر الأكبر؛ وإلى: ب) ما يخص اليونانيين أو يتعلق بهم في هذا العصر المتأخر، بعد أن تغيرت خصائص الحضارة الهللينية، بسبب بعض العناصر الأجنبية.

أما دراسات القرن العشرين فإنها تختلف كثيراً في منهجها عن هذه الاتجاهات المتعالية، من حيث إنها وجهت اهتماماً متزايداً إلى العالم الهللينستىّ

(المتأغرق)، الذي يُنظَرُ إليه الآن على أنه إحدى المراحل المهمة في تاريخ الحضارة الغربية. وعلى الرغم من ذلك فإن تأثير هذا الاهتمام في المواد التى يدرسها الطلاب في وقتنا الحاليّ في الجامعات ما يزال محدوداً. وتعد محاضرة م. روستوفتزف (Rostovtzeff)، التى ألقاها في أوكسفورد بعد الحرب العالمية الأولى بوقت قصير، إحدى الإشارات المبكرة الدالة على هذا الاتجاه. وتبدأ المحاضرة بقوله:

لقد أقنعتنى سنوات كثيرة درست فيها عن قرب تاريخ العالم القديم أن العصر الهللينستى، أىّ: الثلاثة قرون التى أعقبت الإسكندر الأكبر، هو أحد أهم العصور التاريخية في مراحل تطور العالم. وإننى على يقين من أننا إذا رغبنا في أن نتفهم خصائص النبوغ اليونانىّ وتاريخ الحضارة التى تلته، فإن هذه الحقبة لا تقل أهمية عن عصر ازدهار النظم السياسية اليونانية، وعن عصر الإمبراطورية الرومانية العالمية .... وبينما صاغت أثينا أمثلة خالدة للجمال والنبوغ الفكرىّ، فإن اليونانيين في العصر الهللينستىّ واصلوا مسيرة الأثينيين وجعلوا هذه النماذج متاحة لملايين البشر. إنهم هم الذين أوصلوها إلينا وأتاحوا لنا أن نقيم عليها أسس الثقافة الأوروبية، ثم عالمنا المعاصر.[1]

لم تخرج أية مدينة يونانية على قدر من الأهمية سالمة من الدمار الذي سببته الحروب البيلوبونيسية (٤٣١-٤٠٤ ق.م.)، وهو الأمر الذي يعطينا أول دليل تاريخىّ واضح على حجم الدمار الشامل الذي يمكن أن تسببه حرب عالمية. لقد شهدت العقود التالية لهذه الحرب، في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد، آلاف المزارعين الذين لا يستطيعون العودة إلى أراضيهم والذين لا يرغبون في ذلك؛ نظراً لما حل بها من تدمير. وقد ازدحمت المدن بهؤلاء المزارعين دون أن تكون لهم وسائل معروفة للعيش، وأخذوا يأكلون ما يمكنهم الحصول عليه. أما الوظيفة الوحيدة المتاحة لأعداد كبيرة من الرجال فكانت الانخراط في سلك الجنود المرتزقة التى تعمل لحساب أمير أو لحساب قوة أجنبية. وأشهر الأمثلة لهذا النشاط حملة الآلاف العشرة التى يحدثنا عنها الكاتب اليونانىّ كسينوفون (Xenophōn) في كتابه الذي يحمل عنوان "أناباسيس"، (*Anabasis*) أىّ: رحلة أعلى النهر، والتى كانت تضم رجالاً من كل مكان في العالم اليونانىّ، حتى من إسبرطة التى انتصرت في الحروب

البيلوبونيسية والتى يفترض أنها كانت تنعم بغنائم هذا النصر. لقد ظلت المشكلات الاقتصادية الكبيرة دون حلول في بلدان هؤلاء الجنود المرتزقة، وهو الأمر الذي أدى إلى ظهور صيحات ثورية تنادى بإعادة توزيع الأراضى وبإلغاء الديون. كذلك بدأ بعض "الأغنياء" الذين أزعجتهم هذه الصيحات يشجعون سياسة الهجرات الجماعية واحتلال الأراضى الأجنبية؛ لكونها وسيلة لامتصاص غضب "الفقراء" وتذمرهم. وقد صدرت إحدى الصيحات القوية المنادية بهذه السياسة عن الخطيب إيسوكراتيس (Isokrates) [ويعرب اسمه أحياناً إيسوقراط: المترجم] الذى حاول منذ حوالى عام ٣٨٠ ق.م.، في نفس الوقت الذي كان أفلاطون يكتب فيه كتابه "الجمهورية" المتضمن نظريته عن الدولة المثالية، أن يستثير المدن اليونانية لكى تتحد في محاولة لغزو الإمبراطورية الفارسية، مبرراً هذه الخطوة من عدة وجوه. فأولاً: سوف يضع هذا الغزو حداً لتدخل الملك الفارسىّ في الشؤون اليونانية. وثانياً، وكما يقول حرفياً: "إنه من الأشرف لنا أن نحاربه للقضاء على مملكته، بدلاً من أن نتنازع فيما بيننا على القيادة." وأخيراً: سوف تحصل المدن اليونانية على قدر كاف من الأراضى عن طريق السيطرة على أراضى الإمبراطورية الفارسية المجاورة لبلاد اليونان، التى يمكن توزيعها على "كثير من الذين لا يجدون القوت الضرورىّ." ولأن هذه الدعوة لقيت آذاناً صُمّاً، فقد يئس إيسوكراتيس من المدن اليونانية، وإن لم ييأس من فكرته. وبعد عدة سنوات وجه إيسوكراتيس الدعوة نفسها إلى الملك فيليب، ملك مقدونيا، الذي توسم فيه القدرة على النضال، وحثه على أن يقود بنفسه مثل هذه الحرب المقدسة. وكان هذا هو الاتجاه الذي سار فيه فيليب، إلا أن دوافعه من وراء ذلك لم تكن خالصة تماماً. لقد كان أول أهدافه هو أن يُخضع المدن اليونانية التى تقع إلى جنوب مقدونيا وإلى الشرق منها، وبعد أن تم له ذلك وبعد أن أصبحت جيوشه آمنة من الهجوم عليها من الخلف، بدأ يخطط لغزو بلاد الفرس. وعلى الرغم من أنه اغتيل قبل تنفيذ خطته، فإن ابنه الإسكندر الذي خلفه على العرش وهو في الثامنة عشرة من عمره لم يُضع وقتاً في سبيل تحقيق الفكرة والقيام بالغزو.[٢]

لقد فتحت حملة الإسكندر الأكبر على الإمبراطورية الفارسية، في حقيقة الأمر، مناطق واسعة أمام حركة الاستيطان اليونانيّ، خاصة في سوريا وفى مصر. وعلى الرغم من ذلك فإن الموت المفاجئ لهذا الملك الشاب تبعته مرحلة امتدت عشرون عاماً من عدم الاستقرار بسبب صراع قواده في أثنائها حول مسألة الخلافة. وقرب نهاية القرن الرابع استقرت الأمور، فحكم بطلميوس مصر، وسليوقوس (Seleukos) سوريا، وأنتيجونوس (Antigonos) مقدونيا. وهكذا بدأ تيار المهاجرين يزداد قوة، كما كانت هناك أراض كافية في "العالم الجديد" في شرق البحر المتوسط لكل من يرغب من اليونانيين. وبالإضافة إلى ذلك أتيحت فرص جديدة للتعاملات التجارية لكل من لديه القدرة على اقتناصها مثلما وجدت فرص لتولى وظائف إدارية تفتح سبلاً للترقى الاجتماعيّ السريع لمن لديه الكفاءة والصلات القوية، وأيضاً كانت هناك الرعاية الملكية التى تجذب العاملين بالفنون والعلماء إلى عاصمة العالم الجديد، الإسكندرية.

لقد تأسست الإسكندرية في عام ٣٣١ ق.م. وفى عام ٣٠ ق.م. فتح أوكتافيانوس (Octavianus) مصر، آخر الممالك الهللينستية التى تعرضت للغزو وللسيطرة الرومانية. أما القرون الثلاثة التى تقع بين هذين العامين فقد كانت النظرة السائدة إليها، كما ذكرنا في البداية، على أنها مرحلة توقف فيها أبناء اليونانيين الذين استقروا في أراضى الشرق الأدنى عن أن يكونوا يونانيين، وأصبحوا بدلاً من ذلك "يونانيين-مصريين" أو "يونانيين-سوريين،" أو غير ذلك من العناصر السكانية المختلطة.[٣] ولقى هذا الاعتقاد رواجاً كبيراً لاعتماده على الدراسة المهمة التى قام بها يوهان جوستاف درويسن (Johann Gustav Droysen) والتى صدر أول مجلد منها عام ١٨٣٦م، أىّ: في العام التالى لاعتلاء الملكة الشابة فيكتوريا (Victoria) عرش بريطانيا. ففي ذلك الوقت، ولمدة طويلة بعد ذلك، كانت روح ج. و. ف. هيجل (G. W. F. Hegel)، الذي توفى قبل تلك الآونة بوقت قصير تهيمن على فلسفة التاريخ. كذلك كان ثالوثه المتضمن النظرية والنظرية المضادة والنظرية التوفيقية، الذي طبقه درويسن على العالم الهللينستىّ (المتأغرق)، قد أفضى إلى معادلة حدودها على الوجه

التالى: اليونان + الشرق = مزيج من الاثنين. وعلى الرغم من ذلك فإن مجموعة الدراسات التحليلية الجادة التى جرت في الخمسين عاماً الأخيرة والتى اعتمدت على الكمّ المتزايد من الوثائق الذئ لم يكن متاحاً من قبل، قد كشفت عن زيف نظرية الامتزاج هذه بوصفها أساساً لفهم تاريخ العالم الهللينستىّ (المتأغرق).[٤]

من الطبيعى أنه أينما وجدت مجموعتان من الناس تنتميان إلى ثقافتين مختلفتين وتتكلم كل منهما لغة مختلفة، وتعيشان متجاورتين، أن ينتقل بالضرورة شئ ما من إحداهما إلى الأخرى. لكن الأمر الذي أصبح واضحاً الآن ويزداد وضوحاً مع كل دراسة جديدة، هو أن مثل هذه التأثيرات المتبادلة كانت أقل ما تكون في مصر الهللينستية.[٥] وكما نرى فإن سمات الأوضاع الاجتماعية والسياسية السائدة في مصر آنذاك، من أعلى طبقاتها إلى أدناها، لا تنم عن تداخل أو عن امتزاج، بل عن وجود فئتين مختلفتين في الوقت ذاته: "نحن" و "هم"، أو: المستعمرون وأهل البلاد. لقد كان للملك نفسه مظهران مختلفان ينمّان عن هذا الانقسام، وتبعاً لأحدهما كان الملك يجسد الملكية النموذجية التى صاغها الفلاسفة اليونانيون (كما في كتاب السياسة لأرسطو)، على حين كان يبدو أمام المصريين في دور الخليفة الذي يكمل سلسلة الملوك المصريين القدماء. ويعكس هذا الانفصام أو تلك الازدواجية الوضع السائد في البلاد بشكل عام. لقد كانت هناك طبقة صغيرة من أصل يونانىّ ومقدونىّ تتمتع بالامتيازات؛ وطبقة كبيرة من العامة وهم سكان البلاد الأصليون. وكان هؤلاء الأخيرون هم الخاضعون والمستغَلّون والضحايا الذين لا حول لهم ولا قوة أمام الإساءات المتكررة التى يوجهها إليهم أفراد طبقة المهاجرين المتعالية، وشاغلو المناصب الرسمية في الإدارة الملكية، على الرغم من صورة الحكم الطيبة التى رُوّج لها رسمياً.[٦]

لا ريب فى أن هذه الكلمات تعيد إلى أذهان الأمريكيين الأوضاع التى كانت سائدة في مناطق كبيرة من الجنوب بعد الحرب الأهلية، حيث كانت توجد طبقة صغيرة من البيض تسيطر على أعداد كبيرة من السود، الأحرار اسماً

والمستعبدين على أرض الواقع. وعلى الرغم من ذلك فإن هناك فارق رئيس بين هذا الوضع والوضع في مصر البطلمية، ويتمثل في أن سياسة البطالمة لم تكن وراءها دوافع عنصرية، بل إنها كانت على النقيض من ذلك، كما سنرى عبر صفحات هذا الكتاب. لقد سمحت تلك السياسة لأعداد صغيرة من المصريين الذين تطبعوا بالروح الهللينية أن يدخلوا في الطبقة المتميزة؛ ليؤدوا بعض الأعمال في مجال الخدمة المدنية والعسكرية، وهى فرص كانت تزداد بمرور الوقت. وعلى الرغم من ذلك شهد العصر البطلمىّ ثورات تشبه تلك التى حدثت في جنوب أفريقيا، وفى مناطق إقامة السود في المدن الأمريكية. وإذا كان من الممكن حصر عشر ثورات فيما بين عامى ٢٤٥ و ٥٠ ق.م.، فربما أن هناك أيضاً بعض الثورات الأخرى التى لم تذكرها المصادر التى وصلت إلينا. وتكشف بردية نُشرت حديثاً في مجموعة بردى ميشيجن عن مرسوم ملكىّ، صادر في اليوم المقابل في تقويمنا للثانى عشر من نوفمبر عام ١٩٨ ق.م.، يسمح لجنود الملك باستعباد من يتم أسرهم من المصريين في أثناء "التمرد في أعالى البلاد."[٧]

إننا نعرف الآن أوضاع الحياة في مصر البطلمية وتفاصيلها الدقيقة، وإن كانت معرفتنا غير مكتملة، من خلال مصدر فريد للمعلومات هو آلاف البرديات المكتوبة بالديموطيقية (أىّ: باللغة المصرية القديمة) التى ترجع إلى العصر الهللينستىّ (المتأغرق) والتى عثر عليها في مصر في أثناء الأعوام المائة الأخيرة. هذا الكم من المصادر لم يزودنا به أىّ مكان آخر من العالم القديم، على الرغم من اكتشاف بعض أوراق البردى في أماكن قليلة خارج مصر. تلك البرديات التى كشف عنها سارقو الآثار وأعضاء البعثات الأثرية توجد الآن في مجموعات منتشرة في أوروبا والولايات المتحدة وفى مصر ذاتها، في المتاحف والمكتبات والجامعات والمجموعات الخاصة. وباستثناء أن هذه البرديات قد أصبحت داكنة اللون ومفككة وتحولت إلى قطع صغيرة بفعل القرون التى مرت عليها في الرمال الجافة التى حفظتها من التعفن، فإنها وصلت إلينا كما كتبت في العصور القديمة تماماً. إنها تتضمن أعداداً كبيرة من

الوثائق المتعددة الأنواع والتى تشير إلى أهم الشؤون العامة وإلى أبسط الأمور الخاصة. ويمكن القول بإيجاز بأنها تعرفنا بأىّ شئ وبكل شئ يمكن أن نسجله نحن أيضاً على الورق. هذه البرديات التىٰ وصلت إلينا من العصور القديمة، بما عليها من كتابة أصلية جديرة بالتصديق، تتيح لنا، بالمقارنة بالأعمال الأدبية والكتابات التاريخية، بما تتضمنه الأخيرة من انتقاء وتأويل للأحداث، أن نتعرف بشكل مباشر على حياة اليونانيين الذين استقروا في مصر، وعلى حياة المصريين الذين أقام هؤلاء اليونانيون بين ظهرانيهم.

لسوف يلحظ القارئ عدم وجود فصل عن الإسكندرية في هذا الكتاب، وربما تعجب لذلك، على الرغم من كونها عاصمة البطالمة والمركز التجارىّ والثقافىّ في العالم اليونانىّ في العصر الهللينستىّ (المتأغرق). إن السبب في ذلك يرجع إلى طبيعة المصادر التى وصلت إلينا. لقد خلفت لنا الإسكندرية القليل من البقايا الأثرية الدالة على ما كان لها من مجد، بفعل الاستقرار السكانىّ المتواصل في الموقع نفسه عبر القرون. كذلك لا يوجد أى أثر للبردى السكندرىّ الذي تحلل في تربة دلتا النيل الرطبة. وبطبيعة الحال يشير البردى الذي عثر عليه في أماكن أخرى في بعض الأحيان إلى الإسكندرية، كما أنه عثر في مكان ما في الدلتا على بعض البرديات المتفحمة التى ترجع إلى العصر الرومانىّ، أىّ إلى المرحلة التالية للعصر الذي ندرسه في هذا الكتاب. وهكذا فإن معظم معلوماتنا عن الإسكندرية تتمثل في الأعمال الأدبية القليلة المعروفة منذ عصر النهضة، إلا أن هذه الأعمال، بالمقارنة بالمكتشفات الحديثة التى يعتمد عليها هذا الكتاب، لا تزودنا بالمعرفة التى يزودنا بها البردى وتتيحها لنا بعض النقوش عن حياة اليونانيين في مستوطناتهم إلى الجنوب من الإسكندرية. وكما عبّر مؤخراً أحد دارسى القانون الفرنسيين عن هذا الوضع، فإن:

> ما يهمنا في هذا المقام هو أن ندرك العناصر الرئيسة لأوضاع المهاجرين، ووسائل استمرار الحضارة الهللينية، عند الأفراد الذين جذبتهم غزوات الإسكندر ودعوات خلفائه إلى الأراضى "الأجنبية،" والذين يتبدون لنا من خلال البردى بوصفهم جنوداً وموظفين إداريين ومنتفعين مادياً بالسيادة المقدونية. كيف كان المرء يظل يونانياً

وهو جندى احتياطىّ مقيم في قرية صغيرة؟ ... كيف حل الملوك البطالمة المشكلات الصعبة التى سبّبها وجود المهاجرين اليونانيين المستمر في المناطق الريفية غير اليونانية، حيث كان الحفاظ على الهوية اليونانية أمراً يراه الحاكم ضرورة [اجتماعية] سياسية.[٨]

إن هذا الكتاب يضم بين ثناياه إجابات عن بعض تلك الأسئلة. فالمصادر التى زادت أعدادها في السنوات المائة الأخيرة تضم عدداً من الوثائق التى ثبت أنها تخص أفراداً أو عائلات بعينها، أو تتعلق بهم، على الرغم من تناثر هذه الوثائق عادة بين العديد من المجموعات في أماكن مختلفة من العالم. كذلك فإن القيمة التاريخية لهذه السجلات ليست بحاجة إلى التدليل على أهميتها. إن وسائل حفظ المعلومات والسجلات المتبعة حالياً تتيح لدارسى التاريخ الحديث قدراً هائلاً من المعرفة يبدو وكأنه أمرٌ مسلمٌ به. أما بالنسبة لدارسى العصور القديمة الذين يُضطرون إلى دراسة ما جادت به القرون من آثار وسجلات، فإن اكتشاف سجل ما، صغيراً كان أم كبيراً، هو حدث خاص. أحد الأمثلة المعروفة للتدليل على ذلك هو الحائط الذي كُشف عنه مؤخراً في ساحة الإله أبوللو الشهيرة في مدينة ديلفى، وتبين أنه يحتوى على مئات الإشارات إلى العبيد الذين أُعتقوا تحت رعاية هذا الإله. إن أكبر لقى البردى التى عثر عليها حتى الآن ترجع إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى بقليل، وكان ذلك في أثناء بحث الزراع عن السماد، في أطلال قرية فيلاديلفيا القديمة، عند حافة الصحراء بالقرب من القاهرة. لقد عثر هؤلاء المزارعون على ما يقرب من ألفى بردية تمثل ملفات رجل يدعى زينون (Zēnōn)، كان يدير ضيعة كبيرة في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد بأسلوب يقارب النظام المعروف في أوروبا في العصور الوسطى. وكانت هذه الضيعة هبة أعطاها الملك بطلميوس الثانى لوزير ماليته آنذاك، المعروف باسم أبوللونيوس (Apollonios)، وكانت هبة قابلة للاسترداد وقد استردها الملك بالفعل فيما بعد. وبطبيعة الحال تطلبت هذه اللقى الكبيرة قدراً كبيراً من اهتمام الدارسين، مثلما أنه كُتب عنها الكثير. أما فصول هذا الكتاب فإنها تتناول بعض السجلات الصغيرة غير المعروفة. حقيقة إن هذه السجلات لم تعدم من يعلق عليها من دارسى البردى، ولكن الصفحات

التالية تهدف إلى جعل محتوياتها ودروسها متاحة أمام دائرة أوسع؛ إذ أن كل فصل يلقى الضوء على أحد جوانب المجتمع أو على أحد عناصره في القرون الثلاثة التى عاشها الحكم البطلمىّ في مصر.٤

الحواشى:

---

(١) *Journal of Egyptian Archaeology,* 6 (1920), 161

(٢) إن استثارة إيسوكراتيس للمدن اليونانية للاتحاد ضد الفرس هى موضوع الخطبة التى تحمل اسم "بانيجيريكوس" (*Panegyrikos*) [أىّ: خطبة الاحتفال، المترجم]، أما الدعوة التى وجهها إلى الملك المقدونىّ فتوجد في خطبته التى تحمل اسم "فيليبوس" (*Philippos*) والتى ترجع إلى عام ٣٤٦ ق.م.، وفى خطابين يرجعان إلى عام ٣٤٤ و ٣٣٨ ق.م. وطبقاً للطبعات المعتمدة لمؤلفات هذا الخطيب فإن هذه الأعمال، على الترتيب، هى الخطبة الرابعة والخطبة الخامسة والخطابان الثانى والثالث، علماً بأن صحة الخطاب الأخير يدور حولها قدر كبير من الجدل.

(٣) تعد ظاهرة وجود بعض الرجال والنساء في الوثائق ممّنْ هم نتاج زواج مختلط ويحملون أسماء مزدوجة أحدها يونانىّ والآخر مصرىّ من بين الأمور التى لقيت اهتماماً وتركيزاً كبيرين. ولكن من الواضح الآن أن هؤلاء الناس لم يكونوا سوى قلة صغيرة من السكان، وأنهم كانوا أفراداً لم نقابلهم إلا في بعض المواقف الخاصة مثل تلك الواردة في الفصول الثلاثة الأخيرة من هذا الكتاب. وكما يلخص ميليز الأمر J. Méléze-Modrzejewski (*Revue des etudes grecques,* 96 [1983], 248) فإن: "هناك على أية حال أمر واحد مؤكد وهو أن الأسماء البطلمية لا يمكن اليوم استخدامها على أنها دليل مؤيد، كما كان الحال في بداية هذا القرن، لنظريات الاندماج التى تفترض وجود "خليط من الأجناس" وكذلك "اندماج حضارى.""

(٤) إن الأفكار القديمة لا تموت بسهولة. ففى محاضرة ألقاها سميث H. S. Smith في السادس من مارس عام ١٩٧٣ نجده ما يزال يردد عبارات من قبيل: "إن الثقافة القديمة ... لممالك الشرق الأدنى أصبحت متداخلة، بشكل لا يمكن فصله، مع النظم السياسية والحضارية للعالم اليونانىّ. هذه الحضارة الهللينستية المتداخلة ...." (*A Visit to Ancient Egypt* [Warminster, 1974], 2) وفى مواجهة هذا الرأى راجع المقالة المشار إليها في الحاشية السابقة، ص ٢٥٤، حيث يقول ميليز: "إن فكرة تحول العنصر

اليونانىّ إلى "البربرية" واستغراقهم في البنية المصرية إلى حد كونهم "لا يمكن تمييزهم" عند مجيء الرومان واحتلالهم لمصر هى فكرة ربما كانت زائفة بنفس قدر زيف فكرة "تحول الشرق إلى الحضارة الهللينية." وهى الفكرة التى كانت سائدة في العشرينيات والتى يميل الرأى الآن إلى أنها كانت في الأعم الأغلب نتاجاً للفكر الاستعمارىّ السائد في كتابة التاريخ لدى الغربيين في هذه الأوقات."

(٥) انظر: المرجع ذاته، ص ٢٥٥: "وفى الختام، لقد شمل التداخل فقط بعض الجماعات المحدودة، وكان "تداخلاً بين أطراف" كما أسماه إدوارد ويل Edouard Will [*Ancient Society*, 1979] ؛ فمن ناحية توجد الطبقة المتميزة والمتحولة إلى الحضارة الهللينية، ومن ناحية أخرى يوجد بعض اليونانيين الذين ذابوا في البيئة المحلية. إن أهمية هذه الأطراف في دراسة المجتمع الاستعمارىّ في مصر الهللينستية كبيرة ولا يمكن إنكارها؛ إلا أنهم على الرغم من ذلك يشكلون ظاهرة هامشية في ذلك المجتمع .... إن هؤلاء [الرجال العسكريين ممن نقابلهم في الفصلين السادس والثامن] لا يعكسون المجتمع البطلمىّ ككل. إن افتراض عملية "تداخل" يعتمد في الحقيقة على قاعدة واهية لظاهرة خاصة ذات مجال محدود."

(٦) إن الازدواجية في الملكية البطلمية ينم عنها عديد من العناصر في المصادر، ومنها المصدر التالى الذي يعتبر بالتأكيد أكثرها وضوحاً. لقد كانت إحدى أهم الإشارات التى ساعدت شامبوليون على حل رموز اللغة المصرية في خطها الهيروغليفىّ هى التقليد المصرىّ المتبع في كتابة اسم الفرعون داخل خرطوش. وفى الوثائق التى ترجع إلى العصر البطلمىّ المكتوبة في مصر كان اسم الملك يوضع بالفعل داخل خرطوش، وفى بعض الحالات التى لم يكن يوضع فيها داخله كان الاسم الملكىّ يُتبع بعلامة تعنى "[ملك] الناس الأجانب".

إن جوانب الاستغلال التى يُتهم بها المسؤولون المحليون في الوثائق التى وصلت إلينا تشتمل على الابتزاز وأخذ الرشوة وأموال "الحماية" والتعذيب والإيذاء الجسدىّ (غالباً باستخدام السوط والآلات الحادة والهراوات). لقد كانت هذه الأعمال بطبيعة الحال تمثل مخالفات للسياسات الرسمية للإدارة الملكية التى يتم الإعلان عنها، وكانت الإدارة الملكية تفرض على موظفيها أن يكتسبوا شعبية حقيقية في أثناء توليهم لمسؤوليات مناصبهم عن طريق إظهار بعض الخصال من قبيل الاهتمام بأىّ شخص أو موضوع وإظهار الهمة وحسن السريرة والتدبر وبذل الجهد والاعتناء واليقظة والحمية والاحترام والجدية والحماية والدقة والمثابرة؛ كل ذلك بهدف التأكد من "أن الناس يُعامَلون بالعدل؛" (راجع:

111 *UPZ*). كذلك تتضمن *P. Teb.* 703 التى ترجع إلى حوالى ٢٤٠-٢١٠ ق.م. قائمة طويلة من تعليمات خاصة من وزير المالية إلى معاونيه بالأقاليم، وتنتهى بهذه النصيحة العامة: "ينبغى أن يكون مثلكم الأعلىٰ هو أن تتناولوا الأمور بصفة شخصية وبأمانة وطبقاً لأحسنها ... ثانياً: ينبغى أن يكون سلوككم صحيحاً وقويماً في ناحيتكم ولا تنخرطوا في صحبة السوء، وتجنبوا أىّ نوع من التورط في أعمال شريرة، واعلموا أنكم إذا كنتم بلا شبهة من هذه النواحى فإنكم ستكونون جديرين بمناصب أعلى." (السطور ٢٦١-٢٧٧). أيضاً هناك مثال شائع من أمثلة استغلال المناصب، وهو مثال نقتصر عليه من بين العشرات، في الخطاب التالى الذي يرجع إلى عام ١٥٦ ق.م. والذى أرسله وزير المالية عندئذ إلى أحد المسؤولين في إقليم منف (*P. Par.* 61R = *UPZ* 113):

> حيث إن الملك والملكة يريان أنه من المهم أن كافة رعاياهم تحت حكمهم لا بد أن يُعاملوا بالعدل، وحيث إن عدداً ليس بالقليل قد جاء إلى الإسكندرية ليقدم شكاواه ضدكم أو ضد الذين يعملون تحت إمرتكم، وخاصة ضد محصلى الضرائب، يتهمونهم بالابتزاز والغش في أثناء التحصيل، بل إن البعض يدعون أنهم يُهدَّدون بالفضيحة.
>
> لهذا فإننا نريدكم أن تعلموا أن كل هذه الأعمال لا مكان لها في إدارتنا، مثلما أنه لن يكون لكم وجود معنا إذا ثبت أن أحداً من المشار إليهم قد ألحق الضرر بأىّ إنسان. ولذلك، وحتى لا يتكرر أىّ شئ من هذا القبيل بعد الآن، وحتى لا يُظلم أحد على يد شخص آخر، خاصة محصلى الضرائب الذين يحاولون الابتزاز، فإن عليكم أن تحتاطوا لأنفسكم أقصى درجات الحيطة، وأن ترسلوا الأوامر لأولئك المشار إليهم بشأن الاتهامات السابقة.

(٧) هناك أوصاف ممتازة للثورات قامت بها بريوه C. Préaux (*Chronique d'Égypt,* 11 [1936] and in 40 [1965]). وفى دراسة أحدث للموضوع يرى بيريمانز أن هذه الثورات كانت نابعة من أسباب اجتماعية أكثر منها قومية. انظر: W. Peremans, in H. Maehler and V. M. Strocka, eds., *Das Ptolemaïsche Ägypten*, Mains, 1978, 39-50

(٨) J. Mélèze-Modrzejewski, *loc. cit.*, 242-3

الفصل الأول

اليونانيون وإغراء الثروة

كانت مصر تمثل في أذهان كثير من اليونانيين، منذ ما قبل العصر الهللينستىّ (المتأغرق) بوقت طويل، أرضاً شديدة الغموض ووفيرة الثروة. وتظهر هذه الفكرة التقليدية في الأدب اليونانىّ بكافة ألوانه وفى كافة مراحله التاريخية، ابتداءً من عصر الملاحم الهومرية. وتحتوى الإلياذة، التى يُرجع الآن معظم الباحثين تاريخها بشكلها الحالىّ إلى القرن الثامن قبل الميلاد، على إشارة إلى مصر. هذه الإشارة يرد ذكرها في البيت رقم ٣٨٢ من الكتاب السابع، وهو بيت أنكر صحته بعض الدارسين لاعتقادهم أنه أضيف إلى القصيدة في وقت لاحق لنظمها، إلا أن معظم المحققين المحدثين يطمئنون إلى صحته. ويعطى هذا البيت، بالإضافة إلى بعض اللقى الأثرية المؤيدة له دليلاً على وجود علاقات بين مصر والعالم اليونانىّ في هذه الفترة المبكرة. كذلك تشير الأوديسية، التى تلى الإلياذة بحوالى نصف قرن تقريباً، إلى مصر ما يقرب من عشرين مرة. وبينما تؤكد أربع من هذه المرات على ثراء البلاد وخصوبة أرضها، تحدثنا إشارتان أخريان عن غارات غير ناجحة للقراصنة على ساحل مصر المطل على البحر المتوسط. أما الإشارات المتبقية فتتضمن ذكريات غير واضحة لأحداث وقعت في القرنين الثالث عشر والثانى عشر قبل الميلاد، حينما اجتاحت شرق البحر المتوسط هجرات جماعية حاول بعضها غزو مصر، وتمكن المصريون من صدها، كما نعرف من الإشارة إلى "شعوب البحر" على الآثار التى تخلد انتصارات الملك مرنبتاح والملك رمسيس الثالث.[1]

من الأمور المهمة أيضاً ما نجده من تفاصيل جغرافية في الأوديسية، وهى تفاصيل لا بد وأن تكون قد صدرت عن شاهد عيان، مثل الإشارات إلى نهر النيل وجزيرة فاروس التى تقع في مواجهة الساحل المصرىّ والتى

أصبحت بعد ذلك موقع المنارة المشهورة. وفى القرون التالية للعصر الذي نظمت فيه الأوديسية بدأ ظهور التجار والجنود المرتزقة اليونانيين في مصر، وازدادت أعدادهم قبل نهاية القرن السابع قبل الميلاد، حتى أنه سُمح لهم بإنشاء مركز تجارىّ محصَّن في مدينة نقراطيس في الدلتا يتمتع ببعض الاستقلال الذاتىّ داخل حدود المدينة. وفى الوقت ذاته كان هناك تجمع يونانىّ آخر ليس بالهين في منف التى ساعد الجنود المرتزقة الملك بسماتيك الأول (٦٦٤-٦١٠ ق.م.) على استردادها من أحد الذين نازعوه العرش.

لقد كان المؤرخ اليونانى هيرودوتوس أشهر الزائرين اليونانيين إلى مصر قبل مجيء الإسكندر الأكبر، وعاش هيرودوتوس في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، ووصف في الكتاب الثانى من مؤلفه الذي يحمل اسم "تواريخ" (*Historiae*) العادات الغريبة لسكان أرض وادى النيل. في ذلك الوقت كانت مصر معروفة لليونانيين بأنها مكان يرتاده الزائرون والتجار أو يذهب المرء إليه للبحث عن عمل بوصفه جندياً مرتزقاً، كما رأينا، أو حتى للإقامة الدائمة بوصفه ممثلاً تجارياً أو صاحب عمل أو مستثمر. لكن أعداد هؤلاء اليونانيين لم تزد عن بضعة آلاف على أكثر تقدير وكانوا يدركون، حتى في أكثر الأوقات رخاءً، أنهم يقيمون في أرض أجنبية وأن بقاءهم رهن بمشيئة حكامها. أما غزوات الإسكندر فقد غيرت كل ذلك حينما جعلت من مصر جزءاً من "العالم اليونانىّ الجديد،" وجعلت منها أرضاً مليئة بالفرص المتاحة لكل اليونانيين ولعدد صغير نسبياً من سكان البلاد الوطنيين الذين يطمحون إلى العمل في الإدارة الحكومية تحت النظام الجديد (وكان من أول الشروط لذلك بعض المعرفة باللغة اليونانية).

لقد كان من أهم أعمال الإسكندر في أثناء إقامته القصيرة في مصر، وهو عمل كان مقدراً له أن يترك أثراً بالغاً في تاريخ العالم الغربىّ، أنه أنشأ عاصمة جديدة للبلاد ومدينة تحمل اسمه في الوقت ذاته، هى الإسكندرية. كذلك أكد الإسكندر باختياره موقعها على ساحل البحر المتوسط شمال دلتا النيل على أنها جزء من العالم اليونانىّ، وفى واقع الأمر فإن اسمها الرسمىّ الذي

احتفظت به لقرون عديدة بعد ذلك كان "الإسكندرية المجاورة لمصر." لقد أوجد الإسكندر بذلك أيضاً مركزاً يونانياً مهماً ينافس مدينة منف، ويقلل من إشعاع هذا المركز السياسىّ والدينىّ، الذي كان عاصمة مصر القديمة لآلاف السنين، ويحد من أهميته ومن انجذاب المصريين له. وبعد أن أصبح بطلميوس ملكاً بوقت قصير، ترسم خطا الإسكندر وأقام بعض المستوطنين اليونانيين في مدينة يونانية جديدة، هى مدينة بطلمية، التى أسسها بالقرب من مدينة طيبة العاصمة الوطنية في مصر العليا. كذلك تناثرت مستوطنات أصغر من المهاجرين اليونانيين ومن أحفادهم في سائر أنحاء البلاد في العصر البطلمىّ، ابتداءً من الإسكندرية وساحل البحر المتوسط شمالاً إلى حدود مصر الجنوبية وعند جزيرة فيله ومنطقة الشلال الأول. وكانت هذه التجمعات الهللينية الصغيرة تحتقر عامة المصريين "البرابرة" الذين يعيشون من حولهم، إلا أنه، كما سنرى في هذا الفصل والفصول التالية، كان للجوار والتعامل اليومىّ أثرهما الحتمىّ في إيجاد ثغرات في الحواجز الفاصلة بين هاتين الفئتين. لقد أوضحت الأجيال المتأخرة من اليونانيين الذين ولدوا في مصر أنها أقل عداءً من أجدادهم المهاجرين الأوائل لفكرة الزواج من المصريين، خاصة في المستوطنات الجنوبية حيث كان اليونانيون أقل عدداً وأكثر بعداً عن مركز الحضارة الهللينية في الشمال، الإسكندرية.

الوصول إلى مصر

جاء اليونانيون بأعداد كبيرة من أدنى الأرض وأقصاها إلى أرض الأحلام، ولدينا سجلات لمهاجرين من مدن بعيدة في الشرق مثل سينوبى (Sinope) التى تقع في أقصى البحر الأسود، ومن مناطق في الشمال مثل إيلليريا ومقدونيا وتراقيا، ومن مدن في الغرب مثل سيراكيوزا في صقلية وربما أيضاً من مارسيليا (المستعمرة اليونانية التى تأسست حوالى ٦٠٠ ق.م.). وفى إحدى المرات نجح "بعض قادة الجنود" الذين أرسلهم بطلميوس الأول، في جمع

جنود مرتزقة من طيبة ومن ثيساليا ومن ماجنيزيا في آسيا الصغرى ومن كريت ومن مالطه. وبشكل عام يمكن القول بأن أصول آلاف الأفراد الذين نقابلهم على أوراق البردى في العصر البطلمىّ ترجع إلى ما يزيد عن مائتى مكان في العالم اليونانىّ.

وتسجل المسرحيات الهزلية القصيرة للشاعر الهللينستىّ هيروندس (Herondas) مجموعة من الصور المأخوذة من الحياة اليومية، وإن كان بعضها خارجاً قليلاً عن حدود اللياقة. أول هذه الأعمال يرجع تاريخه إلى حوالى عام ٢٧٠ ق.م، ونجد فيه شابة صغيرة جالسة في بيتها في إحدى المدن اليونانية وهى تشتكى غياب "رَجُلها" (الذي لا نعرف على وجه الدقة ما إذا كان زوجها أو حبيباً لها). وبينما هى جالسة تأتيها سيدة أخرى لتزين لها التعرف على رجل آخر من معارف تلك الأخيرة:

> لقد مرت عشرة شهور منذ أن ذهب ماندريس (Mandris) إلى مصر ولم تتلقىْ منه ولو كلمة واحدة. لا بد أنه غارق الآن إلى أذنيه في حب جديد وأنه قد نساك. إن معاقل أفروديتى (Mandris) موجودة هناك في مصر، حيث يوجد لديهم أيضاً كل شئ موجود أو مصنوع في أى مكان في العالم كله: الثروة والألعاب الرياضية والقوة والطقس الجميل والشهرة والمناظر الجميلة والفلاسفة والذهب والشباب ومعبد للإلهين الأخوين، وملك مستنير ومتحف للفنون والخمر، وباختصار كل شئ جميل قد تصبو إليه نفسه. ويا للنساء! ويا لكثرتهنّ، التى تفوق عدد النجوم في السماء! بحق بيرسيفونى (Persephonē)، صاحبة هاديس! (Hadēs) ويا لمناظرهنّ، وهنّ مثل الآلهات اللائى دعون باريس ليحكم على جمالهنّ.[٢]

من الأشياء التى تدلنا أيضاً على إغراءات الثروة البطلمية حياة الشاعر ثيوكريتوس (Theokritos) وأعماله. لقد ترك ثيوكريتوس سيراكيوزا، موطنه الأصلىّ، وهى عندئذ مدينة صغيرة ليبحث عن الشهرة والثروة في جو أكثر ثقافة، ووجدهما بعد بعض التجوال في الإسكندرية، حيث استقر به المقام حوالى عام ٢٧٠ ق.م. وتصور القصيدة الرعوية الرابعة عشرة لهذا الشاعر شاباً صغير السن يدعى أيسخينيس (Aischinēs) وهو يستشيط غضباً؛ لأن صاحبته هجرته إلى منافس له. وكما يقول، فإنه يفكر في أن يسافر في رحلة بحرية؛ لكى ينساها ويضع جانباً حبها من قلبه. ويأتى إليه وهو على هذه الحال صديق

له بالنصيحة التالية:

> إذا كنت تفكر حقاً في الهجرة فإن بطلميوس أفضل من يجد الرجل الحر عملاً عنده. ما هى صفاته الأخرى؟ إنه أفضل الرجال، يحفظ حقوق الغير، وصاحب فكاهة وظرف، ويعامل النساء باحترام، وفى قمة الذوق، ويعرف من هم أصدقاؤه (وبالإضافة إلى ذلك، فإنه يعرف من هم أعداؤه)، وصاحب فضل على الكثيرين، ولا ينكر جميلاً على أحد، كما يليق بملك ... حسنٌ، إذا كنت مستعداً لوضع عباءة المقاتل على كتفك الأيمن، ولديك الشجاعة على الوقوف ثابتاً في مواجهة مقاتل شرس، فعليك بالإسراع بالذهاب إلى مصر.[٣]

لا ريب في أن ماندريس وأيسخينيس كانا مجرد رجلين من آلاف عديدة، منهم الصغير والكبير، جذبهم بريق الذهب إلى مصر البطلمية. كذلك لا شك في أن الكثيرين منهم كانوا غير مخلصين لنسائهم وأهليهم بعد ذهابهم إلى مصر، مثل ماندريس؛ إلا أنه لا شك أيضاً في أن الكثيرين منهم أخذوا معهم نساءهم وأطفالهم أو أرسلوا في طلبهم بمجرد استقرارهم هناك.

لقد بدأ بطلميوس الأول بمجرد أن أصبح ملكاً في تحسين الميناء المزدوج في الإسكندرية، وفى نيته أن يجعل عاصمته المركز التجارىّ الرئيس في البحر المتوسط. ومن الوسائل التى لجأ إليها لتحقيق هذه الغاية أنه عيّن المهندس سوستراتوس (Sostratos)، من جزيرة كنيدوس، ليصمم مبنى المنارة التى تسهل أمر الاقتراب من الميناء حتى في أثناء الليل، وليشرف على بنائها. وقد حملت هذه المنارة اسم الجزيرة الصغيرة فاروس (Pharos)، التى شيدت عليها والتى تقع في مكان ملائم في مدخل الميناء، وكانت تتكون من ثلاثة طوابق تصغر مساحة كل منها كلما ارتفعنا. وقد بدأ استخدام المنارة عام ٢٨٠ ق.م.، أىّ في أوائل حكم بطلميوس الثانى، وفى خلال وقت قصير اعتبرها الأقدمون إحدى عجائب الدنيا السبع. وتخبرنا المصادر، التى ربما لا تخلو من بعض المبالغة، أن ارتفاع المنارة بلغ أربعمائة كيوبيت، أىّ حوالى ٢١٠ متراً، وكانت مزودة ببكرات وروافع، كما كان بها دَرَج، ويروى أنه كان يمكن رؤية ضوء شعلة المنارة الموقدة على قمتها في أثناء الليل على مسافة تزيد عن خمسين كيلومتراً، بفضل استخدام المرايا العاكسة في تقويته. وقد أهدت لوحة

منقوشة المنارة إلى "الإلهين المنقذين، من أجل حماية من في البحر." والآلهة المنقذة للبحارة اليونانيين في العقيدة اليونانية هما كاستور (Castor) وبوللوكس (Pollux)، أو كما يُسميان: الديوسكوروى (Dioskouroi). أما في هذا السياق فإن التعبير يتضمن ولا شك نوعاً من التورية *double entendre* التى تشير إلى الملك والملكة البطلميين، المعروفين بأنهما يشكلان زوجاً آخر من الآلهة المنقذة. وقد استمرت المنارة في خدمة الملاحة البحرية لما يزيد عن ألف عام، حتى لحقتها الأضرار بفعل مياه البحر في القرن السادس الميلادىّ، وانهارت تماماً بسبب الزلزال الذي وقع في القرن الرابع عشر الميلادىّ.[٤]

هل كانت الرحلة من بحر إيجه ومن مناطق البحر المتوسط الأخرى سهلة إلى الإسكندرية؟ إن الإجابة المختصرة على هذا السؤال هى أنها كانت تعتمد على الظروف الخاصة للرحلة. لقد كانت الطرق البرية والبحرية، خاصة تلك التى تصل بين آسيا الصغرى وجزر بحر إيجه معروفة منذ وقت طويل، لكن العصور القديمة لم تتوصل إلى نظام يشبه وسائل المواصلات المنتظمة. وكان على المسافر بالبحر أن يذهب إلى أقرب ميناء، وأن يحاول السؤال عن سفينة بضائع متوجهة، إذا حالفه التوفيق، إلى المكان المسافر إليه. وإذا لم ينجح في ذلك، كان عليه أن يقنع بأخذ أية سفينة ذاهبة في اتجاه ذلك المكان، وحينئذ كان يرتب الأمر مع ربان السفينة. وفى فصل الصيف، وهو وقت هبوب الرياح الموسمية الآتية من الشمال، كانت الرحلة من ميناء بيريه إلى الإسكندرية تستغرق ستة أيام، بينما كانت تستغرق من بيزنطه إلى الإسكندرية تسعة أيام. لكن مثل هذا الحظ كان يحالف القليل من المسافرين؛ إذ كانت معظم السفن لا تقطع الرحلة مباشرة، بل كانت تتوقف كثيراً؛ لتفريغ شحناتها ولانتظار شحنات جديدة من البضائع، قبل معاودة الإبحار. ولهذا كان المسافرون الذين يعلمون أنهم ربما يُضطرون إلى تغيير السفن التى يبحرون عليها في أثناء الرحلة *en route* يتجهون إلى ميناء كبير مثل إفيسوس، حيث يتأكدون من أنه يمكنهم العثور على سفينة تصل بهم إلى غايتهم، دون أن يُضطروا إلى الانتظار طويلاً. وربما اضطر كثير من المهاجرين إلى قطع

المسافة إلى الإسكندرية في أسبوع أو أكثر من ذلك. ويحدثنا خطاب يرجع إلى عام ٢٥٧ ق.م. عن مُسافرَيْن من الإسكندرية خرجت بهما السفينة عن مسارها فوصلا إلى ليقيه، ومن هناك استأجرا قارباً أخذهما إلى وجهتهما في جنوب آسيا الصغرى. وقد استغرقت هذه الرحلة شهرين، بينما وصل الخطاب الذي حمل هذه الأخبار إلى قريتهما فيلاديلفيا بإقليم أرسينوى، التى تبعد حوالى ٢٥٠ كيلومتراً إلى جنوب الإسكندرية، في تسعة عشر يوماً فقط.[٥]

ولأنه لم يكن على ظهور السفن عندئذ قمرات أو أماكن للانتظار والراحة، كما هو الحال الآن، فقد كان على المسافرين والمهاجرين أن يحضروا معهم ما يكفل راحتهم. وكان بعض المسافرين والمهاجرين يأخذون معهم، بالإضافة إلى ملابسهم، أدواتهم المنزلية الضرورية لإعداد الطعام ومتطلبات النوم. وفيما يتعلق بالترفيه وقضاء الوقت فقد كان بوسعهم الحديث مع غيرهم من المسافرين. ولا ريب في أن ألعاب القمار ساعدت اللاعبين والمشاهدين، سواءً بسواء، على تمضية الوقت. وعندما يتحسن الطقس كان هؤلاء يتمتعون بالنظر إلى السحب في السماء وإلى اندفاع المياه وتلاطمها، كما كان باستطاعتهم مشاهدة البحارة وهم يعملون في السفينة. وبطبيعة الحال كان الذين يستطيعون القراءة والكتابة يحضرون معهم شيئاً يطالعونه في أثناء الرحلة.

وكانت وسائل التسلية ممكنة فقط في الأوقات التى تسمح فيها الظروف الجوية بذلك؛ لكن هبوب الرياح المفاجئ وارتفاع الموج في بحر إيجه كثيراً ما كانا يجعلان السفر في هذا البحر لا يخلو من مخاطرة، خاصة في أثناء الشتاء وفى أوائل الربيع. وفى مثل هذه الحالات كانت السفن الكبيرة تخرج عن مسارها، أما السفن الصغيرة فكانت تجاهد من أجل الثبات في وجه العاصفة. ويعرفنا خطاب عام ٢٥٧ ق.م. الذي أشرنا إليه منذ قليل على مجموعة من المسافرين الذين تأخروا بسبب الظروف الجوية. أما المثال الآخر الأكثر شهرة فهو القديس بولس (Paulus) ورحلته إلى روما. لقد كان على ظهر سفينة كبيرة ومعه مائتان وستة وسبعون راكباً. وعندما هبت العاصفة مد المسافرون يد العون للبحارة لمواجهة الخطر؛ وعندما ازداد الأمر سوءاً ساعدوهم في

التخلص من شحنة الحبوب التى تحملها السفينة. "لقد كان البديل الوحيد لبقائهم على سطح الماء هو الموت؛ لأن السفن القديمة لم تكن تحتوى على قوارب للنجاة؛ أما القارب الوحيد على السفينة، الذي يتسع لاثنى عشر رجلاً على أكثر تقدير، فقد كان يستخدم في أعمال الميناء، لسحب السفينة مثلاً وليس للإنقاذ." وهناك بعض الحالات التى حاول فيها البحارة الفرار بجلدهم في هذا القارب، تاركين المسافرين للغرق مع السفينة، أو لإنقاذ أنفسهم بالعوم. وهنا أيضاً كانت السفينة، إذا ظلت طافية، تجنح إلى الشاطئ بعد أن تكون قد تحطمت. وتصور إحدى الروايات ذلك الموقف بالكلمات التالية: "لقد أخذت السفينة تندفع بسرعة بكافة أشرعتها التى حاولنا إنزالها فلم نتمكن؛ لأنها كانت معطلة عن العمل، وبدأنا نشعر بالخوف من الاصطدام باليابسة في ظلام الليل، ونحن في هذه الحالة البائسة، بطبيعة الحال إذا نجونا من البحر الغاضب."[٦]

على الرغم من تلك المخاطر التى ذكرناها فإن قائمة الأخطار التى يمكن أن يواجهها المسافرون بالبحر لم تكتمل بعد. لقد كان هناك أيضاً خطر القراصنة الذين يهاجمون السفن فيقتلون كل من يقاومهم ويمسكون بالباقين؛ لبيعهم في سوق العبيد. حقيقة إن عمليات القرصنة قلت بشكل واضح في القرن الثالث قبل الميلاد، عندما كانت الأساطيل القوية لمصر وأساطيل رودس (Rhodes)، الجزيرة التجارية المهمة، تجوبان الطرق الملاحية؛ إلا أنها لم تنته تماماً. وبالنظر إلى كل هذه المخاطر التى صاحبت الرحلات البحرية عندئذ، من تأخير وعواصف وحوادث، ومن خطر الوقوع في العبودية وربما مواجهة الموت، فليس بعجيب أن كثيراً من المهاجرين، خاصة القادمين من سوريا ومن آسيا الصغرى، فضلوا السفر بواسطة طريق ماريا *Via Maria* البرىّ الساحلىّ، كما أسماه الرومان بعد ذلك، على الرغم من أن السفر براً كان أكثر تكلفة ويأخذ وقتاً أطول من السفر بالبحر. وقد كانت هناك أيضاً، بالإضافة إلى اليونانيين، كما سنرى فيما بعد، أعداد كبيرة من اليهود الذين هاجروا إلى مصر في القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد. وبالنسبة لهؤلاء، كان الطريق البرىّ الساحلىّ، بطبيعة الحال، هو أنسب الطرق الواصلة بين فلسطين ومصر.

الإقامة في مصر

الجيل الأول والثانى من المهاجرين:

لا توجد لدينا أية إشارة في المصادر عن وجود جهة بعينها تهتم بشؤون "الهجرة والجنسية" يجب على القادمين الجدد الاتصال بها بمجرد وصولهم إلى مصر. إننا نسمع عن عديد من التعريفات الجمركية؛ حيث كان على المسافرين الذين يصطحبون معهم بعض العبيد أن يدفعوا عنهم ضريبة استيراد قبل أن يُسمح لهم بدخول البلاد. كذلك كان كثير من السلع يخضع لضريبة تُحسب على أساس قيمتها *ad valorem*، وربما وصلت تلك الضريبة إلى ٥٠%. ولكن هذه الضرائب كانت مفروضة على المواد التجارية، وليس هناك دليل على أن أمتعة المهاجرين الشخصية أو أدواتهم المنزلية كانت تخضع للضرائب الجمركية. وفيما يتعلق بالمهاجرين أنفسهم فليست لدينا أية معلومات عن شروط لدخولهم البلاد، أو عن حالات استبعاد لبعضهم، ويبدو أن سياسة الباب المفتوح كانت هى السائدة في ذلك الوقت، وأن كل من اختار المجيء إلى مصر كان يتم الترحيب به. أما مغادرة البلاد، على العكس من ذلك، فكانت تستلزم تصريحاً بالخروج.

لقد لاحظ كاتب أحد الخطابات في عام ٢٥٨ ق.م. أن "الأجانب القادمين بالبحر والتجار ووكلاء الشحن وغيرهم من المسافرين يُحضرون معهم عملتهم المحلية،" كما لاحظ وفود بعض التجار حاملين معهم سلعاً كمالية وترفيهية، مثل العبيد والخيول، لأجل بلاط الملك والأغنياء الجدد *nouveaux riches*. كذلك وفد الكثيرون غيرهم من أجل الحصول على السلع التى تشتهر بها مصر، ومن أشهرها الغلال ولفافات البردى، أىّ: أوراق الكتابة في العصور القديمة. وكان على الجميع، قبل أن يدخلوا البلاد ويتجولوا فيها، أن يغيروا ما معهم من عملة إلى عملة الملك، التى كانت العملة الوحيدة المستخدمة داخل البلاد. وكانت البنوك تأخذ عمولة على عمليات تحويل النقود قد تصل إلى ١٠% كما كانت تُضطر إلى تسليم العملة الأجنبية إلى خزانة الملك لصهرها ولإعادة إصدارها في شكل عملة بطلمية.[٧]

الأفراد المدنيون:

إن مبلغ علمنا أن الحكومة البطلمية تركت من جاءوا للبحث عن فرص الثراء السريع وشأنهم دون أيّ تدخل واضح من جانبها. وهكذا سرعان ما انتشرت تجمعات سكانية كبيرة من التجار الإغريق في عديد من المدن المصرية، مثل مدينة منف وبعض عواصم الأقاليم التى كانت تنقسم إليها مصر من الناحية الإدارية، بالإضافة إلى نقراطيس والمدينتين اللتين تأسستا حديثاً آنذاك، وهما الإسكندرية وبطلمية. وبطبيعة الحال كان الوافدون الجدد يميلون بعد وصولهم إلى الإقامة في أحد المجتمعات الناطقة باليونانية، حيث يمكنهم أن يشعروا ببعض الألفة في مجتمعهم الجديد. وربما وفد بعضهم على أصدقاء أو أقارب لهم، يتوقعون منهم أن يستقبلوهم أو أن يساعدوهم أحياناً ببعض النقود، وأحياناً أخرى بإعطائهم بعض خطابات التوصية. وفى بعض الأحيان كانت هذه الخطابات تفتح الباب أمام بعض الفرص الكبرى والملائمة في عالم التجارة أو الأعمال الحكومية، خاصة إذا ما كتبتها شخصية مهمة إلى موظف كبير في الإدارة. وقد عُثر على عديد من هذه الخطابات بين أوراق البردى. وفيما يلى واحد من الخطابات التى كتبت في الإسكندرية حوالى عام ٢٥٠ ق.م.، وهو خطاب مرسل إلى مدير ضيعة كبيرة في فيلاديلفيا في إقليم أرسينوى، كان يمتلكها في ذلك الوقت وزير المالية:

> من أسكليبياديس (Asklepiadēs) إلى زينون (Zēnōn)، بعد التحية. إننى أعرف فيلون (Philōn)، الذي يحمل إليك هذا الخطاب، منذ بعض الوقت. إنه الآن مسافر إلى الجنوب للبحث عن وظيفة إدارية من أيّ نوع لدى فيليسكوس (Philiskos) [وهو موظف في الإقليم]. من فضلك حاول أن تتعرف عليه وأن تقدمه إلى بعض الرجال المهمين الآخرين. أرجو أن تساعده من أجلى ومن أجله هو أيضاً، فإنه يستحق كل عون، كما سيتضح لك أنت أيضاً بعد أن تلقاه، والسلام.[٨]

لا شك في أن فيلون، حامل هذا الخطاب، قد أتى إلى مصر وعينه على مستوى مادىّ أفضل. وقد كانت الوظائف الحكومية بدرجاتها العليا والوسطى من أهم المجالات التى تتيح فرصاً عديدة لليونانيين الوافدين (حيث إن الدرجات الدنيا كانت تترك عادة لأهل البلاد، الذين باستطاعتهم التحدث باليونانية).

ونظراً لأن النظام الإدارىّ الذي طوره البطالمة كان يعتمد على التدقيق والمتابعة والمراجعة، فقد استلزم ذلك بالضرورة وجود إدارة شديدة البيروقراطية تضم جيشاً كبيراً من الموظفين. وسوف نلحظ عناصر هذه البيروقراطية في أثناء عملها فيما تبقى من هذا الكتاب.

أما النوع الآخر من المهاجرين القادمين من بلاد اليونان فهم أصحاب الثروات التى تفاوتت مقاديرها، الذين أتوا إلى مصر بحثاً عن أفضل السبل للاستثمار، خاصة الاستثمار السريع. وقد أصبح بعض هؤلاء أصحاب محال تجارية، كما في حالة تجار الخمر الثلاثة الذين تقدموا في قرية كيركيسوخا (Kerkesoucha) في عام ٢١٨ ق.م. بالتماس ضد مزارع مصرىّ يتّهمونه بالاستيلاء على نقودهم وبتسليمهم، كما يدّعون، كمية أقل من المتفق عليها. كذلك وجد بعض أصحاب الثروات الكبرى فرصاً أكبر في مجال الصناعة وفى أعمال البنوك وفى مجال التصدير والشحن، وبالإضافة إلى ذلك في مجالات إقراض النقود وتحصيل الضرائب. لقد احتفظت الإدارة البطلمية بحق السيطرة على عدد كبير من الأنشطة الاقتصادية التى كان من أهمها إنتاج زيوت الخضروات (التى كانت تشكل في العصور القديمة بديلاً للزبدة والدهون) وتوزيعها، وكذلك حق استيراد وتصدير بعض السلع، وحق الإشراف على البنوك. لكن الإدارة كانت تمنح، عادة لأعلى مزايد، حقاً مطلقاً في الاشتغال بنشاط معين لمدة معينة وفى مكان معين، وهو ما يعنى باختصار "حلم أصحاب المشروعات." وهكذا دخل كثير من الرجال، فرادى وجماعات، ممن لديهم أموال سائلة في منافسات قوية من أجل هذه العقود المربحة.[٩]

وكان إقراض النقود وسيلة سريعة للربح، ويبدو أن القروض الملاحية التى تعطى لملاك السفن من أجل رحلات معينة وبضمان السفينة كانت مربحة بوجه خاص. ولكن الدليل على وجود هذه القروض يتناسب عكسياً مع الأدلة التى وصلت إلينا عن القروض الشخصية العادية. كذلك كانت هناك قروض قصيرة الأجل يحصل عليها الأفراد العاديون؛ للوفاء بأغراض واحتياجات عديدة، مقابل كافة أنواع الرهونات بما فيها شخص المدين ذاته. أما الفائدة

على هذه القروض في كافة أرجاء العالم الهللينستيّ فكانت تتراوح بين ٨% و ١٠% في العام. ولكن البطالمة أصدروا مرسوماً ملكياً يسمح بالحصول على فائدة تصل إلى ٢% شهرياً أو ٢٤% سنوياً. وهكذا كان يمكن للمرء أن يضاعف رأسماله في خلال أربعة أعوام أو خمسة على أكثر تقدير. ويبدو أن أكثر التفسيرات احتمالاً لشرح هذا الفارق الضخم في قيمة الفائدة هو أن استخدام العملة كان في مصر، حيث استمرت القرى الزراعية في ممارسة نظام اقتصاديّ يعتمد على المقايضة، أقل منه في بلاد اليونان حيث ساد نظام يعتمد على النقود لقرون عديدة. وربما يوضح هذا الوضع الخاص في مصر السبب الذي جعل البطالمة يُفضلون أن يكون لهم نظام للعملة خاص بهم، بحيث تكون عملتهم مميزة ولا تختلط مع أيّ من العملات المستخدمة في العالم الهللينستيّ (المتأغرق). ولهذا السبب لم يكن عالم بحر إيجه الفقير مُصدّراً كبيراً لرؤوس الأموال التى أتت للاستقرار في مصر ولزيادة رصيد هذه البلاد. وعلى الرغم من ذلك فقليلاً ما كانت الموارد تفى بالاحتياجات، وكثيراً ما كان العجز الماليّ يزداد بسبب الحروب المتكررة مع سوريا السليوقية. وكانت إحدى نتائج هذا الوضع في أوائل القرن الثانى قبل الميلاد اختفاء العملة الفضية من التعاملات الاقتصادية في مصر البطلمية وحلت محلها عملة تضم خليطاً من الفضة والنحاس معاً، كانت نسبة الفضة فيها إلى النحاس هى ١ : ٥ .

كذلك فقد صدر قانون بطلميّ آخر (يُقال إنه استمرار أو إحياء لقانون صدر عن ملك فرعونيّ في القرن الثامن قبل الميلاد) ينصّ على ألا يزيد مجموع الفائدة عن أصل الدين، ولا شك في أن هذه الخطوة كانت تهدف إلى تخفيف النسبة المرتفعة للفائدة أو إلى إيجاد نوع من التوازن معها. لكن الوثائق التى وصلت إلينا تدل على أن نسبة الفائدة كانت تزيد في حالات كثيرة عن النسبة القانونية دون أية مسائلة، وهو ما يجعلنا نفترض أن الشرط المتعلق بمجموع الفائدة كان أيضاً لا يتم التقيد به. ويمكن القول بإيجاز إن الفرصة كانت كبيرة ومهيأة أيضاً لاستثمار مبالغ ضخمة من الأموال في مجال عمليات إقراض النقود.

وكانت عمليات الشحن أحد الأنشطة التى جذبت بعض المستثمرين، كما كانت هناك حاجة دائمة إلى بعض القروض البحرية؛ حيث إن فوائد هذه القروض كانت مضمونة. أما السلعة الأساسية التى تطلبت نقلها مائياً فهى أجزاء المحاصيل التى كانت تُحصّلها الإدارة في شكل ضريبة عينية. وكانت هذه الشحنات تُنقل في سفن تتراوح حمولتها بين مائتى أردب وعشرة آلاف أردب، أو خمسة أطنان ومائتين وخمسين طناً، من كافة أرجاء البلاد إلى الإسكندرية. ومن هناك كان جزء كبير من الغلال يُصدّر إلى الخارج. وبالنظر إلى أن أسطول سفن البضائع الذي تملكه الدولة لم يكن كبيراً، عن قصد على ما يبدو، فقد كانت هناك حاجة تزداد إلحاحاً في وقت الذروة إلى سفن إضافية. وقد بلغ من كون هذا النشاط جذاباً للاستثمار الخاص أن بعض ملاك السفن الذين ورد ذكرهم في المصادر كانوا رجالاً ونساءً ينتمون إلى الطبقة العليا في المجتمع البطلميّ، ومن بين العاملين في البلاط الملكىّ، كما أن إحدى الملكات، هى كليوباترا الثانية أو الثالثة، كانت تمتلك بعض السفن الخاصة بها. ومن الواضح أيضاً أن هؤلاء الناس كانوا مجرد ملاك لم يشغلوا أنفسهم بتفاصيل ومهام تشغيل القوارب التى اكتفوا بتعيين ربابنة لها، وتركوا لهم مسؤولية تشغيلها والاهتمام بكافة شؤونها.[١٠]

لقد كان نظام الالتزام، الذى كان متبعاً فى جمع الضرائب في بلاد اليونان، إحدى الوسائل الأخرى للحصول على ربح سهل وسريع، خاصة في مصر البطلمية، حيث كان الأمر لا يتطلب من الملتزم سوى دفع قدر من النقود ثم القيام بعد ذلك بمراجعة السجلات وحسابات البنوك الخاصة بالموظفين المحليين وبموظفى الملك الذين يقومون فعلاً بجمع الضرائب. وبعبارة أخرى فإن ملتزم الضرائب كان يعمل بوصفه ضامناً لمقدار معين من ضرائب الدخل أكثر منه جامعاً لها. وفى كل عام كانت الضرائب الرئيسة في مناطق معينة تعرض في مزاد، كل ضريبة على حدة، وكان حق جمعها يُعطى لأعلى مزايد يدفع القيمة كاملة للدولة، إما دفعة واحدة أو على دفعات كما كان يحدث في الغالب. وكان الحاصل على العقد أو محصل الضرائب يتوقع أن يُعوض نفقاته

وأن يحصل على ربح من وراء المدفوعات الصغيرة التى وضعها محصلو الضرائب العاملين بالدولة في البنوك المحلية. وتوضح إحدى البرديات الموجودة في متحف اللوفر (Louvre)، التي يأتى منها الاقتباس التالى، كيف أن كل مرحلة من هذه الإجراءات كانت محددة بكل دقة. ومن الشروط الجديرة بالملاحظة كذلك، الشرط الذي يُطالب الحاصل على العقد بأن يتحمل أىّ عجز في الضرائب. مثل هذه الحالات كانت تحدث من حين لآخر، دون شك، نتيجة لقلة المحصول أو لبعض الأسباب الأخرى المفاجئة. ولكن يبدو أن عامل المخاطرة من جانب محصل الضرائب كان ضعيفاً بشكل عام، ويبدو أيضاً أن هذا العامل لم ينجح أبداً، مثلما لم تنجح كثرة اللوائح والشروط الإدارية، في التقليل من حدة المزايدة على معظم العقود.

إن بردية اللوفر، التى أشرنا إليها في الفقرة السابقة، ترجع إلى عام ٢٠٣/٢٠٢ ق.م.، وتبدأ بكلمة "نحن" الملكية:

> نحن نعرض للبيع [لأعلى مزايد]، في إقليم أوكسيرينخوس (Oxyrhynchus)، عقود تحصيل ضرائب ... العام [القادم] الثانى، لمدة اثنى عشر شهراً وخمسة أيام النسيء. وعليكم أن تشتروا العقود بالطرق القانونية وألا توجدوا سبباً للانتقاد أو للاستنكار، بل وأن تتولوا أموركم بأفضل الوسائل طبقاً للقوانين والمراسيم والتعليمات والملاصق التى أصدرناها بشأن عقود تحصيل الضرائب. وعليكم في أثناء تنفيذكم للعقود ألا تُخفضوا شيئاً من القيمة الإجمالية المستحقة للخزانة، لأى سبب، وألا تختلسوا شيئاً، وأن تعلموا أن أىّ نقص سوف يتم تحصيله منكم أنفسكم.
>
> وهؤلاء الذين يحصلون على العقود عليهم أن يقدموا للموظف المالىّ وللسكرتير الملكىّ [في الإقليم] ضمانات عن القيمة الكاملة للعقد، بالإضافة إلى عشرة بالمائة ... في خلال ثلاثين يوماً من المزاد ... وفى خلال [؟] أيام من تلقى الضمانات فإن بيانات تحديد المسؤولية على أساسها سوف توضع في البنوك الملكية، وسوف تسجل فيها وعليها أختام هؤلاء الموظفين وموظف البنك. وسوف يسجل هذا الأخير في سجلاته الشهرية بخط واضح تفصيلات بيانات تحديد المسؤولية، أىّ قيمة الأملاك الموضوعة على هيئة ضمان عنده، ومَنْ هم الضامنون والأملاك التى قدمها كل واحد منهم، وكذلك شهادات الموظفين التى تفيد أنهم قد تحققوا من أن الودائع التى استلموها تساوى قيمتها القيمة [المذكورة]....
>
> وإذا لم يتمكن أحد من الحاصلين على العقود من تقديم الضمانات في الوقت المحدد، فسوف يُعاد بيع عقودهم، وإذا نتج عن ذلك سعر أقل فسوف يُحصّل الفارق منهم ...

ويمكن لمن يحصلون على العقود أن يعيدوا بيعها، من الباطن، على أن يخبروا الموظف الماليّ والسكرتير الملكيّ. وعلى المتعاقدين الجدد أن يقدموا ضمانات للموظفين المذكورين، غير الضمانات التى قدمها محصّلو الضرائب [الرئيسين]. وتجب معاملة بيانات تحديد المسؤولية على أساس الضمانات الثانية بنفس الكيفية.

يجب أيضاً مراجعة حسابات العقد مع محصلى الضرائب شهرياً، على أساس المبالغ المدفوعة إلى البنك [بواسطة جامعى الضرائب]... وعليهم أن يحصلوا، مقابل هذه المدفوعات، على إيصالات من موظف البنك موقع عليها بواسطة بعض الشهود. وإذا لم ينفذ هذا الإجراء لن تحق لهم المطالبة بالمدفوعات. وإذا حصل أحد محصلى الضرائب على بعض العقود وربح في بعضها وخسر في البعض الآخر، تُحدد قيمة الربح بعد مقابلتها بالخسارة [أىّ لتقليل قيمة الأخيرة أو لإلغائها]... ولن يُسمح لأحد بمشاركة الذين حصلوا على العقود، باستثناء الذين كانت أسماؤهم مسجلة في وقت البيع. وإذا خالف أحد شروط هذا [البند] فسوف يدفع الذي يتخذ معه شريكاً غرامة قدرها عشرون تالينتاً. وإذا تبين أن أحدهم [أىّ الشركاء] مدين بسبب العقود فسوف تحصّل قيمة الدين من أىّ منهم، أو منهم جميعاً.[١١]

ويعرفنا دليل عثر عليه مؤخراً بمصدر آخر من مصادر الحصول على المال التى تتيح ربحاً سريعاً. كذلك سوف نتناول في نهاية هذا الفصل الامتيازات الممنوحة لبعض المهاجرين الذين حصلوا على قطع من الأراضى كانت تشكل جزءاً من المكافأة التى يحصلون عليها مقابل انخراطهم في سلك الجندية. ربما لم تكن عند كثيرين منهم، إن لم تكن عند كافتهم، النية في أن يعملوا في الأرض بأنفسهم؛ إذ أن بعض الذين حاولوا ذلك سرعان ما توقفوا عن المحاولة، ولكنهم تطلعوا جميعاً إلى تأجير أراضيهم إلى مزارعين من أهل البلاد، بينما استمتعوا هم بوقتهم في بعض الأجواء اليونانية الحضرية أو شبه الحضرية، كما لو كانوا من أصحاب الأموال أو من أصحاب الأملاك *rentiers*. وكان الأفراد الذين يمتلكون بعض الأموال السائلة يسارعون عندئذ إلى العمل بوصفهم سماسرة ووسطاء تجاريين. وكان هؤلاء يتعاقدون على استئجار قطع كاملة من الأراضى من أصحابها، ويدفعون لهم بعض المال مقدماً، أو يقرضونهم إياه، بالإضافة إلى إعطائهم جزءاً من المحصول بعد الحصاد ليتقوتون به. وكان الوسيط يقوم بعد ذلك بتأجير الأراضى من الباطن على

هيئة قطع متفاوتة المساحة، وبإيجار مرتفع، إلى المزارعين المصريين الذين يقومون فعلاً بزراعة الأرض.[١٢]

ومع كل هذه الفرص الكبيرة والمتعددة من المهم أن نلحظ أن ذلك لا يعني أن كل يونانيّ هاجر إلى مصر البطلمية أصبح من أصحاب الملايين بين عشية وضحاها. لقد تبين لكثير منهم أن "أرض الميعاد" على ضفاف النيل ليست سوى أرض الآمال الكاذبة والوعود الخالية، ولم ينجح هؤلاء أبداً في طرح عباءة الفقر من فوق أكتافهم، ولم يختلفوا عن المصريين في المهام أو الأعمال البدنية التي يقومون بها. ولسوف نقابل بعد ذلك في هذا الفصل، على سبيل المثال، أحد سائقي البغال اليونانيين الذي اتخذ لنفسه زوجة من المصريين.

الجيش والحياة العسكرية:

بالمقارنة بالمهاجرين الذين دخلوا عالم الأعمال والمهن المدنية والذين اعتمدوا على وسائلهم الخاصة، كان القادمون إلى مصر البطلمية للعمل في القوات العسكرية؛ سواءً بوصفهم جنوداً مرتزقة يعملون لمدة محدودة أم قوات احتياطية دائمة الاستقرار، يتم اختيارهم وانتقاؤهم عن طريق بضع الوكلاء والموظفين، من أول لحظة يطأون فيها أرض البلاد. ونتيجة لذلك، يوجد لدينا العديد من أوراق البردي والنقوش التي تمتلئ بكثير من المعلومات عن حياة هؤلاء المهاجرين وعن حياة أسلافهم.

ويعطي النظام العسكريّ للبطالمة، من منظور تاريخيّ، إحساساً قوياً بأنه نظام مبتكر *déjà vu*. وإذا كان من المحتمل أن بطلميوس الأول قد اكتشف أن الجنود المرتزقة لا يشكلون قاعدة مناسبة لمؤسسة عسكرية يمكن الاعتماد عليها، فقد تأكد ذلك الأمر لبطلميوس الثاني. وبالنظر إلى أن الجنود المرتزقة كانوا يتعاقدون لمدة محددة وصغيرة بعض الشئ، فلم يكن من اليسير دائماً معرفة أعداد الذين سيختارون أن يُجددوا عقودهم. بالإضافة إلى ذلك كان هؤلاء الجنود يُشكلون ضغطاً على الخزانة؛ لأنهم كانوا يحصلون على أجورهم

نقداً، ومنهم من كان يُصر على عملة يألفها، كما باستطاعتنا أن نستنتج من قطع العملة من فئة الأربع دراخمات "التيترادراخمه" (*Tetradrachma*) الأثينية الشكل التى صُكت في مصر.[١٣] وعلى الرغم من أنه لم يكن باستطاعة أىّ ملك من ملوك العصر الهللينستىّ (المتأغرق) أن يتخلى تماماً عن استخدام الجنود المرتزقة، فقد اتبع بطلميوس الثانى وخلفاؤه نظاماً كان موجوداً منذ مدة طويلة من قبل، في عصر ملوك مصر القديمة. لقد كون البطالمة طبقة عسكرية دائمة ووراثية ومستقرة في البلاد في أوقات السلم، ويمكن تعبئتها بسرعة في أوقات الطوارئ. وبينما كانت الغالبية العظمى للمستقرين العسكريين من أصل يونانىّ ومقدونىّ، فإنه يمكننا أن نلحظ أنه كان يتم أيضاً قبول غير المصريين، مثل الإيدوميين من جنوب البحر الميت، وكذلك اليهود الذين كانوا يُشجَعون على المجيء إلى مصر، خاصة بعد عام ١٦٧ ق.م.، عندما حررت ثورة المكابيين فلسطين من حكم سوريا السليوقية، منافس البطالمة الرئيس في السيطرة على المنطقة.[١٤]

أوامر الإيواء: كان بعض الجنود الوافدين من خارج البلاد يظلون في الإسكندرية؛ لكى يدعموا حرس القصر وبعض القوات الخاصة الأخرى. أما الغالبية العظمى، بما فيها من جنود مرتزقة ومن مستوطنين، فقد كانت ترسل إلى مناطق مختلفة في أعالى البلاد، حيث يُطلب من السكان المحليين استقبالهم إما بشكل دائم أو لحين بناء ثكنات منفصلة لهم. وعلى مر التاريخ كان إيواء الجنود في المنازل الخاصة بالأفراد مثار احتكاك دائم بين المدنيين والعسكريين، وحتى عندما كانت هذه الإيواءات مدفوعة الأجر، فإن الناس كانوا يتضررون منها، وكان الجنود يزيدون الأمر سوءاً، إما بتعاليهم أو بتصرفهم وكأنهم يملكون المكان. أما في حالة مصر البطلمية، حيث كانت هذه الأوامر تصدر عن السلطة بوصفها أوامر رسمية، فقد كانت النتيجة أن أصبح الإيواء ضريبة إضافية ودائمة على الضحايا الذين لا يملكون في مواجهة هذه الأوامر حولاً ولا قوة.

ومن بين أقدم الوثائق البطلمية التى وصلت إلينا، والتى ترجع إلى المدة

من ٢٧٦ إلى ٢٦١ ق.م.، توجد ستة من المراسيم الملكية التى تستنكر العديد من المساوئ التى يرتكبها الجنود الذين صدرت الأوامر بإيوائهم. ويمنع أحد هذه المراسيم الجندى الذي حصل على مأوى من المطالبة بمأوى آخر وإلا فقدهما معاً، بينما ينص مرسوم آخر على أن يسكن الجندى في نصف المكان الذي خصص له وأن يترك النصف الآخر للمالك، وكانت الغرامة في هذه الحالة الأخيرة كبيرة.[١٥]

وفى بعض الأحيان كان الجنود أنفسهم يتشاجرون مع بعضهم البعض ويلجأون إلى العنف، في أثناء محاولاتهم الحصول على أفضل أماكن الإيواء، كما نرى في الخطاب التالى الذي يوافق تاريخه العاشر من أغسطس عام ٢٥٩ ق.م.:

إلى الملك البطلمىّ، بعد التحية من آريوس (Areus)، المجدف على سفينة حربية [تحت قيادة] بوليمون (Polemon). لقد تشاجرت مع كيفالون (Kephalon) الذى اقتحم مكانى الذى أعطانيه موسخيون (Moschion)؛ فقد ألقى كيفالون، على الرغم من أنه لم يكن هناك أىّ خلاف بيننا، بأمتعتى فى الشارع واعتدى على، فى محاولة منه أن يطردنى أنا أيضاً. ولكننى رفضت الخروج وناديت على الجيران للشهادة، وجاء عدد منهم وأخذوا يوبخونه، مما جعله يغادر المكان وأعدت أنا أشيائى التى ألقيت فى الشارع. ولهذا فإننى أرجو منك، فخامة الملك، أن تأمر قائد الشرطة المحلىّ أن يحقق فى حادث الاعتداء، وفى الضربات ... [باقى البردية مفقود].

وبعد مرور خمسة أو عشرة أعوام من تاريخ هذا الالتماس، تم إرسال الخطاب التالى إلى موظف غير معروف [لنا]؛ إذ لم يرد ذكر اسمه فى أية وثيقة أخرى:

من الملك بطلميوس إلى أنتيوخوس (Antiochos)، بعد التحية. بشأن موضوع إيواء الجنود، لقد تناهى إلى علمنا حدوث بعض حالات العنف التى لا مبرر لها عندما اقتحم الجنود المنازل وطردوا أهلها منها، وشغلوا الأماكن بالقوة، بدلاً من أن ينتظروا الموظف المالىّ [للإقليم] حتى يوزعها علهم. لهذا، عليك أن تصدر أوامرك بألا يتكرر ذلك ثانية. وإذا كانوا سيشيدون أماكن إقامة خاصة بهم، فبها ونعمّت، أما إذا احتاجوا أماكن للإيواء فإن على الموظفين الماليين أن يوزعوا عليهم ما هو ضرورىّ. وعندما يتركون هذه الأماكن عليهم أن يعيدوها وألا يحتفظوا بها حتى وقت عودتهم، حيث إننا نسمع الآن أنهم يؤجرونها وأنهم يغلقون حجراتهم قبل رحيلهم ...[١٦]

على الرغم من هذه الأوامر والمراسيم، استمرت المساوئ واستمر

استغلال السلطة؛ لأن الدافع إلى التحكم والسيطرة كان متأصلاً فى الوضع ذاته، حيث يوجد "أصحاب البيوت" الذين لا حول لهم ولا قوة فى مواجهة "ضيوف" متغطرسين ومسلحين. لقد قابلنا مثالاً من عام ٢٥٩ ق.م. لجندى حاول أن يطرد جندياً آخر من مأواه؛ حتى يستولى عليه لنفسه، وفى الفصل الرابع يوجد مثال آخر لجندى طرد مالك أحد البيوت المصريين من بيته، لأنه شاهد البيت وأعجب به أكثر من إعجابه بالمأوى الذى خصص له فى القرية نفسها. ولأن أصحاب البيوت كانوا غير قادرين على مقاومة أوامر الإيواء أو المساوئ المصاحبة لها، فقد كانوا يجربون وسيلة بعد أخرى، ويفاجأون بأنها جميعها بلا فائدة، كما نرى في التقرير التالى المرسل عام ٢٤٢ ق.م. من موظف مسؤول عن الإيواء إلى رئيسه:

> لقد وجدنا ... أن بعض المنازل المخصصة لعملية الإيواء قد أزيلت سقوفها بواسطة الملاك الذين لجأ بعضهم أيضاً إلى إغلاق أبوابها أو إلى بناء مذابح للآلهة في مواجهتها [لتبدو وكأنها ساحات مقدسة]. وقد فعلوا ذلك كله حتى لا تُخصص منازلهم للإيواء، ولهذا فإننا بحاجة شديدة وملحة لأماكن للإقامة. إننى أرجو أن تأمر بإجبار ملاك المنازل على إزالة المذابح ... حتى يمكننا أن نخصص هذه المنازل للأعمال التى سيصل المشرفون من أجلها.[١٧]

كذلك لجأ بعض أصحاب المنازل إلى بناء حائط يقسم المنزل إلى نصفين؛ حتى تكون لأسرته حياتها الخاصة، وأصبح هذا الأسلوب في خلال وقت قصير تقليداً متبعاً ومقبولاً بشكل أو بآخر. وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الوسيلة أيضاً قد تصبح مثاراً للنزاع، كما نرى في الالتماس التالى الذي قدم عام ٢٢٢ ق.م. بواسطة أرملة جندى تدعى آسيا. وبينما يكشف اسمها عن أصلها، فإنه يوضح أيضاً السبب الذي يجعلها تقيم مذبحاً لإلهة سورية في منزلها:

> لقد اعتدى علىّ بوؤريس (Poōris) مالك المكان الذي أقيم فيه. فبالنظر إلى أن زوجى ماخاتاس (Machatas) قد خُصص له مكان للإقامة في قرية بيلوسيون (Pelousion)، فقد قسم المنزل بينه وبين بوؤريس، وبنى في الجزء الذي يخصه مذبحاً للإلهة السورية وأفروديتى- بيرينيكى (Aphroditē-Berenikē) [الملكة الحاكمة]. وقد كان في منتصف المنزل حائط غير مكتمل حاولت إكمال بنائه؛ حتى لا يتمكن أحد من المرور إلى الجزء الذي يخصنا؛ إلا أن بوؤريس منعنى من بنائه،

ليس لأن الحائط يهمه في شئ، ولكن لأنه يستضعفنى بعد وفاة زوجي. لهذا فإننى أرجو منك، فخامة الملك، أن تأمر الاستراتيجوس ديوفانيس (Diophanēs) أن يكتب إلى ميناندروس (Menandros) قائد الشرطة [في القرية لتحرى الموضوع]، وإذا وجد أن الحائط يخصنا، عليه ألا يسمح لبوؤريس بمنعنا من بنائه. وهكذا أحصل على حقى، فخامة الملك، بعد أن لجأت إلى حماك، مع وافر التحية.[١٨]

حصص الأراضى: كان الجنود المرتزقة يحصلون على رواتب نقدية، بالإضافة إلى أماكن الإيواء التى تخصص لهم. وبالمقارنة بهؤلاء، فإن كل جندى مقيم كان يحصل، بدلاً من النقود، على قطعة من الأرض من الجزء المخصص لاحتياطى الجنود من أراضى الملك الواسعة، أو من الأراضى العامة (بقرار ملكىّ)، أو من الضياع الكبيرة التى منحها الملك من قبل لأحد أفراد بلاطه أو أحد المقربين إليه. وكانت قطعة الأرض المخصصة لأىّ من هؤلاء الجنود تُسمَّى كليروس (*Klēros*)، بينما يسمى صاحبها، الجندى المقيم، كليروخوس (*klērouchos*) [أىّ صاحب حصة أرض، وجمعها كليروخوى: المترجم]. وقد أغرت المميزات الواضحة التى حصل عليها الكليروخوى كثيراً من الجنود المرتزقة بأن يفضلوا البقاء وتغيير وضعهم إلى جنود مقيمين. لكن البعض الآخر فضل الاحتفاظ بصفته جندياً محترفاً، حتى بعد الحصول على إقامة دائمة، وهو تطور ملحوظ خاصة في المصادر التى وصلت إلينا من القرن الثانى قبل الميلاد. ففى ذلك الوقت، الذي بدأت تقل فيه الأعداد المتوفرة من الجنود المرتزقة، منح الملوك البطالمة جنودهم المحترفين امتيازات وراثية مثل التى يحصل عليها الكليروخوى، وهو الأمر الذي جعل هؤلاء الملوك ينجحون في الاحتفاظ بخدمات أعداد كبيرة منهم. وسوف نقابل ثلاث عائلات من طبقة الجنود الوراثية في الفصلين السادس والثامن.

وفيما يتعلق بالكليروخوى فإن الرتبة العسكرية كانت تعلب دوراً كبيراً في تحديد مساحة الأرض التى يحصل عليها الفرد. لقد كانت وحدة قياس الأراضى هى الأروره (*aroura*)، وهى تقابل ٦٨ر٠ من الفدان أو ٢٧٥ر٠ من الهكتار. وطبقاً لما يقوله هيرودوتوس فإن جنود الملوك المصريين القدماء كانوا يحصلون على حصص مساحتها اثنتا عشرة أروره. أما في عصر

البطالمة فإن أعضاء الحرس الملكيّ وسلاح الفرسان كانوا يحصلون على خمسين أو سبعين أو ثمانين أو مائة أروره، بينما يحصل المشاة على عشرين أو خمس وعشرين أو ثلاثين أو أربعين أروره. وفيما يتعلق بأبناء البلاد المصريين الذين انضموا إلى فئة الكليروخوى بعد عام ٢١٧ ق.م.، كما سنرى بعد قليل، فإن المعدل كان يتراوح فقط بين خمس أرورات وبين ثلاثين أروره. وعلى الرغم من ذلك فإن مساحة حصة الأرض التى يتسلمها الفرد بالفعل كانت تقل في غالبية الأحيان عن المساحة المخصصة لفئته، وإن كانت تزيد عنها في أحيان قليلة. كذلك كانت الإدارة تستخدم نظام توزيع حصص الأراضى هذا بوصفه وسيلة لزيادة الإنتاج الزراعيّ؛ إذ أنه كان يراعى في أثناء توزيع هذه الحصص أن تتضمن الحصة قطعة أرض غير مزروعة، يتوقع من الحاصل عليها أن يقوم باستصلاحها وزراعتها من أجل الاستفادة بعائدها. وقد ساعدت الإدارة بدورها على تحقيق هذه المهمة، عن طريق تنفيذها لبعض المشروعات العامة المعاونة، خاصة في مجال الريّ، كما سنرى في الفصل الثانى. كذلك كان الكليروخوى يدفعون عن المحاصيل التى تغلها أراضيهم، ضرائب أقل مما يدفعه الآخرون؛ حتى تكون حافزاً لهم على حسن استغلال حصصهم وعلى استصلاح غير القابل منها للزراعة.

ومن الواضح أن بعض قطع الأراضى كانت أفضل من غيرها، فكانت بعض القطع تتميز بكونها ذات موقع مناسب أو ذات نوعية ممتازة، أو تتصف بغير ذلك من الصفات، مثلما كانت بعض أماكن إقامة الجنود يُنظر إليها على أنها أفضل من البعض الآخر. وعلى الرغم من أن كلمة كليروس تدل من الناحية اللغوية، على الأقل، على أن التوزيع كان يتم عن طريق الاقتراع، فإن تدخل الأصدقاء من أصحاب المناصب العليا يمكن أن يساعد المرء هنا أيضاً في الحصول على قطعة أرض جيدة، كما نرى في الخطاب التالى الذي يرجع تاريخه إلى حوالى عام ٢٥٠ ق.م.:

> من أسكليبياديس (Asklepiades) إلى زينون، بعد التحية. إن إراسيس (Erasis) لذي سيسلمك هذا الخطاب هو أحد معارفى وأصدقائى. وسوف يأتى إليك مع ابن أخيه إريلوخوس (Erilochos)، وهو من المسجلين للحصول على إحدى حصص

الأراضى. لهذا، أرجو أن تكرم وفادة هؤلاء السادة، وأن تهتم بأن يحصلوا على قطعة مناسبة، ومن الأفضل أن تكون [هذه القطعة] في فيلاديلفيا حتى يكونوا إلى جوارك، أو في أى مكان تراه مناسباً. كما أرجو أن يتم قياس الأرض لهم بدقة، وإذا حدث واحتاجوا أى شئ، أرجو منك أن تساعدهم من أجلى، ومن أجلهم أنفسهم. إنهم يستحقون رعايتك واهتمامك، والسلام.[١٩]

وإذا انتقلنا إلى أنواع الأراضى التى كانت تعطى بشكل عام إلى أصحاب الحصص فسوف نجد أنها كانت تتفاوت من إقليم إلى آخر، حسب الأوضاع العسكرية والزراعية. ولدينا بعض المعلومات عن قرية كيركيوزيريس (Kerkeosiris)، وهى قرية في إقليم أرسينوى، وتعد المكان الوحيد الذي وصلت إلينا منه معلومات مفصلة، وإن كان هذا لعام ١١٨ ق.م. فقط. ففى هذا العام كانت مساحة أراضى القرية التى تبلغ حوالى ٤ر٧٠٠ أروره موزعة على الوجه التالى:[٢٠]

فئة الأرض	المساحة
الأراضى الملكية	٥٢%
أراضى الكليروخوى	٣٣%
أراضى المعابد	٦%
أراض أخرى	٩%

البيئة اليونانية:

كتب الشاعر الرومانىّ هوراتيوس (Heratius, *Epistles*, I. 2. 27) يقول: "إن الناس عندما يسافرون يغيرون أماكنهم ولا يتغيرون هم." ولم يُضع المهاجرون اليونانيون وقتاً في إحاطة أنفسهم بقدر الإمكان بالأشياء المألوفة لهم في مدنهم الأم، كما يفعل المهاجرون عادة، لكى يقللوا من إحساسهم بالغربة في المكان الجديد. وكان لدى اليونانيين، بالإضافة إلى ذلك، هدف آخر يتمثل في

تأكيد الفوارق الاجتماعية التى تميزهم بوصفهم طبقة حاكمة عن العامة من أبناء البلاد الأصليين. ويمكن رؤية إحساس اليونانيين بالفخر بحضارتهم الهللينية حتى في أسلوب بناء مساكنهم ومستوطناتهم. فعلى سبيل المثال، كانت توجد في الركن الشمالىّ الشرقىّ لإقليم أرسينوى قرية تسمى فيلاديلفيا، أسسها بطلميوس الثانى فيلاديلفوس، وأقام فيها بعض الكليروخوى. لقد أوضحت الحفريات التى تمت في جزء من أطلالها في عامى ١٩٠٨ و ١٩٠٩م أن تخطيط القرية كان يتبع أسلوب "الشبكة" المستطيلة، الذي كان متبعاً في المدن الهللينستية (المتأغرقة). كذلك كانت الشوارع متعامدة بزوايا تقسم القرية إلى مربعات مساحة كل منها تتراوح ما بين مائة ومائتىّ ذراع مصرىّ، أىّ حوالى خمسة آلاف متر مربع، وكان كل مربع يضم حوالى عشرين منزلاً تفصل بينهم في بعض الأحيان أزقة ضيقة. أما أهم المؤسسات الهللينية التى انتقلت إلى كثير من المستوطنات، ومنها فيلاديلفيا، فهى المعابد ومبانى الجيمنازيوم. وعلى الرغم من أن الآلهة اليونانية بدأت تقريباً منذ اللحظة الأولى تتحد بدرجات متفاوتة مع الآلهة المصرية ذات الاختصصات المتشابهة، أو تمتزج معها، فإن المستوطنين استمروا في بناء معابدهم بنظام الأعمدة الذي يختلف تماماً عن نظام المعابد المصرية التى تشبه القلاع، واستمروا يؤدون طقوس عبادتهم حسب الأسلوب اليونانىّ التقليدىّ.

من ناحية أخرى ظل الجيمنازيوم (Gymnasium)، أكثر من المعبد، حصناً لم يتمكن المصريون من اختراقه حتى نهاية العصر البطلمىّ. لقد كان الجيمنازيوم إحدى مؤسسات دويلة المدينة اليونانية المميزة لها، وكان منذ العصور القديمة مركزاً للتدريب البدنىّ وممارسة الرياضة، فيما يشبه ناد خاص بذكور المدينة المواطنين ولا يسمح بدخوله للنساء ولغير المواطنين. ومنذ منتصف القرن الرابع قبل الميلاد كان يستخدم أيضاً لتدريب الشبيبة (Ephebēs) ولاستعراضاتهم العسكرية.

إننا نقابل في مصر البطلمية هذا النوع من المنشآت في المدن اليونانية وفى عواصم الأقاليم، التى يوجد في بعضها أكثر من جيمنازيوم، بل وفى بعض

القرى التى أقام فيها اليونانيون، ونجده أيضاً حتى في الصغيرة منها. وعلى الرغم من أن الإدارة الحاكمة رحبت بنظام الجيمنازيوم وشجعت عليه بوصفه عنصراً يقوى الطبقة المميزة التى يعتمد الحكم على تأييدها، فإنه لم يكن مؤسسة حكومية ولم يكن جهة ممولة من الإدارة الحكومية. لقد أنشئت هذه المبانى لكى تُرضى تطلعات اليونانيين والمقدونيين ورغباتهم، في أماكن إقامتهم، وكان تمويل البناء وكانت تكاليف صيانته تتفاوت من مكان إلى آخر. وفى بعض الأحيان كانت المبانى هدية خيرية إلى المجتمع من أحد فاعلى الخير المحليين، بينما جُمعت المبالغ الضرورية في حالات أخرى من تبرعات أسر الجنود والكليروخوى والمدنيين الذين يهمهم الأمر. وبمجرد بناء الجيمنازيوم كان يتم فيه تدريب أبناء هؤلاء الأسر، كما كان يتولى الإشراف على المهرجانات الرياضية في الاحتفالات الدينية الخاصة بالآلهة اليونانية والعبادة الملكية. ويمكن القول بإيجاز بأن مؤسسة الجيمنازيوم أعطت "أرضية مشتركة للجندى والمواطن، لكى يمارس كل منهما عليها عاداته الدينية والتربوية."[٢١]

الأجيال المتأخرة:

على الرغم من الحواجز التى تسبب فيها خوف مجتمعات اليونانيين والمقدونيين من أهل البلاد المصريين، فإن ظروف الاختلاط اليومىّ أدت بمرور الوقت إلى بعض الزيجات المختلطة مع المصريين. وبينما تنطبق هذه المقولة بدرجة أكبر على المناطق الريفية، فقد بدأت الظاهرة بين أفقر الطبقات في كل من الفئتين، ثم انتشرت تدريجياً في المستوطنات العسكرية، خاصة في الأماكن النائية. ومن الأشياء التى سرعان ما تستلفت الانتباه في كل الزيجات المختلطة التى سجلتها لنا المصادر كون الرجل من أصل يونانىّ أو مقدونىّ، بينما كانت الزوجة من أصل مصرىّ. ولأول وهلة *a priori* يمكن أن نفترض أن العكس كان موجوداً أيضاً، إلا أن الحقيقة التى تقضى بأن يتبع الأطفال الوضع القانونىّ للأب، سواء أكان الأب مصرياً أم يونانياً، جعلت من الحالات التى يتزوج فيها رجل مصرىّ من امرأة يونانية أمثلة نادرة، بدون شك. ونجد في أقدم الأمثلة التى يمكننا ذكرها، وهو مثال يرجع إلى حوالى

عام ٢٥٠ ق.م. أن الزوج سائق بغال بسيط الحال في قرية في إقليم أرسينوى، بينما يبدو أن الزوجة التى لا يمكننا قراءة اسمها، كانت مصرية. وتوجد أيضاً في بردية منشورة حديثاً إشارة إلى زواج مختلط يرجع إلى عام ٢٣٠ ق.م. وربما كان الزوج فيه رجلاً عسكرياً. ويبدأ أبناء مثل هذه الزيجات المختلطة في الظهور في وثائق النصف الأخير للقرن الثالث قبل الميلاد، مثلما أن الظاهرة أصبحت واسعة الانتشار بعد هذا التاريخ.[٢٢]

وبالنظر إلى أن أوراق البردى التى ترجع إلى العصر البطلمىّ تأتينا من عدة أماكن في الوجه القبلىّ، فإنه يتولد لدينا إحساس بما يبدو وكأنه متوالية حسابية: كلما بعدت المستوطنة عن المراكز الحضرية، وخاصة عن التأثير الهللينىّ للإسكندرية، ازدادت سرعة الاستجابة لضغوط المصريين الراغبين في دخول الطبقة المتميزة، وازداد استعداد سكان المستوطنة للتجاوب مع هذه الضغوط. وفى المناطق النائية أكثر من غيرها كان للزواج المختلط تأثير مزدوج، فمن ناحية كانت النساء المصريات تحصلن من خلال هذا الزواج على المكانة اليونانية لأبنائهنّ وأحفادهنّ، ومن ناحية أخرى كان اليونانيون بمرور الوقت يجدون الأمر أكثر سهولة في التأقلم مع أسلوب معيشة المصريين الذين كانوا يحيطون بهم. وتظهر هذه التطورات بوضوح في الفصلين السادس والثامن. أما هنا فسوف نكتفى بعرض هذا المثال التمهيدى لرجل وامرأة يبدو في الأعم الأغلب أنهما ينتميان إلى طبقة الكليروخوى اليونانية المقدونية. لقد اتبع هذان الزوجان التقليد المصرىّ في المعاشرة التمهيدية التى تسبق الزواج الرسمىّ، وكان ذلك في منتصف القرن الثانى:

> التماس مقدم إلى حاكم إقليم منف من بطوليمايوس (Ptolemaios) بن أمادوكوس (Amadokos) التراقىّ. لقد عاشت أمى أسكليبياس (Asklepias) مع رجل يُدعى (Isodoros) إيزودوروس، وهو من سكان [قرية] بيتوس Pitos، طبقاً لعقد تفاهم كتبه على نفسه من أجل مصلحتها. وطبقاً لبنوده فقد أقرّ، بين أمور أخرى ***inter alia***، أنه تلقى منها الدوطة التى أحضرتها معها والتى تساوى تالينتين نحاسيين، وأنه يتعهد أن يتقدم إليها بطلب الزواج الرسمىّ في خلال عام، وحتى ذلك الوقت فإنهما سيعيشان معاً كما يعيش الزوج وزوجته وسوف يشتركان معاً في إدارة أملاكهما، وأنه إذا لم يلتزم بما هو مسجل فإن عليه أن يعيد الدوطة ومعها ٥٠% من قيمتها كشرط جزائىّ.

[وفى خلال العام توفيت أسكليبياس وبعدها إيزودوروس الذي سارع ورثته بوضع أيديهم على كل ممتلكاته، ورفضوا أن يعيدوا الدوطة أو القرض الذي أعطاه بطوليمايوس إلى إيزودوروس، وقدره ٤٥٠ر٢ دراخمه نحاسية، بالإضافة إلى ٩٠٣ دراخمه، ولهذا تقدم بطوليمايوس بهذا الالتماس طالباً إنصافه].[٢٣]

من الواضح، كما يجب أن نتوقع، أنه وجدت بعض الزيجات المختلطة، ووجد كذلك بعض التداخل بين أساليب المعيشة اليونانية والمصرية. ولكن غالبية الوثائق تقف، بالقدر نفسه من الوضوح، أمام أية محاولة للسماح للمصريين بدخول المكانة الاجتماعية للطبقة المتميزة من الناطقين باليونانية وأمام دخول أسرهم هذه الطبقة بشكل جماعىّ. إن الهوة الواضحة بين هذين العنصرين من عناصر السكان، والإدراك الكامل لكونهما منفصلين، قد ظلاّ حقيقة مسيطرة على الحياة الاجتماعية والسياسية في مصر البطلمية. وبينما نجحت العوائق أمام الترقية الاجتماعية في جعل عامة السكان المصريين يظلون "في أماكنهم"، فقد كان هناك، بالإضافة إلى الزواج المختلط، طريقان آخران رئيسان يسمحان لبعضهم بالوصول إلى مكانة أعلى من خلالهما. لقد كانت هناك حاجة لدى الإدارة الحكومية المحلية إلى المصريين من ذوى المعرفة باللغة اليونانية التى تمكنهم من إيجاد جسر بين السكان الناطقين بالمصرية وبين الإدارة الحاكمة الناطقة باليونانية. ومنذ منتصف القرن الثالث يمكننا رؤية المصريين الناطقين باللغتين، ليس فقط في المناصب الإدارية البسيطة، مثل موظف القرية، ولكن أيضاً، في أحيان أقل، في مناصب مهمة في الإقليم، مثل منصب الموظف المالىّ ومنصب السكرتير الملكىّ، كما في حالة بيتوزيريس (Petosiris) الذي نقابله في الفصل التالى. أما الخطوة التالية إلى أعلى، وهى الحصول على منصب حاكم الإقليم الذي يرأس القوات العسكرية والإدارة المدنية، فقد تمت بعد ذلك بعقود قليلة. وقبل نهاية القرن الثانى تمكن أحد المصريين، على الأقل، من الوصول إلى المنصب الرفيع الذي يعلو الاستراتيجوس (*stratēgos*)، والذى مكنه من الحصول على لقب إبيستراتيجوس (*epistratēgos*) طيبة. وكان شاغلو هذه المناصب يحصلون على ألقاب تشريفية مثل لقب "ابن عم الملك" وهو لقب يُشكل تناقضاً واضحاً في حالة المصريين. وعلى الرغم من ذلك من

المهم أن نلحظ أن مثل هذه الحالات القليلة من الترقية الإدارية للمصريين كانت محدودة بالإدارة الداخلية في البلاد؛ إذ لا نجد في مصادرنا مصرياً واحداً حتى الآن في منصب حاكم إقليميّ في المناطق' التابعة للإمبراطورية البطلمية في الخارج، أو قام بسفارة ما، أو كان مبعوثاً خاصاً إلى أى مكان خارج مصر.[٢٤]

لقد كانت الحياة العسكرية هى الطريق الأخرى، الأكثر اتساعاً، لتحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمصريين. وكانت المسألة تتعلق بالوقت فقط. لقد اضطر البطالمة في النهاية إلى السماح للمصريين بدخول الطبقة العسكرية التى كانت قاصرة من قبل على اليونانيين، ودخلها بعضهم بوصفهم جنوداً مرتزقة، والبعض الآخر بوصفهم كليروخوى. وفى عام ٢١٧ ق.م. حاربت فرقة مكونة من عشرين ألف جنديّ مصريّ تم تجنيدهم على عجل، جنباً إلى جنب مع وحدات اليونانيين-المقدونيين، لدفع هجوم جيش سوريّ كان يهدد بغزو مصر. بعد ذلك اضطر البطالمة إلى زيادة أعداد المصريين في القوات العسكرية، خاصة بعد أن قلت الموارد، وبعد أن أصبح المرتزقة الأجانب يمثلون عبئاً أكبر على الخزانة. وفيما يتعلق بالإدارة فإن هذه السياسة كان تلوح بفائدة مزدوجة. فمن ناحية كان يمكن الحصول على خدمات أهل البلاد إزاء مقابل أقل من مقابل خدمات المرتزقة اليونانيين أو الكليروخوى، ومن ناحية أخرى كان التحاق المصريين بصفوف العسكريين يعنى توسيع دائرة التأييد للحكم. وفى الوقت ذاته كان البطالمة حريصين على اتخاذ إجراءات من شأنها أن تَحُول بين اليونانيين-المقدونيين وبين الشعور بالحنق إزاء ما قد يتراءى لهم وكأنه مساواة طبقية بينهم وبين المصريين. لقد حدّ البطالمة بصرامة من أعداد المصريين المسموح لهم بدخول درجة الضباط وسلاح الفرسان، الذي كان أكثر تميزاً من سلاح المشاة. كذلك خصص البطالمة، كما ذُكر من قبل، للمصريين من فئة الكليروخوى مساحات أراض أقل، إلى حد كبير، مما كان يحصل عليه نظراؤهم من اليونانيين والمقدونيين.[٢٥]

توجد أيضاً في مصادرنا إشارات إلى بعض الإجراءات التى حاول نظام الحكم من خلالها تأكيد الوضع المتميز للجنود ذوى الأصول اليونانية.

ويبدو أن أحد هذه الإجراءات تمثل في استخدام لقب "كاتويكوس" (*katoikos*)، أيّ: مستوطن، في الإشارة إلى أبناء المهجر. ولكن لم يمر وقت طويل حتى أدركت الإدارة أن عليها أن تسمح أيضاً لبعض المصريين بعد حصولهم على حصص أراض بدخول هذه الفئة. وقد كان نظام البوليتيوما (*Politeuma*) أكثر نجاحاً في إبعاد المصريين عن بعض الامتيازات اليونانية. ومن المعقول أن نفترض أن نظام الحكم البطلميّ قد حاول منذ وقت مبكر أن يُنَمّى روح الولاء والتضامن *esprit de corps* في وحداته العسكرية العاملة والاحتياطية، عن طريق وضع الجنود المنتمين إلى أصل واحد في المكان نفسه. وفى القرن الثانى شكلت هذه المجموعات وحدات رسمية تحمل كل منها اللقب الكبير "بوليتيوما،" الذي يشير إلى وحدة إدارية أو سياسية في دويلة المدينة في العصر الكلاسيكىّ. ويمكن مقارنة الدور الرئيس للبوليتيوما البطلمية بدور نوادى الضباط والعسكريين في وقتنا هذا. بالإضافة إلى ذلك كانت البوليتيوما أداة مناسبة لتنفيذ الأوامر الإدارية التقليدية في المعسكرات وفى أماكن إقامة الكليروخوى. وتدل أوراق البردى على وجود بوليتيوماتا (صيغة الجمع من بوليتيوما) من الطيبيين والكريتيين والإيدوميين في مصر، ولا شك في أن هناك بعض الأجناس الأخرى التى لم تصل إلينا إشارات عنها. ولدينا الدليل على وجود جماعات مشابهة من الآخيين والكريتيين والإيونيين والقيليقيين والليقيين والتراقيين في الممتلكات البطلمية في الخارج، كما في حالة جزيرة قبرص. وعندما لا تكون هناك بوليتيوما من نفس جماعة المغتربين للترحيب بالوافد الجديد، فإن السلطات كانت تمنحه ببساطة لقباً يسهل أمر انضمامه إلى إحدى الجماعات الموجودة. ونحن نعرف عن حالة واحدة في منتصف القرن الثانى قبل الميلاد تم فيها تسجيل خمسمائة رجل بشكل جماعىّ *en masse* في بوليتيوما "الكريتيين".[٢٦]

لقد كانت النوادى الاجتماعية في العالم اليونانىّ (والرومانىّ) تلتف عادة حول عبادة إله أو إلهة زراعية. وكانت طقوس هذه العبادة تحدد لأعضائها تقويماً للأعياد والاحتفالات التى يجتمعون فيها لأداء الطقوس الواجبة

وللاستمتاع بالمناسبة. وقد حافظت البوليتيوما في مصر البطلمية على هذا التقليد. وبالإضافة إلى ذلك فإن الأعضاء كانوا ينظمون أنفسهم في اجتماعاتهم على غرار مجالس المدن اليونانية، من حيثُ كيفية انتخاب الموظفين وإصدار القرارات واتباع وسائل الحكم الذاتىّ الأخرى. وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الوضع لا يدل على استقلال سياسىّ، بقدر ما كان هذا الاستقلال يقتصر على الناحية الاجتماعية.

وبالإضافة إلى صفوف الجيش العليا والوضع الاجتماعىّ المتميز، تمتع الجنود اليونانيون والمقدونيون بمستويات معيشية أعلى من مستويات المصريين. وكما ذُكر من قبل، فإن حصة الأرض التى كان يحصل عليها المهاجر كانت تتراوح مساحتها عادة بين عشرين وأربعين أروره، بينما قد تبلغ حصة الكليروخوس المصرىّ من الصغر حداً أن تكون مساحتها خمس أرورات، ولم تكن تزيد عن العشرين أروزه إلا نادراً. ومما يلقى الضوء بشكل خاص على هذا الموضوع مسح الأراضى الذي تم عام ١١٨ ق.م.، والمسجل على لفافة بردية يزيد طولها عن مترين، ووصلت إلينا من مكتب منخيس (Menkhēs) موظف القرية (راجع الفصل السابع). وتشتمل هذه اللفافة على الأراضى التى تمتلكها "معابد القرية من الفئة الأولى والثانية،" ومساحتها الإجمالية ٨٨ر٢٩١ أروره، ومساحة المزروع منها ٣٨ر١٥٠ أروره. وكان ريع هذه الأراضى يذهب، بمقتضى المنحة أو الامتياز الملكىّ، إلى المؤسسة الكهنوتية للإنفاق على العديد من العبادات، بما فيها عبادات ملوك الأسرة الحاكمة، الأحياء منهم والأموات. أما مساحة أراضى التاج أو الضياع الملكية التى تشرف عليها الإدارة بشكل مباشر فتبلغ ٥٩ر٤٢٨ر٢ أروره، بينما اقتصرت مساحة المزروع منها على ٢٥ر١٣٩ر١ أروره. ففي ذلك الوقت، في أثناء الحروب الأهلية التى تسبق مباشرة العام الذي ترجع إليه البردية، كانت مساحات كبيرة من الأراضى قد هجرها مستأجروها أو "مزارعو التاج،" كما كانوا يُسمون وقتئذ. وبينما لم يصل إلينا الرقم الدال على المساحة المزروعة بالفعل، فإن المساحة الكلية لأراضى الإقطاعيات أو الكليروى [جمع

كلمة كليروس، أيّ: حصة أرض، المترجم] قد وصل مجموعها إلى ما يزيد قليلاً عن ٥٦٠ر١ أروره، وكانت موزعة على الوجه التالى:[٢٧]

أسماء الأفراد المذكورين وأسماء آبائهم يونانية:	المساحة بالأروره
** مخصصات من عهد جد الملك الحالى: – أفثونيتوس Aphthonetos بن هيبدومايون Hebdomaiōn – بانتاوخوس Pantuchos بن بانتاوخوس	 ٧٠ ٩٠ر٣٤
** مخصصات من عهد والد الملك الحالى: – أربعة كليروخوى يحملون أسماء يونانية	المجموع ٣٧ر١٢٤
** مخصصات من عهد أخى الملك الحالى: – سبعة عشر كليروخوى، منهم أربعة مصريون، بينما حصل أخوان على حصة واحدة، واحتفظ ابن بالقطعة التى كانت لوالده من قبل.	المجموع ٨٧ر٤٢٨
** مخصصات من عهد الملك الحالى: – ثمانية وسبعون كليروخوى، منهم ثلاثة وستون مصريون مجموع حصة كل منهم تسع عشرة أروره وربما ثلاثون أروره في حالة واحدة. أما اليونانيون فلكل منهم من عشرة إلى خمسين أروره، وقد تبع شخصان من هؤلاء والديهما في حصتيهما.	المجموع ٩٢٤

وكما لاحظنا من قبل فإن كثيراً من اليونانيين، إن لم يكن معظم الذين حضروا إلى مصر للحصول على قطع أراض، لم تكن لديهم النية في أن يعملوا فيها بأنفسهم، بل كانوا يهدفون إلى تأجيرها لآخرين، بينما يتمتعون هم بحياة

أصحاب الأموال والملاك *rentiers*، بل وفي كثير من الأحيان كانوا يعيشون في منزل بعيد عن الأرض أو في عاصمة الإقليم أو في المدينة. وكان منهم من حاول العمل بنفسه بالفعل ثم قرر أن حياة الدعة أفضل له. وقد بدأت الأجيال المتعاقبة في القرن الثانى والأول قبل الميلاد ترى في نفسها طبقة أرستقراطية من أصحاب الأراضى، وكان هذا الإحساس يزداد بالقدر نفسه الذي يتناقص به إحساسهم بكونهم جنوداً. وإذا رجعنا إلى سجل مسح الأراضى لعام ١١٨ ق.م.، الذي أشرنا إليه في الفقرة السابقة، لوجدنا أن من بين الثلاثة والثلاثين يونانياً، المذكورين في القائمة، ستة فقط هم الذين زرعوا أراضيهم بأنفسهم، أما الآخرون فقد أجروا أراضيهم إلى رجال ونساء يحملون أسماء مصرية. ومن ناحية أخرى هناك فقط اثنان من المصريين الذين أجّروا أراضيهم إلى مزارعين بأسماء يونانية.[٢٨]

من الأمور المهمة أيضاً أن نلحظ التطور الذي حدث في نظام الإقطاعيات، وتعدل بمقتضاه الامتياز الذي يعطى الكليروخوس الحق في الاستفادة بحصة الأرض طوال حياته، ليصبح نوعاً من أنواع الملكية لها. لقد تميز تاريخ مصر منذ العصور القديمة بصراع عنيف بين منطقة الجذب المركزية الممثلة في سلطة الملك التى تحاول توحيد البلاد، وبين القوى الانفصالية للجماعات ذات الاهتمامات الخاصة، التى من أهمها مراكز قوى الكهنة الأغنياء وقادة المؤسسة العسكرية، الذين تعتمد عليهم سلطة الملك. وبينما كانت سلطة الملك والإمبراطورية المصرية في أوج مجدها تحت الملوك الثلاثة الأوائل في بداية العصر الهللينستىّ (المتأغرق)، أىّ حتى عام ٢٢١ ق.م.، فإن الخطوات التدريجية للكليروخوى نحو اكتساب حق الملكية على حصص الأراضى وعلى أماكن الإقامة التى خصصت لهم تعكس الاضمحلال الطويل الذي أعقب ذلك، والذى استمر طوال القرنين الثانى والأول قبل الميلاد.

عندما ظهر هذا النظام كان المستفيد بحصة الأرض يُمنح فقط حق الانتفاع بها، وكان التاج يحتفظ بحق الملكية عليها، ونحن نقرأ من حين لآخر عن بعض المستفيدين الذين حُرموا من حصصهم من جراء بعض المخالفات.

كذلك كانت حصة الأرض تعود إلى التاج، نظرياً على الأقل، عندما كانت تنتهى مدة خدمة الكليروخوس، سواءً بالعجز أو الموت. أما ما كان يحدث على أرض الواقع فهو أنه كان يُسمح لصاحب الحصة الذي بلغ من العمر مداه أو أصابه العجز، بالاحتفاظ بقطعة الأرض التى يتقوت منها. وبطبيعة الحال لم يكن النظام ليستمر مع الالتزام بحرفية القانون غير الأخلاقية؛ إذ كيف يتيسر للملك إقناع كثير من الكليروخوى بتسجيل أنفسهم وهم يتوقعون لأنفسهم ولعائلاتهم مثل هذه النهاية في آخر العمر؟ لقد كان أحد الشروط التى تهدف إلى معالجة هذا الوضع ينص على منح الابن الحق في أن يخلف والده في إدارة حصة الأرض وفى دخول فئة الكليروخوى. ومنذ حوالى منتصف القرن الثالث لدينا بعض الحالات العديدة لأراض مسجلة في قوائم الضرائب تحت أسماء بعض اليتامى. كذلك تشير وثيقة رسمية إلى تفصيلات الإجراءات المتبعة في حالات نقل حصص الأراضى إلى الأبناء، ويرجع تاريخها إلى عام ٢١٨ ق.م.، وتتضمن إخطاراً إلى أحد الموظفين المعنيين، بشأن صاحب حصة أرض أدركه الموت، بأن "يحجزوا على حصة الأرض [المملوكة] لخزانة الملك، بالإضافة إلى محصول العام الحالىّ، حتى يتم تسجيلها لأبنائه، إن كان لديه أبناء، في خلال عدد الأيام التى ينص عليها القانون."[٢٩]

ولم يكن هذا الحق الواضح للابن في خلافة والده في حصة الأرض يختلف كثيراً عن حق الميراث، مما جعل النظرة إلى حصص الأراضى على أنها يمكن توريثها تقوى، وبدأ الناس يعاملونها كذلك. إن الوثيقة التى أشرنا إليها الآن، على سبيل المثل، تحتوى على إشارة إلى حصة الأرض نفسها، قائلة: "إن الأرض تخصه وتخص ذريته." مثل هذه اللغة تشير إلى حق، أو على الأقل إلى امتياز، انتقالها بالميراث. وقد وصلت إلينا، فى واقع الأمر، وصية أحد الكليروخوى متضمنة أمر انتقال حصته منذ حوالىّ عام ٢٤١ ق.م. وكان الوضع ذاته ينطبق على أماكن إقامة الكليروخوس؛ إذ كان مكان سكناه ملكاً للتاج من الناحية الرسمية، تماماً مثل حصة الأرض. ولكننا نجد جندياً، في وصية ترجع إلى عام ٢٣٦/٢٣٥ ق.م.، وهو يترك لابنه "المكان السكنىّ

الذي حصلت عليه من الإدارة الملكية والحصان والأسلحة." وربما لا تقل أهمية عن هذه الوصية، إن لم تزد عنها، وصية أخرى ترجع أيضاً إلى العام نفسه، ويترك فيها الجندى ممتلكاته ومكان سُكناه لزوجته، وهى شخص لا يمكن بالطبع أن يدّعى قدرته على الالتزام بالخدمة العسكرية.[٣٠]

وفى القرون التالية كان يتم التصرف فى حصص الأراضى بحرية فى الوصايا، وكانت تنتقل إلى أقرب الأقارب إذا مات صاحبها دون أن يكون له ولد. وفى منتصف القرن الثانى، إن لم يكن قبل ذلك، كانت حصة الأرض تنتقل إلى الابن القاصر، وفى القرن الأول كانت تنتقل إلى البنت فى غيبة الورثة الذكور. وبطبيعة الحال لا يوجد شئ أكثر من ذلك للدلالة على اكتمال النظرة إلى حصة الأرض على أنها من الممتلكات الأسرية، وعلى أن ملكيتها لم تعد تعتمد بأى حال على قدرة المستفيد بها على أداء الخدمة العسكرية.[٣١]

وكانت الخطوة التالية، بعد الاعتراف بأن حصص الأراضى يمكن توريثها ونقل ملكيتها داخل العائلة الواحدة، هى السماح بنقل الملكية لأفراد من خارج العائلة والتصرف فيها بالبيع، وهى خطوة لم يمر وقت طويل فى انتظارها. وربما حدث هذا الأمر بالكيفية التالية. لقد لاحظنا قبلاً أن كثيراً من الكليروخوى كانوا معتادين منذ البداية على تأجير أراضيهم لآخرين لزراعتها. وبمجرد أن أصبح التأجير عرفاً مقبولاً فإن اللجوء إلى رهن الأراضى لم يكن ليتأخر طويلاً. ربما كان من الضرورى فى بداية الأمر الحصول على إذن رسمىّ برهن الأرض، وأن يكون ذلك داخل مجتمع الكليروخوى، نظراً أن ضياع الرهن كان يعنى تحويل ملكية حصة الأرض إلى أيد أخرى غير أصحابها الأصليين. ولكن هذه الشروط أصبحت، بمرور الوقت، مجرد شكليات، وانتهت تدريجياً إلى أن تكون حبراً على ورق. وتشير بردية نشرت حديثاً وترجع إلى عام ١٤٢ ق.م. إلى اثنين من أصحاب الإقطاعيات استبدلا حصتيهما الواقعتين فى أماكن مختلفة فى إقليم أرسينوى. وليس هناك أىّ شئ فى البردية يشير إلى أن العملية تطلبت إذناً رسمياً. لقد كان الشئ الوحيد الذى طُلب من المسؤولين مراعاته هو التحقق من أن حدود إحدى القطع هى فى

الواقع كما ذكر صاحبها.[٣٢]

وهكذا كانت الظروف ترتب للخطوة التالية والمتمثلة في السماح بأن تنتقل حصة الأرض، الكليروس، إلى ملكية أناس ليسوا من فئة الكليروخوى نفسها، وقد حدثت هذه الخطوة في واقع الأمر *de facto*، إن لم يكن الأمر قد تم بشكل قانونىّ *de jure*، في أثناء القرن الثانى قبل الميلاد. لقد بدأت تظهر عندئذ بعض الحالات لأفراد مدنيين، ممن ليسوا جنوداً، مسجلين في القوائم على أنهم ملاك لحصص أراض، مثلما بدأت تظهر في بعض الأحيان بعض أسماء لنساء. ربما شعر بعض هؤلاء في البداية بدرجات متفاوتة من عدم الاطمئنان، بسبب حصولهم على هذه الممتلكات عن طريق التحايل والمخالفة الواضحة لنص القانون، إلا أنهم جميعاً قد تخلصوا من هذه المخاوف عام ١١٨ ق.م.، عندما أصدر بطلميوس الثامن عفواً عاماً، واتخذ مجموعة من القرارات الخيرية التى تهدف إلى إعادة الهدوء والاستقرار إلى مصر التى خربتها الحرب الأهلية الدائرة في الأعوام القليلة السابقة. لقد ضمن أحد المراسيم الوضع القانونىّ لكل الكليروخوى الذين يدفعون الإيجار أو الضرائب على حصص الأراضى. كذلك نصّ مرسوم آخر في صراحة ووضوح أكبر على أنه : "إذا تخلى الكليروخوى عن قطع الأراضى أو باعوها بسبب ضائقة مالية ... فإن حق الملكية مضمون [للملاك الجدد] ولذرياتهم." ويمكن القول بإيجاز بأنه أصبح ممكناً منذ ذلك الوقت نقل ملكية الكليروس، وأصبح من الممكن أن يمتلكها جميع الأفراد. إلا أنه من الغريب أن نلحظ أن حالات نقل الملكية كانت دائماً، وحتى نهاية العصر البطلمىّ، تُسمى تنازلات ولا تُسمى بيعاً. لقد كان يتم انتقاء ألفاظ عقود البيع والشراء بدقة، وبهذه الوسيلة كانوا يتجنبون أية كلمات قد تطعن في ملكية التاج الرسمية للأرض.[٣٣]

كذلك كان أسلوب التصرف في أماكن سكنى الكليروخوى يسير، فيما يتعلق بهذا الموضوع أيضاً، في خط مواز لكيفية التصرف في الأراضى. وعلى أساس الأدلة الموجودة لدينا يبدو أن هذه التعديلات كانت تبدأ أولاً في مجال أماكن الإقامة، ثم تنتقل منه بعد ذلك إلى مجال الأراضى. وقد حُرم أحد

المراسيم الملكية لعام ٢٦٩ ق.م. "الحصول على أماكن الإقامة عن طريق التنازل أو بترتيب الأمر [سرياً] بأية كيفية كانت." وعلى الرغم من ذلك هناك حالة نقل ملكية بواسطة جندىّ، وهو ابن لكليروخوس، تنازل فيها عن "مكان الإقامة الذي يخص والده." ومما يستلفت النظر أن التنازل في هذه الحالة لم يكن لكليروخوس آخر، بل كان لأربعة مصريين من مستأجرى أرض التاج، ولم تكن لهم بالتالى أدنى صلة بالمؤسسة العسكرية.[٣٤]

قبل أن ننهى هذا الفصل علينا أن نشير إلى فائدتين أخريين للأراضى كان يتمتع بهما الجنود والكليروخوى، في العصر البطلمىّ. أولى هاتين الفائدتين هى الضرائب المنخفضة جداً التى كانوا يدفعونها عن محاصيل أراضيهم، وسوف نجد معلومات تفصيلية عن هذا الموضوع في الفصل السابع. أما الفائدة الأخرى فكانت تتمثل في إعفاء كثير منهم، إن لم يكن جميعهم، من بعض المهام الخاصة التى كانت مفروضة على غيرهم، كما يتضح من المثال التالى. لقد كانت السنوات القليلة التى تلت عام ١٧٠ ق.م. أعواماً عصيبة بشكل خاص بالنسبة لنظام الحكم البطلمىّ، إذ انتهز الملك السورىّ أنتيوخوس الرابع (Antiochos) فرصة وجود ملك صغير السن، هو بطلميوس السادس فيلوميتور(Philometor)، على العرش، وقام بغزو مصر، وكان بذلك أول من نجح في دخول هذه البلاد منذ حملة الإسكندر الأكبر التى مر عليها عندئذ ١٦٢ عاماً. وقد تمكن أنتيوخوس من أسر بطلميوس الصغير، ومن تنصيب نفسه ملكاً على مصر، ولكن إنذاراً من روما التى كانت قوتها في البحر المتوسط في زيادة مستمرة اضطره إلى الانسحاب بشكل مُزر. (وإذا كان باستطاعتنا القول بأن مجلس السناتو كانت له سياسة خارجية محددة المعالم في ذلك الوقت، فإنه يمكن القول بالقدر نفسه من القوة بأن هذه السياسة كانت تهدف إلى منع ظهور أية قوة عظمى في أىّ مكان في البحر المتوسط). في ذلك الوقت أعطى هذا الغزو الفرصة لقيام ثورة قومية داخل البلاد، وكان من نتيجتها تخريب مساحات كبيرة من الأراضى القابلة للزراعة، وهجرها. وكان أثر هذه الثورة كبيراً إلى الحد الذي جعل الإدارة، في محاولة منها لتجنب أىّ نقص في الموارد الغذائية،

وهو ما قد يزيد من حالة التذمر، تلجأ لأول مرة إلى الزراعة الإجبارية، أىّ توزيع الأراضى الفضاء والأراضى التى لا يرغب أحد في استئجارها على المزارعين المقيمين بالقرب منها. وتزودنا بردية في متحف اللوفر بتفصيلات هذا العبء الجديد، كما أمر به وزير مالية الملك. لقد خصصت مساحات من الأراضى "لكل فرد حسب مقدرته،" ولكن القرار استثنى بشكل خاص من هذه المهام "الوحدات المميزة من الجنود المقيمة في الإسكندرية، والجنود [المصريين] من ذوى السبع والخمس أرورات المكلفين بمهمة [مؤقتة] هناك ... والأسر [المقيمة في الريف] التى تضم أفراداً يقومون بالخدمة في الإسكندرية."[٣٥]

الحواشى:

---

(١) الإشارات الموجودة في الأوديسية توجد في الكتاب الثالث، الأبيات ٣٠٠-٣٠٢؛ والكتاب الرابع، الأبيات ١٢٦-١٢٧ و ٢٢٨-٢٣٢؛ والكتاب الرابع عشر، الأبيات ٢٨٥-٢٨٦، بالنسبة للإشارات الأربع الأولى؛ أما الاثنتان الأخريان فتوجدان في الكتاب الرابع عشر، السطور ٢٤٦-٢٨٤؛ والكتاب السابع عشر، السطور ٤٢٥-٤٤٤. وبالنسبة لتاريخ شعوب البحر يمكن للمرء الآن مراجعة الطبعة الجديدة لموسوعة *Cambridge Ancient History* المجلد الثانى، الجزء الثانى، ١٩٧٥، خاصة صفحات ٣٦٦-٣٧١، كما توجد قائمة بالمراجع المتعلقة بالموضوع في المجلد نفسه، ص ١١٠٦

(٢) انظر: Herondas, *Mimes,* I, 23-26. أما "الإلهان الأخوان" فهما بطلميوس الثانى وأخته وزوجته في الوقت ذاته، أرسينوى. راجع كذلك الفصل الثانى، الحاشية رقم ١.

(٣) راجع: Theokritos, *Idylls,* 14, 58-68

(٤) إن الأدلة القديمة بشأن المنارة وكذلك قائمة المراجع الحديثة عنها قد تناولها بالتفصيل P. M. Fraser, *Ptolemaic Alexandria*, vol. II, Oxford, 1972, notes 96-117, pp. 43-52 أما كلمات الإهداء فهى محفوظة لنا في الفقرة الثانية والستين من مقالة "كيف تكتب التاريخ" للكاتب الساخر لوقيانوس (Lucianus) الذي عاش في القرن الثانى الميلادى. وربما أن الإناء الزجاجىّ الذي عثر عليه في أفغانستان والمصنوع

على شكل المنارة إشارة لها أهميتها الخاصة للدلالة على الشهرة الواسعة التى وصلت إليها منارة الإسكندرية.

(٥) انظر: *P. Mich. Zenon*, 10 وفيما يتعلق بالطرق وأوضاع السفر، راجع: L. Casson, *Travel in the Ancient World*, London, 1974, *passim*.

(٦) المرجع ذاته، صفحات ١٥٧، ١٦١–١٦٢. إن الاقتباس الأخير مأخوذ من كاتب عاش في القرن الخامس الميلادى، ولكن عوامل الطقس وظروف السفر البحرىّ في البحر المتوسط لم تختلف في وقته عنها في العصر الهللينستىّ (المتأغرق).

(٧) انظر: *P. Cairo-Zenon*, 59021 وهى بردية تتضمن الخطاب المقتبس في بداية الفقرة. أما أمثلة استيراد العبيد والخيول وغيرها من الحيوانات بوصفها هدايا للملك من أحد شيوخ منطقة الأردن فنجدها في: *P. Cairo-Zenon*, 59075 and 59076 = *Corpus Papyrorum Judaicarum*, 5 and 4 ؛ وعن بعض العبيد الآخرين، انظر: *P. Cairo-Zenon*, 59093 . وترجع كافة هذه الوثائق إلى عام ٢٥٧ ق.م.

(٨) انظر: *P. Lond.*, 2026

(٩) توجد شكوى بائعى الخمور في: *P. Ent.*, 34، كما يظهر صاحب امتياز لاحتكار الزيت في الفصل السابع من هذا الكتاب.

(١٠) توجد إشارة إلى ملاك السفن المنتمين إلى "أعلى طبقات المجتمع البطلمىّ" في قائمة أعدها لهم هاوبن H. Hauben (*Ancient Society*, 10 [1979], 168)، أما الإشارة إلى كليوباترا فتوجد في: *SB* 11866، التى ترجع إلى المدة من ١٥٠ إلى ١٠٠ قبل الميلاد. إن السفن التى تحمل مائتى أردب نقابلها في أكثر من وثيقة، وعلى سبيل المثال في: *P. Ryl.*, 27، أما الحاويات الكبيرة ذات الحمولة التى تصل إلى عشرة آلاف أردب فنقابلها في: *P. Ent.*, 27 وبالنسبة لأنواع السفن المختلفة وحمولاتها، فإن هناك معلومات تفصيلية عنها في: L. Casson, *Ships and Seamanship in the Ancient World*, Princeton, 1971, 333-335; 340-343

(١١) انظر: *P. Par.*, 62 = *UPZ* 112 بالإضافة إلى كل المحظورات الواردة في هذه القواعد كان على محصّلى الضرائب أن يتعايشوا في غالبية الأحيان مع التأخير الذي يتسبب فيه الموظفون المحليون الذين كانوا لا يميلون إلى التعاون معهم في إعداد السجلات الضرورية وتجهيزها في الوقت المناسب. هناك مثال على ذلك في الفصل الثالث. إن "أيام النسىء" المشار إليها في الجملة الافتتاحية في النص مفصلة في الملاحظة الموجودة في بداية الكتاب.

(١٢) إن نشاط السماسرة قد تناوله بينجين J. Bingen بالدراسة؛ راجع كذلك أبحاثه المنشورة في: *Illinois Classical Studies*, 3 (1978), 74-78 وكذلك في:

Problèmes de la terre. . ., ed. M. I. Finley, The Hague, 1973, 215-222

(١٣) لم تكن ظاهرة الجنود المرتزقة اليونانيين جديدة على الإطلاق في مصر في ذلك الوقت؛ حيث إن الملوك المصريين القدماء أنفسهم قاموا بتوظيفهم منذ القرن السابع قبل الميلاد، كما ذُكر في بداية الفصل. كذلك أرسلت أثينا بعض الجنود لمساعدة مصر ضد الفرس في المدة من ٤٥٩ إلى ٤٥٦ ق.م. ولمدة طويلة في القرن الرابع. وحتى قبل مجيء الإسكندر بأحد عشر عاماً كان الملوك المصريون يعتمدون على الجنود المرتزقة اليونانيين لمساعدتهم في الوصول إلى الاستقلال الذي كان الفرس يهددونه باستمرار.

(١٤) فيما يتعلق بتطور الحقوق الوراثية في الجيش، انظر الصفحات التالية فى هذا الفصل. عندما كانت القوات الاحتياطية من المستوطنين تستدعى إلى الخدمة فإن جنود الصفوة مثل قوات الفرسان كانت تذهب إلى القتال في أزهى صورها، كما نلحظ في الالتماس التالى المقدم في عام ٢١٧ ق.م. إلى استراتيجوس إقليم أرسينوى:

> لقد لحقنى ضرر – أنا بيستوس (Pistos) الليونتومينى – على يد أريستوكراتيس (Aristokratēs) التراقى، صاحب حصة من مائة أروره في وحدة الفرسان الأولى، وهو من سكان [قرية] أوتوديكيه (Autokikē). [فمنذ ستة شهور مضت] عملت أجيراً لديه بمقتضى عقد مكتوب ... لمصاحبته في الحملة [ضد سوريا]، ولتقديم خدماتى له حتى يعود سالماً إلى أوتوديكيه، على أن أتلقى منه راتباً شهرياً المبلغ المتفق عليه بيننا. وقد قمت بخدمته وكان سلوكى على أتم وجه حتى عاد سالماً إلى أوتوديكيه كما ينص العقد، ولكن أريستوكراتيس ما يزال مديناً لى بعشر دراخمات من راتبى؛ وعلى الرغم من أننى أطالبه بها باستمرار فإنه لا يدفعها إلى.

راجع الحواشى التالية رقم ١٦ و ١٨، وكذلك الفصل الرابع لمزيد من الأمثلة عن إجراءات هذه الشكاوى.

لقد كان المهاجرون اليهود إلى مصر في القرن الثالث قبل الميلاد، بالمقارنة بالمستوطنين العاملين في الجندية الذين أتوا إلى مصر بعد ذلك، يعملون بشكل متخصص في الأعمال التجارية، مثلما كانوا عمالاً مهرة ودارسين، وأقاموا في غالبية الأحيان في الإسكندرية أو بجوارها. وفى منتصف القرن الثالث في الإسكندرية تمت ترجمة كتاب اليهود المقدس إلى اليونانية، وهى الترجمة التى تسمى السيبتيواجينت *Septuagint*، (أىّ: السبعينية: المترجم].

(١٥) الوثائق هي: *P. Petrie* III 20 = *W. Chr.* 240 = *Select Papyri* 413 = *C. Ord. Ptol.*, 5-10؛ راجع أيضاً تعليقات م. ت. لانجيه M. Th. Lenger, *Chronique D'Egypte*, 27 (1952), 218-246; 29 (1954), 124-136

(١٦) الوثيقتان المقتبستان هما: *P. Lond.*, 106 = *UPZ* 151 and *P. Hal.* I, lines 166-179 = *Select Papyri* 207؛ هناك أيضاً مثال آخر من هذه المضايقات في الفصل الرابع. إن الصيغة التى تلقب الملك بأنه "راعى قطيعه" والموجودة في الالتماسات هى مجرد صيغة رسمية؛ إذ أن الالتماس كان يقدم في الحقيقة إلى حاكم الإقليم. انظر أيضاً الفصل الرابع عن هذا الموضوع.

(١٧) انظر: *P. Ent.*, 11 = *W. Chr.*, 4490

(١٨) راجع: *P. Ent.*, 13

(١٩) انظر: *P. Lond.*, 2027 وكما لاحظ سكيت T. C. Skeat محقق البردية في تقديمه لهذه الوثيقة فإن "الكاتب لا بد أن يكون شخصاً له مكانة من نوع ما." أما إذا كان الوضع مختلفاً فإن قواعد اللياقة تقتضى أن يذكر اسمه بعد اسم زينون في التحية التى تبدأ بها البردية، أىّ أن يقول: "إلى زينون، وافر التحية من أسكليبياديس."

(٢٠) توجد هذه المعلومات في: *P. Teb.*, I 60-62 وفى صفحة ٥٣٨ وكانت الأراضى الملكية أو أراضى التاج تزرع بواسطة "مزارعى التاج"، أىّ المزارعين المستأجرين الذين تعاقدوا مع الموظفين المحليين التابعين للإدارة الملكية على زراعة عدة حقول ومساحات من الأراضى. أما أراضى الإقطاعيات فكان معظمها يؤجر أيضاً للمزارعين المحليين الذين يتولون زراعتها في النهاية، كما سبقت الإشارة.

(٢١) انظر: R. S. Bagnall, *The Administration of Ptolemaic Possessions outside Egypt*, Leiden, 1976, 238 إن علينا أن ننتظر حتى العام الأخير قبل الميلاد، أىّ بعد ثلاثة عقود من احتلال الرومان لمصر وتحويلها إلى ولاية رومانية، حتى يظهر في وثائقنا عضو في جيمنازيوم إحدى القرى يحمل اسماً يونانياً بينما والده مصرى: أنتايوس (Antaios) بن أونوفريس (Onnōphris) (*BGU* 1189). أما في حالة بويداس (Boïdas) بن ديمتريوس (Demetrios) الذي يظهر بوصفه مديراً للجيمنازيوم ومشرفاً على النظام (*Kosmētēs*) في نقش يرجع إلى القرن الثانى أو الأول قبل الميلاد (*SEG* XX 672 = *SB* 7246) فلا ندرى ما إذا كان مصرياً كما يذكر بعض الباحثين أم أنه يونانىّ، إذ أنه من الصعب تحديد ذلك.

(٢٢) لقد أوضح بيريمانز W. Peremans في مقالته في: *Ancient Society*, 5 (1974), 135 أن من بين المائة وثلاث وثلاثين أسرة المسجلة آنذاك التى نجد فيها آباء يحملون أسماء مصرية ولهم أبناء يحملون أسماء يونانية، فإن أربعاً وستين أسرة

(أقل من النصف بقليل) كانت تعمل في مجال الزراعة أو في رعى الماشية؛ كما أن ثمانى أسرات من هذه الأربع وستين يرجع تاريخهنّ إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وما تبقى منهنّ يرجع إلى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد. ويصل بيريمانز إلى القول: "والخلاصة أنه يمكننا أن نعتقد أن التقارب بين السكان الوطنيين والمهاجرين حدث بشكل رئيس بين الطبقات الشعبية وأنه [في هذا الوسط] كانت عملية التمصير متفوقة على عملية التشبه باليونانيين." ويوجد المثال الذي يرجع إلى عام ٢٥٠ ق.م. في: *P. Cairo-Zenon* 59292, lines 300-301

(٢٣) انظر: *P. Par.* 13 = *UPZ* 123

(٢٤) "إن التطور في الطبقة العليا في العصر البطلميّ وبالتالى في الدولة البطلمية يمكن أيضاً التدليل عليه بظهور بعض الأسر المصرية في المستويات الإدارية العليا منذ نهاية القرن الثانى. لقد كان الطريق الذي قطعته هذه الأسر طويلاً وصعباً." يقول ذلك L. Mooren, *Proc. Sixteenth International Congr. Papyrology* [*Amer. Stud. in Papyrology,* 23, 1981, 301 ولمزيد من الأمثلة راجع للباحث ذاته: *The Aulic Titulature,* Brussels, 1975 وكذلك: *Zeitschrift für Papyrologie und Egpigraphik,* 27, 1977, 190-191 وبخاصة المثال الشيق للأجيال الثلاثة المنتمين إلى أسرة واحدة. انظر كذلك: W. Clarysse, *Ancient Society,* 7 (1976), 185-207 إن أكثر الحالات إثارة للانتباه هى على ما يبدو حالة باووس Paōs الذي يظهر في: *UPZ* 209 التى ترجع إلى عام ١٢٩ ق.م. لقد كان الرجل يحمل لقب إبيستراتيجوس وحاكم إقليم طيبة وهو منصب كان يعطيه الحق في لقب تشريفى يُنادى به وهو "ابن عم الملك،" إن لم يكن قد حصل على هذا اللقب من قبل، وكان له تابع يونانيّ! انظر: *UPZ* 215 التى ترجع إلى عام ١٣٠ ق.م.

(٢٥) نظراً لأن بيريمانز كان يكتب عام ١٩٧٧م (راجع مقالته المنشورة في: *Ancient Society,* 8, 181-182) فإنه لم يستطع سوى أن يشير إلى ستة ضباط فقط في وثائق القرن الثانى والأول قبل الميلاد، من الواضح، أو لعله من المحتمل، أنهم كانوا ينتمون إلى أسرات مختلطة مصرية-يونانية.

(٢٦) إن الخمسمائة كريتى يظهرون في: *P. Teb* 32, lines 16-17 وفيما يتعلق بنظام البوليتيوما بشكل عام، راجع: D. J. Thompson (Crawford), *Atti XVII Congr. Int. Papirologia*, Naples, 1984, 1069-75

(٢٧) الوثيقة هى: *P. Teb.* 62 انظر كذلك المناقشة المستفيضة لدى: D. J. Thompson (Crawford), *Kerkeosiris, an Egyptian Village in the Ptolemaic Period,* Cambridge, 1971, 103 إن "الملك الحالىّ" المشار إليه في هذه الوثيقة هو بطلميوس الثامن الذي حكم من عام ١٤٥ إلى ١١٦ ق.م.، أما أخوه فهو

بطلميوس السادس الذي حكم من عام ١٨٠ إلى ١٤٥ ق.م.، وكان أبوهما بطلميوس الخامس الذي حكم من عام ٢٠٤ إلى ١٨٠ ق.م.، وجدّهما هو بطلميوس الرابع الذي دام حكمه من ٢٢١ إلى ٢٠٤ ق.م.

(٢٨) توجد أمثلة وإشارات إلى عقود من القرن الثالث في الوثائق التالية: *BGU* 1943, 1944, 1958, 1959 وكذلك في: *P. Ent.* 52, 54, 55, 59 وفى: *P. Petrie* III 104-106 وأيضاً في: *P. Sorb.* 14 مع الأمثلة الأخرى المشار إليها في هذه المواضع. وفيما يتعلق بالموضوع ككل، راجع المصادر المذكورة في الحاشية السابقة رقم ١٢

(٢٩) الاقتباسات مأخوذة من: *P. Lille* 4 = *W. Chr.* 336, lines 30-33 أما اليتامى فيظهرون في: *P. Petrie* II 39e = II 110a I لقد تمت مراجعة موضوع اليتامى مراجعة شاملة مؤخراً بواسطة: L. Criscuolo, *Proc. Sixteenth International Congr. Papyrology* [*Am. Stud. in Papyrology*, 23, 1981, 259-265 وفى: *P. Lille* 14 = *W. Chr.* 335 التى ترجع إلى عام ٢٤٢ ق.م. استردت الدولة بالفعل إقطاعية من صاحبها، وأعطتها إلى جندى مرتزق، وغيرت حالة الأخير إلى صاحب إقطاعية.

(٣٠) الوثائق المقتبسة هى: *P. Lille* 4 = *W. Chr.* 336, lines 26-27 وكذلك: *P. Lond.* 2015; *P. Petrie* III 12, 14

(٣١) هناك إشارة إلى طفل صغير فى الوثيقة المذكورة فى الحاشية التالية. وفيما يتعلق بالبنات فإن الوثيقة الرئيسة هى: *SB* 9790 التى ترجع إلى حوالى عام ٥٠ ق.م.؛ وفيها نجد العبارات التالية: "إلى أليكساندروس حاكم إقليم كوئيس (Kōis)، من رودوكليا (Rhodokleia) بنت مينيبّوس (Menippos)، اليتيمة من [قرية] فيبخيس (Phebikhis). بعد موت والدى المذكور وطبقاً لقرارات مليكنا المعظم، حصلت من قائد وحدة الفرسان على ملكية إقطاعية العشرين أروره المجاوره لمولوثيس (Molothis)، التى تركها والدى، لأنه لا يوجد له أبناء ذكور."

(٣٢) إن بردية عام ١٤٢ ق.م. هى: *P. Med. Bar.* I وهى منشورة في: *Aegyptus,* 63 (1983), 5

(٣٣) عن النساء، انظر: *P. Teb.* 1001 (cf. F. Uebel, *Die Kleruchen Ägyptens,* [*Abh. Deutschen Akad. Wiss.*, East Berlin, 1981, 41, n. 2) وعن العفو، انظر: *P. Teb.* 124 = *C. Ord. Ptol.* 54, lines 30-33 وعن التنازلات، راجع: *BGU* 1261 = 1734; *P. Teb.* 30, 31, 239 علماً بأنه توجد دراسة مفصلة للجوانب الرسمية والقانونية للتنازلات قام بها: H.-A.

Rupprecht, *Gedächtnisschrift für Wolfgang Kunkel*, Frankfurt, 1984, 365-390

(٣٤) انظر: *P. Petrie* III 20 = *W. Chr.* 450 وكذلك *P. Teb.* 820 وعن مزارعى التاج راجع الحاشية السابقة رقم ٢٠

(٣٥) الاقتباسات مأخوذة من: *P. Par.* 63 = *UPZ* 110 التى ترجع إلى عام ١٦٣ ق.م. وفيما يتعلق بالإنذار النهائىّ الذي وجهه الرومان لأنتيوخوس، فإن لدينا وصفاً حياً للمؤرخ بوليبيوس (Polybios) المعاصر للأحداث في مؤلفه "التواريخ"، الكتاب ٢٩، الفقرة ٢٧:

> لقد سلم المبعوث الرومانىّ بوبيلليوس لايناس (Popillius Laenas) إلى أنتيوخوس قرار السناتو الذي يطلب منه إنهاء حربه مع بطلميوس في الحال والانسحاب بجيشه إلى سوريا في خلال وقت محدد. قرأ الملك القرار وقال إنه يريد أن يتشاور مع أصدقائه بشأن هذا التطور الجديد. عندئذ فعل بوبيلليوس شيئاً خارجاً عن المألوف ويدل على الغطرسة الشديدة. لقد كان يحمل في يده عصا مقطوعة من كرمة عنب، وبهذه العصا رسم دائرة حول أنتيوخوس، وطلب منه أن يعطى ردّه على الرسالة قبل أن يخرج من هذه الدائرة. بوغت الملك بهذا التصرف الحاسم، ولكنه بعد قليل من التردد قال إنه سوف يفعل ما يأمره به الرومان.

لقد كان الرومان، كما أوضح بوليبيوس بعد ذلك، قد انتهوا لتوهم من المعركة التى هزموا فيها مقدونيا، ثالث أكبر قوة في العالم الهللينستىّ (المتأغرق): "فلو لم يكن الحال بهذه الكيفية التى كان أنتيوخوس يدركها جيداً، فإننى لا أعتقد أنه كان سيطيع أوامر الرومان."

الفصل الثانى

المهــندس كلــيون

الزمان: المدة من حوالى عام ٢٦٢ إلى عام ٢٤٩ قبل الميلاد.

المكان: إقليم أرسينوى والمناطق المجاورة (خريطة رقم ٢).

الوثائق: من بين اللقى العديدة التى عثر عليها عالم الآثار المشهور السير فليندرز بيترى Sir Flinders Petrie، في أواخر العقد التاسع من القرن التاسع عشر الميلادىّ فى الفيوم، أحد صناديق المومياوات المصنوعة من الورق المقوى. وكان هذا الورق المقوى يضم طبقات من ورق البردى الملتصقة ببعضها بحيث تكون على درجة معينة من السُمك تجعلها تشبه "الكرتون" بعد أن يجف ما بها من مواد لاصقة. وعندما تم فصل طبقات البردى اتضح أنها تحتوى على عدد كبير من وثائق البردى ذات الموضوعات المتعددة، والتى ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد. وقد اتضح كذلك أن حوالى الخمسين من هذه الأوراق تخص كليون Kleōn، وتتناول موضوعات تتعلق بحياته الشخصية وبما يقوم به من عمل. هذه اللقية من أوراق البردى التى تعرف باسم مجموعة بيترى موزعة الآن بين كلية ترينيتى Trinity College في دبلن Dublin وبين المكتبة البريطانية في لندن وبين مكتبة بودليان Bodleian التابعة لجامعة أوكسفورد.

– توجد أيضاً إشارة إلى كليون في بردية ضمن أرشيف زينون Zenon الذي سبقت الإشارة (ص ٢٨)، والبردية موجودة الآن في مكتبة بودليان. كذلك توجد إشارة أخرى إليه في بردية موجودة الآن في المتحف المصرىّ بالقاهرة.

لا نعرف على وجه الدقة متى جاء كليون إلى مصر للاستقرار فيها، فهذه معلومات لا تفصح لنا عنها أوراق البردى. وعلى الرغم من ذلك يتضح من هذه الأوراق أنه كان واحداً من الخبراء العديدين الذين بدأوا في الهجرة إلى مصر بأعداد كبيرة في عصر البطالمة. لقد أتوا إليها بوصفها "أرض الأحلام،"

ضمن دفعة المهاجرين الكبيرة التى أتت في العقود الأولى للقرن الثالث قبل الميلاد. وعندما نسمع عن كليون لأول مرة، أىّ حوالى عام ٢٦٢ ق.م.، فإننا نقابل رجلاً يبلغ منتصف العمر، وقد أصبح أباً لشابين صغيرين هما فيلونيديس (Philonidēs) وبوليكراتيس (Polykratēs)؛ بينما تدعى زوجته ميترودورا (Metrodōra).

وترجع معظم الوثائق التى تشير إلى كليون تقريباً إلى العشر سنوات الأخيرة التى قضاها الرجل وهو يعمل مهندساً (*architektōn*) في أحد الأقاليم بتكليف من الملك. لقد كانت مسؤوليات هذا المنصب آنذاك تفوق كثيراً المسؤوليات التى يقوم بها الآن من يحمل لقب مهندس معمارىّ، وباستطاعتنا بالفعل أن نسمى كليون كبير المهندسين، بل وأن نسميه المسؤول عن الأعمال العامة في منطقته. كذلك يمكن القول بأنه كان يشغل، بهذه الصفة، منصباً عالياً في السُّلم الإدارىّ يسمح له أن يخاطب شخص الملك مباشرة، طالباً منه مساعدة أبنائه في الحصول على فرص ملائمة من أجل تحسين أوضاعهم، عندما أصبحوا في سن تسمح لهم بدخول الحياة العملية. ومن المناسب هنا أن نقتبس خطابين يشيران إلى هذا الموضوع. أول هذين الخطابين أرسله شخص مجهول الهوية إلى كليون يخبره فيه أن "ابنك فيلونيديس، الذي قابل الملك شخصياً، أحضر معه من الهدايا إناءً جميلاً مطعماً بفصوص الأحجار الكريمة وكذلك إناءً على شكل تريتون(Triton)." أما الخطاب الآخر فقد أرسله بوليكراتيس، الابن الأصغر، إلى أبيه بعد أن انتهى من التدريب الذي يؤهله لأن يعمل مسّاحاً، ويقول فيه:

> من بوليكراتيس إلى والده، بعد التحية. آمل أن تكون بخير وأن يكون كل شئ على ما يرام. إننا أيضاً بخير. لقد كتبت إليك من قبل عدة مرات لكى تحضر وتقدمنى [إلى الملك]، لكى أحصل على عمل، بدلاً من حالة البطالة التى أمر بها الآن. إننى أكرر السؤال الآن، إذا كان ممكناً، ولم يكن لديك ما يشغلك من الأعمال العامة، أن تحاول الحضور إلى هنا في أثناء احتفال [خاصّ بالملكة الراحلة] أرسينوى، لأننى متأكد أن مثولى أمام الملك سوف يكون سهلاً حال وجودك هنا بشخصك.... اكتب إلينا حتى نتعرف على أخبارك، وحتى نطمئن [عليك]. اهتم بنفسك، ونأمل أن نراك على خير وفى صحة طيبة، والسلام.[١]

لقد كُتب أحد هذين الخطابين في الإسكندرية، حيث عاش الولدان وحيث مارسا حياتهما العملية. وربما يفترض البعض أن رجلاً بمنزلة كليون سوف يُقيم أيضاً في العاصمة، وربما كان هذا هو الحال بالفعل، ولعله من المؤكد أن الرجل بدأ حياته العملية في مصر في العاصمة. ولكن لأن منصبه في الأعوام التى تشير إليها أوراق البردى كان يتطلب وجوده في موقع العمل، الذي يبعد حوالىّ ثلاثمائة كيلومتراً أعلى النهر، فقد أقام هو وميترودورا هذه الأعوام في المركز الرئيس في الإقليم، في مدينة أسماها بطلميوس الأول كروكوديلوبوليس (Krokodilopolis)؛ لتكريم الإله المصرىّ الحامى للمنطقة. (وقد ظل الاسم مستخدماً حتى بعد أن أعاد بطلميوس الثانى تسمية المدينة والإقليم بأكمله، وأطلق عليها اسم زوجته أرسينوى بعد وفاتها عام ٢٧٠ ق.م.) وكانت المنطقة التى يُشرف عليها كليون تغطى إقليم أرسينوى بأكمله وتشتمل كذلك على بعض الأماكن الأخرى في الأقاليم المجاورة، وربما حددت هذه المنطقة طبيعة المشروعات التى يقوم بها. وكانت الأمور التى تدخل في دائرة اختصاصه، ابتداءً بكيفية الحصول على المواد الخام، مثل نحت الأحجار، وانتهاءً بالموافقة على المشروعات بعد الانتهاء منها، تتم بناء على أوامره وتحت إشرافه الشخصىّ. وكان يعاونه أحد المساعدين ويدعى ثيودوروس (Theodōros)، الذي منحه كليون تفويضاً بمباشرة بعض الأعمال والمسؤوليات، والذى خلف كليون ذاته في المنصب نفسه بعد ذلك، بالإضافة إلى عشرة أفراد تشبه وظائفهم نوعاً ما وظيفة رئيس عمال في الوقت الحالىّ. أما باقى العمال الذين يعملون تحت إمرته فقد كانوا يبلغون عدة آلاف، معظمهم من المصريين، ويشملون أعداداً كبيرة من العمال غير المهرة وبعض الحرفيين والصناع، الذين كان يعتمد على خبرتهم التى اكتسبوها عن طريق الممارسة العملية والتى اكتسبها أهل البلاد عبر آلاف السنين التى تسبق العصر البطلمىّ.[٢]

لقد حسب أحد الدارسين مجموع دخل كليون من عمله، الذي كان يشتمل على راتبه وعلى بدلات الطعام وغيرها، وقال بأنه يبلغ حوالى خمسة آلاف دراخمه في العام، أو ربما أكثر من ذلك. ويعادل هذا المبلغ خمسين

ضعفاً لما كان يحصل عليه عامل ماهر، إذا عمل السنة كلها دون أن يأخذ راحةً يوماً واحداً. وبالإضافة إلى ذلك كان كليون يتعامل في مبالغ نقدية كبيرة للغاية، وكان بيده أمر توزيع كميات ضخمة من الأطعمة التى كان يدفع منها أجور الأفراد العاملين في المشروعات التى يُشرف عليها. وكما سنرى فيما بعد، لم تكن حسابات كليون وسجلاته التى تتضمن مجموعات كبيرة من الإيصالات والنفقات دقيقة وواقعية دائماً، كما يقترح بعض الدارسين.[٣]

إن وثائق كليون غنية بشكل خاص بالتفاصيل المتعلقة بأعمال الرىّ ومشاريعه، بما تتضمنه هذه الأعمال من إنشاءات جديدة واهتمام لا ينقطع بالصيانة والإصلاح الضروريين للمحافظة على كفاءة نظام الرىّ، وضمان استمرار عمله بأفضل صورة ممكنة. مثل هذا النظام الذي يهدف إلى جعل مياه النيل تصل إلى بعض أجزاء المنطقة التى تُعرف الآن باسم منخفض الفيوم توصل إليه ملوك الأسرة الثانية عشرة، فيما يزيد على حوالىّ ألف عام قبل مجىء البطالمة. وحينما وطّن البطالمة الكليروخوى في المنطقة كانوا يهدفون، أولاً: إلى التأكد من استمرار زراعة هذه الإقطاعيات واستغلالها، وثانياً: إلى زيادة الرقعة الزراعية. وكانت حصص الأراضى الممنوحة تُحدد في كثير من الأحيان بحيث تشتمل على مساحات كبيرة من الأراضى البور، أو غير القابلة للزراعة لسبب آخر، وكان صاحبها يُشجَّع على محاولة استصلاحها من أجل زيادة دخله هو ذاته. كذلك كان الكليروخوى يحصلون على بعض الامتيازات التى تصل إلى حد الإعفاء الضريبىّ؛ لحثهم على استغلال أراضيهم. وبالإضافة إلى ذلك كانت توجد في إقليم أرسينوى خطة واسعة المدى للمشروعات العامة، وكانت هذه الخطة تتعلق بتحسين نظام الرىّ الذي أقامه المصريون القدماء وبتوسعته بحيث يغطى مساحات واسعة من الأراضى المستصلحة حديثاً. ربما لا يمكننا معرفة ما إذا كان كليون قد شارك في وضع هذه الخطة الطموحة أم لا، إلا أننا نعرف أنه كان مسؤولاً عن تنفيذها، ونعرف كذلك بعضاً من المشروعات التى وضعها وبعض المشكلات التى واجهها في أثناء عمله.

وكما كان الحال في العصور القديمة، فإن المياه تغطى الآن قاع منخفض الفيوم مكونة بحيرة عُرفت في العصور القديمة باسم بحيرة مؤيريس (Moëris، وتعرف الآن باسم بركة قارون.. وتلخصت خطة البطالمة في تحويل بعض المياه التى يأتى بها فيضان النيل إلى البحيرة التى جعلوا مستوى المياه فيها، كما تدل الحفائر الأثرية، ينخفض بنسبة تتراوح بين ثمانية وعشرة أمتار. ومن ناحية أخرى كان من الضرورىّ جعل مياه الرىّ تصل إلى الأراضى التى انحسرت عنها المياه من البحيرة. وفى سبيل تحقيق ذلك تم حفر عدة قنوات كبيرة، أُطلق على أهمها اسم كليون، وتم حفر شبكة من القنوات الأصغر التى تغطى المنطقة بأكملها، والتى تغذيها القنوات الكبرى. إننا نقرأ في أوراق كليون التى وصلت إلينا عن عمليات كسوة لضفاف الترع وعن دعامات وفتحات لتصريف المياه وعن بوابات للتحكم في مياه الفيضان وعن حواجز للمياه وعن جسور. كذلك نقرأ عن عمالة تضم أفراداً من الأحرار والعبيد والمسجونين، الذين يعملون في عديد من الحرف مثل عمال المحاجر وصناع قوالب الطوب والبنائين والنجارين والحدادين وسائقى العربات وعمال القوارب. وبالإضافة إلى هؤلاء، بطبيعة الحال، كانت هناك مئات من العمال غير المهرة الذين يعملون في نقل التراب وإزالته، في أثناء الحفر وبعده. وكان بعض العمل يتم تحت إشراف كليون ومساعديه، والبعض الآخر يُعطى لمقاولين؛ إلا أن المسؤولية عن سلامة أىّ مشروع وعن صلاحيته لتحقيق الغرض منه كانت تقع كاملة على عاتق كليون. وكانت المشروعات تخضع عند انتهائها لمراجعة مفتشى الدولة وموافقتهم.

وقد تطلبت شبكة الرىّ التى أقامها البطالمة صيانة مستمرة منذ اللحظة التى أُنشِئت فيها، وكان يمكن هنا أيضاً تكليف أحد المقاولين بتوفير العمالة الضرورية. أما البديل الآخر المتاح فكان يتمثل في أن تُصدر الإدارة أوامر استدعاء لبعض الرجال المقيمين في المنطقة ولبعض الحيوانات فيها؛ لأداء بعض الأعمال الضرورية. ويعطينا العقد التالى صورة عن الوضع الأول، وهو من عصر ثيودوروس الذي خلف كليون. وتُبين الديباجة الطويلة في بداية

العقد أن تاريخه يوافق الثامن من أكتوبر عام ٢٤٥ ق.م.، وهو وقت يكون فيه الفيضان قد بدأ في الانحسار مخلّفاً وراءه كميات كبيرة من الغرين الذي يزيد من خصوبة الأراضى، ويعوق في الوقت ذاته سيولة المياه في قنوات الرىّ:

في عهد الملك بطلميوس بن بطلميوس وأرسينوى، الإلهين الأخوين، العام الثانى الذي كان فيه تليبوليموس (Tlepolemos) بن أرتاباتيس (Artapatēs) كاهناً للإسكندر والإلهين الأخوين، وبطوليمايس (Ptolemaïs) بنت ثوئيون (Thyiōn) حاملة للسلة المقدسة لأرسينوى فيلاديلفوس، في الحادى والعشرين من مسرى، في كروكوديلوبوليس بإقليم أرسينوى وفى حضور المهندس ثيودوروس وإيموثيس (Imouthēs) من مكتب بيتوزيريس (Petosiris)، السكرتير الملكىّ [للإقليم]، أعطى هيرمافيلوس (Hermaphilos)، المسؤول المالىّ للإقليم، عقداً من عقود الخزانة [إلى شخصين يونانيين، أسماؤهما غير واضحة] لإزالة الرمال من قناة رىّ بالقرب من [قرية] هيفايستياس (Hephaistias)، لضمان رىّ أراضى الكليروخوى من الفرسان، [وتبدأ] من حدود أراضى تيموثيوس(Timotheos)، [وتمتد] مسافة خمسين اسخوينيه *schoinia* .... وسوف يأتى [المقاولون] بكل معداتهم وسوف يكملون العمل، دون أن يعوقوا بأى شكل نظام الرىّ في الأراضى، في غضون ثلاثين يوماً ابتداءً من اليوم الذي يتسلمون فيه النقود.... كذلك فإنهم سوف يتسلمون نصف النقود ساعة توقيع العقد وختمه، وعليهم أن يُحضروا [الضمانات المطلوبة] ... وبعد أن يؤدوا عملاً بقدر الأموال التى دُفعت لهم فإنهم يتلقون مبالغ أخرى. أما إذا كانوا لا يعملون أو لا يؤدون عملهم بالكيفية الموضحة في العقد، فإن من حق الموظف المسؤول أن يُعيد في هذه الحالة توزيع العمل [وعلى المقاولين دفع التعويضات في حالة حدوث أضرار].[٤]

كذلك لم يكن باستطاعة كليون إصدار أوامر استدعاء للعمالة أو للإمدادات دون الحصول على موافقة موظفى الإدارة المختصين. ويكفى هنا أن نشير إلى خطابين لتوضيح هذا الأمر. أول هذين الخطابين أرسله ثيودوروس إلى الموظف المختص بالشؤون المالية في الإقليم، ويبين فيه حاجته إلى بعض دوابّ الحمل لنقل المواد الضرورية لتقوية الجسور. أما الخطاب الآخر فموجه إلى كليون، ويسمح له باستدعاء بعض الأفراد لتنظيف إحدى القنوات التى عاق الغرين أو الطمى جريان المياه فيها:

من ثيودوروس إلى ديوتيموس (Diotimos)، بعد التحية. من فضلك اكتب بأسرع ما يمكن إلى أندروسثينيس (Androsthenēs) وإلى مديرى الإقليم؛ ليرسلوا إلينا، كما فعلوا من قبل، تصريحاً باستدعاء كافة دوابّ الحمل؛ نظراً لأن النهر قد ارتفع إلى مستوى كافة الجسور وتجب تقويتها [تاريخ البردية مفقود].

من أليكساندروس إلى كليون، بعد التحية. يوجد بعض الطمى في القناة التى حفرناها في العام الماضى والتى تصل بين تيبيتنو (Tebetnou) وساماريا (Samareia) وبين كيركينسيس (Kerkeēsis). ولهذا فبرجاء إصدار الأوامر بسرعة لتخفيض ضريبة الملح المفروضة على أهالى كيركيئيسيس بحوالى مائتى دراخمه، على أن يقوموا في مقابلها بإزالة ستين أويليا (*aoilia*) من الطمى لكل أربع دراخمات، حتى يتم رفع [الطمى] ولا تغمر المياه الأراضى لمدة طويلة. أيضاً أرسل إلينا بما تبقى من المائتى لوح خشب، من أطول وأسمك ما يمكن، حتى يمكننا استخدامها في تدعيم الجسور، لأننا متوقفون بسبب حاجتنا إلى هذه الألواح، وكذلك مائة حبل. وإذا كان لديك الكثير [من الحبال] أرسل مائتين. والسلام. [التاريخ: السابع من أغسطس، عام ٢٥٤ ق.م.].[٥]

ويعطينا هذا الخطاب الأخير فكرة عن عديد من الوثائق التى يتضمنها أرشيف كليون، والتى يتضح منها أنواع المشكلات وطابع العجلة التى كان كليون يعمل تحتها وفى ظلها في كثير من الأحيان، إن لم يكن في غالبيتها. لقد كان الرجل يحاول دائماً، في حقيقة الأمر، أن يحافظ على الشعرة التى تربط بين ما يطلبه منه رؤساؤه أو ما يتوقعونه منه وبين ما تسمح به الإمكانات المتاحة بالفعل. كذلك يتولد لدينا انطباع بأن أعمال التسوق كانت تسبب مشكلة دائمة، خاصة عندما يتعلق الأمر بضمان توريد الأدوات والمعدات في أوقاتها، من أجل تجنب التأخير في إنجاز الأعمال المطلوبة، أو على الأقل التقليل منه. أيضاً كان لا بد من إحضار أجور العمال وما يحصلون عليه من طعام إلى مواقع العمل في الوقت المحدد، وإلا توقف العمل. وكان العمال الذين لا يحصلون على حقوقهم، سواء كانوا يعملون في الزراعة أو في الصناعة، يعلمون أن البطء في أداء عملهم أو ترك موقع العمل بالكلية، وبمعنى آخر الإضراب، هو الوسيلة الوحيدة المؤثرة والمتاحة في نهاية المطاف. وفى بعض الأحيان كانوا يلجأون إلى المعابد خوفاً من العقاب، حيث يمكنهم التفاوض دون خوف من إلقاء القبض عليهم أو إصابتهم بأذى بدنىَ.[٦]

وبالإضافة إلى هذه المشكلات اليومية التقليدية، كان كليون يواجه نوعاً أخر من الصعوبات التى تأتى من مصدر آخر مختلف تماماً. ففى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد حلقت في سماء إقليم أرسينوى شخصية مرموقة

éminence grise؛ هذا الرجل هو أبوللونيوس الذي كان يشغل آنذاك منصب وزير المالية، الديؤيكيتيس *dioikētēs*، أو بمعنى آخر أقوى رجل في "وزارة" الملك. ومن بين القرى التي تأسست في حكم بطلميوس الثاني فيلاديلفوس واستوطنها الكليروخوى قرية حملت اسم فيلاديلفيا، وكانت تقع على الحافة الشمالية الشرقية لمنخفض الفيوم. وقد منح الملك لأبوللونيوس قطعة أرض بالقرب من فيلاديلفيا تبلغ مساحتها عشرة آلاف أروره، وهي مساحة تعادل حواليّ ٦٫٨٠٠ فداناً أو ٢٫٧٥٠ هكتاراً.[٧] كذلك استعمل أبوللونيوس رجلاً يونانياً من آسيا الصغرى يدعى زينون لإدارة الضيعة نيابة عنه. ويوضح لنا ما تبقى من أوراق زينون، ويبلغ حوالي ألفي بردية، الأعمال التي كانت تتم في الضيعة، بكافة تفاصيلها. وعلى الرغم من أن أبوللونيوس كان يقيم في الإسكندرية معظم وقته، تاركاً لمديره متابعة الأعمال اليومية في الضيعة، فإنه كان على اتصال دائم ووثيق بأرضه في فيلاديلفيا، وكان يرسل تعليمات كثيرة إلى زينون وإلى غيره، مستخدماً في ذلك الخطابات في غالبية الأحيان، وإن كان يقوم بزيارة الضيعة من حين إلى آخر. أيضاً تكرر استخدام أبوللونيوس لمنصبه الرسميّ في خدمة مشاريعه الخاصة في ضيعته وما حولها، مرتكباً بذلك ما نتعارف عليه اليوم باسم الاستغلال الشخصيّ للمنصب العام، أو إهدار المال العام، وهو الأمر الذي كان معاصروه يتقبلونه على أنه شئ طبيعيّ. وهكذا كان رجال وموظفو أبوللونيوس في فيلاديلفيا، من أجل تحقيق رغباته، يفرضون أنفسهم على كليون ويعيقونه عن أداء عمله من أجل معاملتهم معاملة متميزة، ويزيدون بذلك من مشكلات العمالة والموارد التي يواجهها. إن الخطابات التالية، التي ترجع إلى المدة الواقعة بين الحادي عشر من أكتوبر عام ٢٥٧ ق.م. والحادي عشر من يونيو عام ٢٥٥ ق.م.، تعطينا فكرة عامة عن هذا الوضع. أول هذه الخطابات أرسله الرجل الذي كان يسبق زينون في إدارة ضيعة أبوللونيوس:[٨]

من باناكسيتور (Panakestor) إلى كليون، بعد التحية. لقد أرسلنا إليك خطاباً من قبل في التاسع والعشرين، لترسل إلينا عمالاً لترميم منحنيات القناة الصغيرة، إلا أنه يبدو أنك لم تهتم بالمرور علينا في أثناء ذهابك إلى البحيرة الصغيرة. ما كان يليق

بك أن تفعل ذلك، بل كان من الواجب أن تمنحنا بعض الوقت وأن تستفسر منا، بعد أن لاحظت أن الأرض غير مروية، لماذا هى كذلك. إنك لم تُعيِّن مسؤولاً عن البحيرة الصغيرة دون غيرها، بل أيضاً عن هذا المكان. ولهذا احضر غداً لمقابلتنا عند الهويس للإشراف على ما يجب أن نقوم به من عمل لجعل المياه تجرى بعد المنحنيات، لأننا نفتقد الخبرة لعمل ذلك. وسوف نجهز لك العمال الضروريين وباقى الأدوات التى تحتاجها، أىّ كل ما تأمر به. إما إذا لم تحضر فسوف نكتب مضطرين إلى أبوللونيوس، قائلين إن أرضه وحدها [من بين أراضى إقليم أرسينوى] بدون رىّ، بالرغم من استعدادنا لتقديم كافة الأشياء الضرورية، والسلام.

من فيلوكسينوس (Philoxēnos) وعمال الإصلاح الآخرين، إلى كليون، بعد التحية. إن عمال المحاجر المائة والأربعين.... لا يعملون لأنهم لا يحصلون على ما يقيم أودهم. وبالنسبة لما أخذوه من حصة المال والطعام، فقد أخبرونا أنهم استهلكوها، وهم الآن متعطلون لأنه لا يوجد من يشرف عليهم. لهذا فنحن نرى أن من الأفضل لك أن ترسل لكل واحد منهم أردباً من القمح من المخازن الملكية، حتى لا يتعطلوا أكثر من ذلك، خاصة وأن وزير المالية [أبوللونيوس] يحتاج بسرعة إلى مكان للإقامة. لهذا يجب إعادة جميع عمال المحاجر إلى عملهم، والسلام.

إلى كليون، بعد التحية من المشرفين على عمال المحاجر. إننا نُعامل جميعاً بصورة مزرية، إذ أنه لم يتحقق شئ مما اتفقنا عليه مع وزير المالية أبوللونيوس. إن العقد موجود مع ديوتيموس. لذلك حاول أن تتحرك وأن تجعل ديونيسيوس وديوتيموس يعاملوننا على أساس العقد المبرم معنا، وألا تجعل العمل يتوقف كما حدث من قبل. إن العمال سوف يتوقفون عن العمل إذا عرفوا أننا لم نتلق شيئاً.

لا شك في أن كليون واجه كثيراً من هذه الأزمات في أثناء حياته العملية التى توقفت بالفعل بعد سنوات قليلة في أعقاب هذه الخطابات التى اقتبسناها. ففى حوالى عام ٢٥٢ ق.م.، زار الملك إقليم أرسينوى، ونحن نعرف من أرشيف كليون أن مشاريع الرىّ في قرية بطلمية لم تكن قد اكتملت في موعدها المحدد قبل الزيارة الملكية، بسبب النقص في القوارب الضرورية لنقل الأحجار من المحاجر. لقد كان باستطاعة كليون في بعض الحالات الأخرى المشابهة أن يتخذ إجراءات مؤقتة بحيث يقلل من الإحساس بأن العمل لم يكتمل بعد. وعلى الرغم من ذلك يبدو أن عدم استطاعته إنجاز العمل في الوقت المحدد في حالة بطلمية ترك أثراً سيئاً. وتوجد أيضاً بعض الملاحظات المتناثرة في أوراق البردى، وهى ملاحظات يمكن أن تدل على أن مراجعى

الملك وجدوا أن سجلات كليون يشوبها نوع من عدم الدقة. وأياً كان تفسير هذه الملاحظات، فمن الواضح أن كليون كان قد فقد، أو بدأ يفقد عندئذ، حظوته لدى الملك. ويدلنا على ذلك بوضوح خطاب من زوجته التى ظلت بالمنزل بينما رافق كليون الملك في أثناء جولته التفقدية. ففى مرحلة بعينها في أثناء الرحلة، ربما عندما بدأت تظهر دلائل عدم رضى الملك، كتب كليون إلى زوجته طالباً منها أن تلحق به. وفيما يلى ردها عليه:

> لقد طلبت منى أن أكون إلى جوارك، وساعتها وددت لو أترك كل شئ وألحق بك. ولكننى الآن خائفة وخائفة جداً عندما أفكر فيما سيحدث لك ولنا. إن مفتشى الملك الذين أتوا إلى هنا هذا الصباح أخبرونى عما حدث لك وأن الملك عند وصوله إلى البحيرة [ومشاهدته أن العمل غير مكتمل] وبخك توبيخاً شديداً.[٩]

يوجد أيضاً خطاب لا يحمل تاريخاً، وإن كان من الممكن إرجاعه على أكثر تقدير إلى ما قبل نهاية حياة كليون العملية مباشرة. وفى هذا الخطاب يحث فيلونيديس أباه على التقدم بطلب لإعفائه من منصبه، أو على الأقل للحصول على إجازة طويلة، وعلى أن يأتى لزيارته وأسرته لبعض الوقت. لقد فُقدت مقدمة الخطاب، ولكن الجزء المتبقى ما يزال يتضمن العبارات التالية:

> ... لأنه بهذه الوسيلة يمكنك أن تحوزعلى رضى الملك مرة ثانية في المستقبل. لا شك في أنه لا يوجد بالنسبة لى شئ أهم من العناية بك فيما تبقى لك من عمر، وبالشكل الذي يليق بك وبى، وأن أهتم بأن تحظى بالاحترام اللازم إذا حدث لك ما يحدث لبقية البشر. إن أهم شئ عندى هو أن أعتنى بك في أثناء حياتك وعندما ترحل إلى الآلهة. لهذا، من فضلك، حاول بكل وسيلة أن تحصل على إعفاء نهائىّ، وإذا وجدت أن هذا أمر صعب فعلى الأقل وقت انخفاض النهر، عندما لا يكون هناك خطر [من الفيضان]. بالإضافة إلى ذلك باستطاعتك أن تقضى ذلك الوقت معنا، على الأقل. تذكر أنه لن يحدث هنا ما يعكر صفوك، وأننى سأهتم بكل شئ يوفر لك الراحة وقضاء وقت ممتع.[١٠]

لقد حصل كليون على إعفاء مؤقت من منصبه، وهو ما نعرفه من خطاب دورىّ أرسله مسؤول كبير، لا يمكننا تحديد شخصيته؛ وبالإضافة إلى ذلك فإن الخطاب الموجه إلى الموظفين المسؤولين في الإقليم والقرى يقول فيه صاحبه: "لقد عينت ثيودوروس المهندس المساعد مسؤولاً عن الجسور

والأهوسة، وإننى أمنحه سلطة مباشرة الأعمال المتعلقة بالجسور في الإقليم...."[١١]

ولأن الإشارة هنا إلى ثيودوروس بوصفه مهندساً مساعداً، فمن الواضح أن كليون كان ما يزال في منصبه رئيساً لثيودوروس. وعلى الرغم من ذلك يبدو أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، الأمر الذي يتيح الفرصة لاحتمالات ثلاث. أولها: أن إعفاء كليون المؤقت قد أصبح دائماً، وثانيها: أن يكون الرجل قد نُصح أن يطلب إحالته إلى التقاعد، وآخرها: أن يكون قد أقيل من منصبه. إن الوثائق التى وصلت إلينا ابتداءً من حوالى عام ٢٥٢ ق.م. وطوال الخمسة عشر عاماً التالية تدل على أن "المهندس" في تلك الآونة هو ثيودوروس.

إن كليون يختفى تماماً من سجلاتنا بعد الخطابات التى أشرنا إليها من قبل، وليست لدينا أية فكرة عن المدة التى عاشها بعد ذلك، أو عن كيف عاشها. ربما سُمح له بالتقاعد بشكل مُشَرِّفْ، ولأن الصلة بينه وبين ثيودوروس كانت دائمة حسنة، فربما أنه ظل بعدها موضع تقدير، ويستعان بخبرته السياسية والإدارية من حين لآخر. ومن ناحية أخرى يتضح من روح الاهتمام الشديد في خطاب فيلونيديس أنه كان يوجد حول كليون عدد من الحقودين المستعدين لإعلان غبطتهم وتشفيهم فيه بعد زوال سلطانه. لا يمكننا الحديث عن كليون أكثر من ذلك، بل إن بعضاً مما ذكرناه يدخل في حيز التخمين، وليس هناك أثر ولو بسيط يمكن أن يكسر من حدة صمت المصادر عن هذه الموضوعات.

الحواشى:

(١) الخطابات توجد في برديات: *P. Petrie* II 16 and 11(1) وقد أعيد طبعها تحت أرقام ٤ و ٣ في: S. Witkowski, *Epistulae Privatae Graecae*, 2nd ed., Leipzig, 1911 وكانت أرسينوى أخت بطلميوس الثانى فيلاديلفوس وزوجته، وقد عُبد الاثنان معاً بوصفهما "الإلهين الأخوين." وبعد وفاتها عام ٢٧٠ ق.م. أسبغ عليها

الكثير من مظاهر التشريف الدينية لإحياء ذكراها وللرفع من شأن عبادة أرسينوى، وشمل ذلك الربط بينها وبين أفروديتى (بالنسبة لليونانيين) وبين إيريس (بالنسبة للمصريين). وبالكيفية نفسها تم تأليه الملكات البطلميات اللائى أتين بعد ذلك.

(٢) يوجد أيضاً بالكيفية ذاتها مثال معاصر في أرشيف زينون ليونانىّ يعمل مع عامل قوارب مصرىّ. انظر: *P. Cairo-Zenon* 59782a, line 65

(٣) الحسابات مأخوذة على أساس الأرقام الموجودة في: T. Reekmans, *Archiv für Papyrusforschung*, 20, 1970, 17-24

(٤) انظر: *P. Petrie* III 43(2), recto ii إن الجملة الأخيرة قد أُكملت على أساس عقد مشابه يرجع إلى العام نفسه، وموجود في: *P. Petrie* III 43(2), recto iv وفيما يتعلق بصيغة التأريخ راجع الفصل الثامن. ويعادل الاسخوينيون مائة كيوبيت في الطول، أىّ ما يساوى حوالى ٥٢٫٥ متراً.

(٥) *Petrie* II 9(1) and 4(11). والأويليون مكيال يعادل ما يقرب من نصف متر مكعب.

(٦) منذ زمن بعيد في العصر الفرعونىّ عرف المزارعون وسيلة الفرار إلى ساحة مقدسة واتخاذها ملجأ لهم حيث يمكنهم العثور على بعض الأمن من الإيذاء الجسدىّ، بينما يمكنهم في الوقت ذاته االتعبير عن مدى الظلم الذي دفعهم إلى ترك أعمالهم. وقد استمر هذا التقليد عبر القرون، ويخبرنا البردى المعاصر لأرشيف كليون عن إضرابات المزارعين في ضيعة أبوللونيوس، الذي سنقابله في الفقرة التالية، وعن فرار العاملين في المحاجر، وعن مجموعة تهدد بالفرار من العمل بسبب تأخر رواتبهم. انظر: *P. Cairo-Zenon* 59245, *PSL* 421 and 502, *P. Hib*. 71 وأحدث دراسة تناولت هذا الموضوع هى: H. Cadell, *Journ. Econ. Soc. Hist. Orient*, 26 (1983), 22-32

(٧) لقد كانت فكرة أبوللونيوس، أو الملك، أن يتم تطوير الضيعة لتصبح "مزرعة نموذجية" وأن تكون مثالاً يُشجع أيضاً الكليروخوى على المشاركة في مشروعات تساعد على زيادة الإنتاج الزراعىّ مما يعود بالفائدة على اقتصاد البلاد بشكل عام. ومن المحتمل أن الأمر كان ملحوظاً أكثر من غيره في مجال زراعة الكروم التى، بالرغم من كونها معروفة في العصور السابقة للعصر البطلمىّ، اتسعت عندئذ بسبب استهلاك المهاجرين للخمر لتصبح في النهاية محصولاً رئيساً في البلاد. وتدل أوراق البردى على وجود بعض هذه الأنشطة على الضيعة، ومنها إضافة أراض زراعية عن طريق إزالة الأعشاب وتزويد الأراضى بنظام للرىّ، كما أننا نقرأ عن محاولات، متفاوتة القدر من النجاح، لجلب بعض النباتات والأزهار اليونانية وغير اليونانية التى تُزرع في ظروف

طقسية مختلفة عن تلك الموجودة في مصر. وهكذا أصبحت ضيعة أبوللونيوس مركزاً لكافة الأنشطة الزراعية والأعمال المصاحبة لها، إلا أنها أصبحت أيضاً مكاناً يجذب إليه وإلى منطقة فيلاديلفيا الجديدة اليونانيين الذين رأوا فيه فرصاً جديدة للتعاملات التجارية، وأيضاً المصريين الذين سعوا وراء فرص العمل في الزراعة والعمالة اليدوية.

(٨) الخطابات هي: *P. Petrie* II 13(5) (= *P. L. Bat.* XX Suppl. C.); 4(8) (= III 42c 1); and 13(1) وبالنسبة لديموتيموس انظر ص ٤١. إن اسم ديونسيوس شائع جداً بدرجة تحول دون التعرف عليه بشكل قاطع، ولكن من المحتمل أن الرجل المذكور هنا إما عميل أبوللونيوس الذي يحمل الاسم نفسه والمقيم في إقليم منف المجاور لفيلاديلفيا من الشرق، أو الموظف المالىّ للإقليم.

(٩) *P. Petrie* II 42h 8(f) = Witkowski, *op. cit.*, no. 6

(١٠) *P. Petrie* II 13(19) = *P. Lond.* 945 = *Select Papyri* 94 لقد كان النيل يصل عادة إلى أقل مستوى له في المدة من أبريل إلى منتصف يونيو.

(١١) *P. Petrie* II 42a

الفصل الثالث

نيكانور وعمال البنوك

الزمان: المدة من حوالىّ عام ٢٦٥ قبل الميلاد إلى عام ٢٢٦ قبل الميلاد.

المكان: مدينة أوكسيرينخوس (Oxyrhynchos) ومنطقة الوجه البحرى.

الوثائق: أوراق صاحب بنك يدعي نيكانور Nikanōr، وهى ترجع إلى حوالى عام ٢٤٠ ق.م. وتشكل أصغر أرشيف وصل إلينا حتى الآن؛ إذ أنها تحتوى على ثلاث عشرة وثيقة فقط، ونصفها مجرد شذرات بسيطة. ولهذا السبب أشرنا في هذا الفصل إلى وثائق أخرى من العقود السابقة لنيكانور والتالية له؛ لكى نستكمل فكرتنا عن أعمال البنوك وعن أصحابها في ذلك الوقت.

عندما تطورت الأنشطة الاقتصادية وبلغت درجة احتاج اليونانيون عندها إلى خدمات ما نسميه في وقتنا الحالىّ بالبنك، وربما كان ذلك في القرن السادس قبل الميلاد، فإنهم أشاروا ببساطة شديدة إلى هذا النشاط بلفظة "طاولة." ومازالت كلمة "ترابيدزا" (*trapeza*) هى الكلمة التى تعنى "بنك" في اللغة اليونانية الحديثة. وبينما تتسم الصورة التى تعبر عنها هذه الكلمة بالوضوح، فإنها تبين أن البنك في شكله البدائىّ كان مجرد طاولة أو منضدة للبيع والشراء وتغيير العملة.

وفى العصر الهللينستىّ (المتأغرق) تطورت بعض البنوك بحيث أصبحت، في حد ذاتها، مشروعات على قدر كبير من الضخامة، وأصبحت تقدم أنواعاً متعددة من الخدمات على المستويين المحلىّ والخارجىّ. وعندما بدأت تظهر بعض الأدلة على هذا النشاط في البرديات التى نُشرت في أوائل هذا القرن، سارع بعض الكتاب إلى القول بحماس إنهم عثروا في مصر البطلمية على الأمثلة المبكرة لنظام البنوك المعقد، ولأساليبها المعروفة في الوقت الحالىّ. وعلى الرغم من ذلك فقد بدأت الدراسات الحديثة في التراجع عن مثل هذه

الأفكار لما تتضمنه من مبالغة. إن التحليل الدقيق للمعلومات التى ازدادت عما سبق يوضح أن نشاط البنوك البطلمية لم يتعد مجرد التعاملات البسيطة نوعاً ما، والتى تشمل الإيداع وصرف النقود وتحويلها. لقد كانت البنوك تتسلم مدفوعات الضرائب، وتودعها حساب خزانة الدولة، وتدفع أيضاً المبالغ المستحقة على الدولة للعاملين المدنيين، وللجنود ولرجال الدين ولمحصلى الضرائب. كذلك كانت البنوك تتسلم نقوداً لحسابات شخصية خاصة وتقوم بتحويل العملة وإقراض النقود بضمان الأرض أو الممتلكات العينية. ويتعلق هذا النشاط كله، في حقيقة الأمر، بأعمال تتلخص حول شئ واحد أو تدور حوله، وهو إيداع وصرف أموال الناس المتعاملين مع البنك.

لقد ظهرت البنوك في مصر في أثناء الحكم البطلميّ الذي طبق نظام التعامل بالنقود، المعروف في اقتصاد العالم الهللينستىّ (المتأغرق)، في مجتمع زراعىّ يعتمد أساساً على التعامل بالمقايضة. وتزودنا أوراق البردى التى ترجع إلى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد بأدلة حية على الصعوبات والحيرة التى واجهها المزارعون وهم يتعلمون كيفية التعامل مع الأوضاع الجديدة التى أملاها نظام التعامل بالنقود، الجديد بالنسبة لهم. وهناك تصوير دقيق لعدم التوافق الذي يوجد بين النظام الذي اتبعته كل فئة من فئتى السكان بقلم الباحث البلجيكىّ المعروف جان بينجين Jean Bingen الذي أهديت إليه هذا الكتاب. لقد كتب في تحليله لخطاب طويل يرجع إلى عام ٢٥٦ ق.م.، ويتعلق بحادثة تسببت في فرار المزارعين ولجوئهم إلى أحد المعابد، قائلاً:

> نجمت الصعوبة عن الاحتكاك بين نمطين ثقافيين مختلفين تماماً. فمن ناحية نجد الاقتصاد [اليونانىّ] بما له من حسم وفاعلية، ومن ناحية أخرى [نجد] البناء الاجتماعىّ المعقد لمصر بما يميزه من جمود وعدم قدرة، بشكل واضح، على مواجهة أساليب الإدارة واستخدام النقود [التى لا يتعامل بها]، ووسائل التعامل بين المهاجرين اليونانيين.... وربما يصور هذا الوضع بعضاً من المشكلات الناجمة عن التبادل والاحتكاك الثقافىّ... الذي حدث بعد مجيء اليونانيين إلى مصر واستقرارهم فيها، وهى مشكلات لم يتم أبداً التوصل إلى حلول نهائية لها.[١]

لقد أشرت في الفصل الأول إلى أن البطالمة أصدروا عملة خاصة من

أجل التعامل بها داخل البلاد فقط؛ إذ كان من الشائع عندئذ، كما هو الحال الآن، أن تمارس الدولة احتكاراً لإصدار العملة. أما الإدارة البطلمية فقد مارست شيئاً يكاد يقترب من الاحتكار الكامل لأعمال البنوك أيضاً، وهو الأمر الذي ستتضح دلالاته في الفقرة التالية. حقيقة إن تعبير "بنك خاص" يظهر مرة واحدة في وثيقة ترجع إلى العقود الأخيرة للعصر البطلميّ، ولكن السياق الذي ورد فيه التعبير بسيط جداً إلى حد أنه لا يمكننا استنتاج أية قواعد ثابتة على أساسه. ربما يمكننا، مع ذلك، أن نُخمن أن الملك سمح عندئذ بإنشاء مؤسسات بنكية يمتلكها أفراد، وربما شجع أيضاً على ذلك، في الأيام الأخيرة التى ضعفت فيها سيطرة الإدارة وقلت موارد الخزانة، وهى الأيام التى كانت مصر فيها تابعة في واقع الأمر للرومان، ورأى رجال الأعمال الرومانيون فيها مصدراً غنياً للربح السهل والسريع. لكن هذا التغيير حدث بعد منتصف القرن الثالث قبل الميلاد بوقت طويل، بل ولم يكن ممكناً التنبؤ به، خاصة أن نفوذ البطالمة كان قد بلغ في تلك الآونة قمته داخل البلاد وخارجها، وهذا هو الوقت الذي نتحدث عنه في فصلنا هذا.[٢]

وتُميز دراسة حديثة العهد نوعاً ما، أجريت عام ١٩٨١م عن أعمال البنوك في مصر البطلمية في القرن الثالث قبل الميلاد، بين نوعين من البنوك، أولهما: البنوك الملكية، والآخر: البنوك ذات التراخيص. وكان النوع الأول، طبقاً لما لدينا من مصادر، هو الأكثر شيوعاً، وكان موجوداً في واقع الأمر في كل مكان. كذلك كان يقوم بالعمل فيه والإشراف عليه موظفون مدنيون من أعضاء الطبقة المتوسطة، وهم رجال كانوا غالباً ما يعملون في أنشطة أخرى في الوقت ذاته. أما البنوك ذات التراخيص فكانت، على ما يبدو، محدودة العدد، وإن كنا لا نعرف السبب في ذلك، وكانت التراخيص تُعطَى لمن يرسو عليه العطاء، بالكيفية ذاتها التى يُمنح بها امتياز تحصيل بعض الضرائب (راجع صفحات ٤٥-٤٦). وكان من يرسو عليه العطاء يحصل من الإدارة على عقد يتيح له أن يدير بنكاً في مكان بعينه أو في منطقة بأكملها.[٣]

لا تتيح لنا المصادر الموجودة معرفة أوجه الاختلاف بين هذين

النوعين من البنوك بالشكل الذي نوده، باستثناء الفارق الإداريّ الذي سبقت الإشارة إليه. وستكون الفكرة لدينا أوضح، بطبيعة الحال، إذا ما كان توزيع هذه البنوك والأعمال التى يقوم بها كل منها في أماكن ومجالات مختلفة في كل من الحالتين؛ إلا أنه يوجد ما يدل على تداخل واضح وازدواج في نوعية التعاملات التى يقوم بها كل من هذين النوعين من البنوك. وهناك أيضاً عقبة أخرى تحول بيننا وبين التوصل إلى فهم أدق للفروق بين النوعين، وتتمثل في نوعية المصادر التى لا تشير في الغالب إلى تعاملات مختلفة أو ذات صفات مميزة، بل إلى أنواع بعينها من النشاط البنكىّ. كذلك فإنه يغلب على هذه المصادر طابع التكرار ولا تختلف عن بعضها البعض إلا من حيث الوقت والمكان، ومقدار النقود؛ ولهذا فإنها لا تزودنا بالمعلومات الضرورية لتكوين فكرة متكاملة عن نظام البنوك.

ويدور معظم ما لدينا من معلومات حول البنوك الملكية. وإذا بدأنا بعاصمة البلاد ومركزها عندئذ، الإسكندرية، فسوف نجد أنه كان على الوافدين إلى مصر من الخارج، كما رأينا في الفصل الأول، أن يستبدلوا بما معهم من عملة صعبة عملة بطلمية حتى يستطيعون شراء وجبتهم التالية، أو القيام بأىّ تعامل تجارىّ داخل البلاد. هل يعنى هذا وجود "بنك مركزىّ" في مصر في ذلك الوقت؟ إن الأدلة المتعلقة بهذا الموضوع تتصف بالغموض، ويغلب عليها طابع التخمين. وعلى الرغم من ذلك يتضح أنه قد وجد في الإسكندرية واحد أو أكثر من البنوك الملكية، كما هو الحال في المدن التى تقع داخل البلاد. بالإضافة إلى ذلك كان يوجد في كل ميتروبوليس (Metropolis)، أىّ في كل عاصمة إقليمية، بنك ملكىّ لخدمة الإقليم الذي تقع فيه العاصمة، وفروع أخرى معاونة في بعض القرى المهمة في الإقليم أو في كافتها. وكان يشار إلى الفروع الموجودة في القرى عادة في أوراق البردى بوصفها "مكاتب الضرائب"، وهى تسمية يغلب عليها الطابع الشعبىّ، أكثر من كونها "صفة رسمية" لهذه الفروع. وبينما تدل التسمية على المهمة الأساسية لهذه الفروع المحلية، وهى تلقى مدفوعات الضرائب، فإن أعمالها لم تكن تقتصر على هذه

المهمة؛ إذ أنها كانت تقبل أيضاً الحسابات الخاصة، كما تفعل مكاتب البريد في الوقت الحاليّ. كذلك كان باستطاعتها منح القروض، خاصة للكليروخوى، وربما أيضاً لغيرهم.

وقد بدأ نظام البنوك ذات التراخيص في الظهور، طبقاً لما لدينا من مصادر، في عهد الملك بطلميوس الثانى فيلاديلفوس. هذه البنوك التى كانت محدودة العدد بدأت في الظهور من عام ٢٦٠ ق.م.، ولم تكن لها، بقدر ما نعرف، أية صلة مطلقاً بإيصالات الضرائب ومدفوعاتها التى كانت تودع في البنوك الملكية. ولهذا كانت تلك البنوك تنتمى بالتحديد إلى ما يمكن أن نطلق عليه في وقتنا هذا "القطاع الخاص". وبالإضافة إلى عمليات الإيداع والسحب البسيطة، كان باستطاعة عملاء هذه البنوك أن يحولوا عن طريقها مبالغ نقدية إلى بنوك في أماكن أخرى، أو أن يدفعوها إلى طرف ثالث. كذلك قامت البنوك الخاصة بدور بنوك تغيير العملة وإقراض النقود، مقابل رهونات كان يُفضل عادة أن تكون من الحليّ أو المعادن الثمينة. وبهذه الصفة الأخيرة تتشابه البنوك الخاصة مع مكاتب الرهونات أكثر منها مع البنوك المحلية.

إن كافة أصحاب البنوك الذين نقابلهم في وثائق القرن الثالث قبل الميلاد يحملون أسماء لا نشك في هويتها اليونانية، ومنها، على سبيل المثال، نيكانور وبيثون (Pythōn) وأرتيميدوروس (Artemidoros) وياسون (Iasōn) وبوسيدونيوس (Poseidonios). أما فيما يتعلق بمساعديهم وموظفيهم، وخاصة العاملين في الفروع الموجودة في القرى، فكانوا يضمون بعض المصريين الذين كان يجب، بطبيعة الحال، أن تتوفر لهم المعرفة بقدر كاف من اللغة اليونانية يتيح لهم أداء أعمالهم. وفيما يلى القَسَم الذى يُقسمه أحد هؤلاء الموظفين قبل توليه مهام وظيفته، وهو يرجع إلى حوالى عام ٢٣٠ ق.م.:

في عهد الملك بطلميوس بن بطلميوس وأرسينوى، الإلهين الأخوين، في العام ... في الثامن والعشرين من أبيب [فيما يلى] اليمين الذي أقسمه ووقع عليه سيمثيوس (Semtheus) بن تيوس (Teōs) من هيراكليوبوليس (Herakleiopolis)، المساعد المعروف أيضاً باسم هيراكليودوروس (Herakleodōros). إننى أقسم بالملك بطلميوس بن بطلميوس وبالملكة بيرينيكى وبالإلهين الأخوين وبالإلهين الخيّرين

وبأجدادهم، وبإيزيس وسيرابيس، وبكافة آلهة وآلهات البلاد، أننى سأعمل بكل تأكيد مع كليتارخوس (Kleitarchos)، ممثل صاحب البنك أسكليبياديس (Asklepiadēs)، والمسؤول عن المكتب الفرعىّ في [قرية] فيبيخيس (Phebikhis) في إقليم كوئيس (Kōis). إننى سأقوم بكل همة ونشاط بإيداع كل النقود في الخزانة، وسوف أسلم النقود التى أتسلمها من كليتارخوس، باستثناء راتبىّ، إلى [المكتب الرئيس لـ] البنك في هيراكليوبوليس. وإذا كانت هناك أية أذونات بأية نفقات في مكان العمل، سأقوم بتسليم سجل بكافة المبالغ، واردة أو منصرفة، وإيصالات بكل المبالغ التى أنفقتها. وإذا اتضح أننى مدين بأىّ شئ [في نهاية] مدة خدمتى، فعلى أن أسلمه إلى البنك المركزىّ في غضون خمسة أيام، وإلا أمكن تحصيل الدين منىّ ومن ممتلكاتى. كذلك لن أتصرف في أىّ من أملاكى بالبيع، وإلا أصبحت هذه الوثيقة [قرينة] ضدى، وسأكون تحت تصرف كليتارخوس وممثليه، بعيداً عن الساحة المقدسة والمذابح وحرم المعبد وأية حماية [أخرى]. وإذا أوفيت بهذا اليمين فلتكن أمورى على ما يرام، وإذا حنثت فيه فلتحل على اللعنة.[٤]

ولننظر الآن إلى بعض الوثائق التى تعطينا فكرة عن نشاط البنوك، بادئين ببعض أوراق نيكانور الذي كان يقيم في عاصمة إقليم أوكسيرينخوس. إن ستة فقط من بين الثلاث عشرة وثيقة التى وصلت إلينا من ملفاته سليمة أو محفوظة بشكل يتيح لنا الحصول على معلومات واضحة ومتكاملة. معظم هذه الوثائق، كما رأينا، تشير إلى أموال حكومية مودعة في ذلك البنك، ويحمل أقدمها تاريخاً يقابل أول مايو عام ٢٤٦ ق.م.، وهى إيصال مكتوب من نسختين عن رواتب مدفوعة من أموال الضرائب المودعة. أما الوثيقة الأخرى فترجع إلى اليوم الموافق للعشرين من أبريل عام ٢٤٥ ق.م.، وهى إذن صرف رسمىّ يسمح بدفع بعض الأموال بالكيفية ذاتها. وفى الحقيقة، فإن الوثائق ذاتها تفصح إلى حد كبير عن طبيعتها:[٥]

[التاريخ] تلقى ديمتريوس (Demitrios)، طبيب، من نيكانور، صاحب البنك الموجود في أوكسيرينخوس، من [أموال] حساب الأطباء، من القيمة التى ما تزال مستحقة للأطباء المحليين عن العام التاسع والثلاثين، أجر الأطباء لشهر كيهك من العام التاسع والثلاثين [يناير-فبراير، ٢٤٦ ق.م.]، ومقداره ثمانون دراخمه، تسلمتها بالكامل من صاحب البنك.

من أبوللودوتوس (Apollodotos) [ربما كان رئيس شرطة الإقليم] إلى نيكانور، بعد التحية. ادفع إلى ثيوفيلوس (Theophilos)، الحارس المكلف من قبلى بحراسة البنك، من عوائد ضريبة الشرطة عن العام التاسع والثلاثين من أموال الرواتب

المستحقة لرؤساء الشرطة، الرواتب المستحقة عن شهور كيهك وطوبة وأمشير من العام الثانى [يناير-أبريل، ٢٤٥ ق.م.]، ومقدارها عن ثلاثة شهور[؟] دراخمه نحاسية، واجعله يوقع على إيصال بذلك. [التاريخ].

يمكن كذلك ملاحظة بعض الأنشطة ذات الصلة بالأعمال الإدارية والحكومية، كما في الوثائق التالية:

[التاريخ: الثامن من فبراير عام ٢٤١ ق.م.] من مينودوروس (Menodoros) [محصل الضرائب] إلى نيكانور، بعد التحية. من فضلك اكتب إذناً باسمى إلى العاملين بالبنوك في المناطق المحلية لإعطائى قائمة بدافعى الضرائب والمبالغ المستحقة علىّ، حتى يمكننى استخدامها في موازنة حساباتى. إنهم يصرون على تجاهلى حتى الآن، وأنت نفسك لم تسلمنى القائمة، مع أننى كتبت عدة مرات. ولهذا فإنني أكرر الطلب الآن مرة أخرى بأن تكتب الإذن على الفور. لقد أحدث الفرسان شغباً كبيراً وذكروا اسمى أمام أمّونيوس (Ammonios)، المسؤول المالىّ للإقليم، ولكن ليس باستطاعتى أن أعطيهم رواتبهم حتى أتلقى منك، أو من العاملين بالبنوك في المناطق المحلية، حسابات المبالغ التى دُفعت من قبل، والسلام.

من ديودوروس إلى باسيكراتيس (Pasikratēs)، بعد التحية. لقد تسلمت منك للخزانة، من أجل حساب مشتروات القمح في إقليم هيرموبوليس (Hermopolis)، المبلغ المدفوع إلىّ بواسطة نيكانور، صاحب البنك الموجود في أوكسيرينخوس، طبقاً للخطاب الذي أرسلته إليه.... خمسة عشر تالينتاً نحاسياً (فقط: ١٥ تالينتاً). والسلام. [التاريخ: الحادى والعشرون من يناير عام ٢٤١ ق.م.]

من أمونيوس [المسؤول المالىّ لإقليم أوكسيرينخوس] إلى نيكانور، بعد التحية. يقول بروتارخوس (Protarchos) إنك لن تسمح بأية لفائف بردى [لمكتبى] إلا بعد أن أكتب إليك [بوصفى المسؤول]؛ لكى تتمكن من تسليمها إليه. أود أن تعرف أن .... وسلم [إلى موظفى تيليستيس (Telestēs)] عشر لفائف من النوع الممتاز، وحصل الثمن ....، والسلام. [التاريخ: الحادى والثلاثون من يناير عام ٢٤١ ق.م.]

وبعد ستة عشر يوماً أرسل أمونيوس إلى نيكانور، أمراً إياه "أن تُعطى موظفى تيليستيس، لأجل مكتبى، خمس عشرة لفافة بردى."

تزودنا هذه الخطابات المرسلة من أمونيوس ببعض المعلومات القيمة والجديدة، عن التعاملات في الإدارة الحكومية. لقد كانت البنوك، مثل غيرها من المكاتب التى تتعامل مع السجلات والحسابات، تستخدم كميات كبيرة من مستلزمات الكتابة. وطبقاً لوثائق عام ٢٥٨/٢٥٧ ق.م.، استخدم الموظفون

العاملون بسجلات الوزير أبوللونيوس في أثناء إحدى جولاته التفتيشية ما يقرب من عشر لفافات، أو ربما عشرين لفافة بردى يومياً. وعلى الرغم من أنه لا توجد لدينا إحصاءات مشابهة عن احتياجات مكتب أمونيوس أو مكتب نيكانور، فإنه يمكننا بسهولة أن نفترض، على أساس الإيصالات التى كان عليه إصدارها والسجلات التى يحتفظ بها والمراسلات التى يقوم بها، أنه كان يحتفظ بدون شك بمخزن ممتلئ بلفافات البردى الجاهزة للكتابة. إننا نعرف أيضاً أنه كان يحصل على ما يحتاجه من ذلك المخزن، بل وكان يعطى منه أيضاً موظفى الإدارة، من أمثال أمونيوس، الذين كانوا يلجأون إليه في بعض الأحيان.[٦] وتوضح العوائد الضريبية التى كانت تَرد باستمرار إلى البنوك، وكذلك المدفوعات الصادرة ذات الأشكال المتعددة، مثل التى سبقت الإشارة إليها، أن خدمات نيكانور للإدارة الحاكمة ربما كانت تشكل معظم ما يقوم به من نشاط. وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الأمر لا يعنى أنه لم يكن لديه عملاء من الأفراد العاديين المقيمين في عاصمة الإقليم الذين يسهل البنك أمر تعاملاتهم. وفيما يلى إذن صرف خاص يتعلق بأحد هذه الحسابات الخاصة:

> من أمونيوس إلى نيكانور، بعد التحية. ادفع من حسابى إلى أبوللونيوس، ممثل أنتيوخوس، ثمن عجلين، خمسمائة وأربعين دراخمه نحاسية، والسلام. [التاريخ: التاسع من فبراير عام ٢٤١ ق.م.، وهناك إشارة إضافية ربما من نيكانور إلى مساعده:] ادفع ٥٤٠ دراخمه نحاسية.

بعد هذه الخلفية التى حددنا معالمها عن نشاط البنوك، ننتقل الآن إلى دراسة الكيفية التى احتفظ بها نيكانور بسجلاته، وإلى محتويات بعضها. حقيقة إنه لم تصلنا، مع الأسف، أية سجلات لنيكانور؛ إلا أننا عثرنا، في الوقت ذاته، في أوراق زينون الذي كان معاصراً له على بعض السجلات التى يحتفظ بها ويخصصها للمدفوعات والواردات. ويمكننا من خلال هذه الوثائق وغيرها أن نرى أن العاملين في البنوك كانوا يزودون عملاءهم من الأفراد العاديين بخدمات متعددة تتشابه مع الخدمات التى يؤدونها للمكاتب والإدارات الحكومية.[٧]

وأول مثال نسوقه لبيان ذلك هو إيصال إيداع يرجع إلى عام ٢٥٦

ق.م.، ويتضح فيه أن تحويل الذهب إلى فضة كان يستلزم إضافة ٤% من قيمة المبلغ:

فئة الدراخمه	عدد القطع	عمولة التحويل	المجموع
١٠٠	١٥	٦٠	١ر٥٦٠
٥٠	٤ر٦٠٠ (*)	١٨٤	٤ر٧٨٤
٦٠	٨٥	٤ر٥٦٦	٥ر٦٦٦⅔
المجموع تالينتان وعشر دراخمات وأربع أوبولات، أيّ: ⅔ ١٢ر١٠ ، ومن هذا المبلغ سحبنا عشر دراخمات وأربع أوبولات، تاركين إجمالياً قدره تالينتان			

[(*) يشير هذا الرقم إلى مجموع المبلغ وليس إلى فئة قطعة العملة: المترجم]

لا حاجة بنا إلى القول إن زينون كان يحتفظ أيضاً بسجلات للنفقات لا تقل دقة واهتماماً بالتفصيلات عن سجلات نيكانور. وتعطينا بردية موجودة الآن في متحف ويسكونسن (Wisconsin) مثالاً بسيطاً، من بين أمثلة عديدة، لهذه الدقة: إنها تسجل كافة المبالغ التى دفعها أرتيميدوروس، مدير البنك المحليّ، طوال خمسة شهور إلى عشرين عاملاً استأجرهم زينون لأداء بعض الأعمال الزراعية المختلفة، مثل حرق الأعشاب وحفر الخنادق والفلاحة وغيرها. وكان الواحد من هؤلاء العمال غير الحرفيين يحصل على أوبول أو ثلاثة أرباع الأوبول يومياً. أما الغلمان الذين يساعدونهم فكان الواحد منهم يحصل على نصف أوبول فقط. وقد بلغ مجموع أجور هؤلاء العمال في هذه الوثيقة في أحد الأيام ستاً وثلاثين دراخمه وأربعة أوبولات، بينما بلغ في يوم آخر ست عشرة دراخمه وأوبول ونصف، وتراوحت بقية الأيام بين هذين الرقمين. في ذلك الوقت كان العامل الحرفيّ يحصل على ما يقرب من دراخمه، أيّ ستة أوبولات، يومياً.

وبطبيعة الحال لم يكن العاملون في البنوك يسمحون بخروج أية مبالغ من أىّ حساب إلا بعد الحصول على إذن كتابىّ من صاحبه. وفيما يلى مثال آخر لإذن دفع تقليدىّ يليه خطاب يوضح أن تنفيذ هذه الأذونات في الحسابات الشخصية قد يتم تأجيله بسبب الأولوية التى تتمتع بها الحسابات الملكية في البنك نفسه:

> من زينون إلى أرتيميدوروس، بعد التحية. ادفع إلى الموظف ديودوروس أجره عن [شهر] برمهات، ومقداره خمس عشرة دراخمه نحاسية، والسلام. [التاريخ غير محدد].

> من أمّونيوس إلى زينون، بعد التحية. رداً على [طلبك] سحب مبلغ ألفىّ دراخمه فضية، فإننا أعطينا ممثلك ثيودوروس ألف دراخمه فضية ونحاسية. وسوف يوضح لك ياتروكليس (Iatrokles) وثيودوروس (Theodōros) كيف أننا كنا ننوى إرسال المبلغ بالكامل، ولكننا لم نتمكن لأن الجنود أتوا يطلبون [نقوداً للـ] تعيينات والإمدادات. ولهذا نرجو أن تتكرم بالتغاضى عن التأخير، والسلام. [التاريخ: الثانى من أبريل عام ٢٥٧ ق.م.]

وقد كان لزينون أيضاً حساب خاص في بنك في منف التى تبعد حوالىَ ستين كيلومتراً عن فيلاديلفيا. وقد قام عامل هذا البنك بإرسال أول الخطابات التالية، بينما يظهر زينون ذاته في الوثيقة الأخرى ضامناً لقرض حصل عليه أخوه:

> من بوسيدونيوس إلى زينون، بعد التحية. لقد أعطيت موظفك بيرون (Pyrōn)، حسبما كتبت لى، آخر بيان لحسابك الخاص، وأوضحت له المبالغ التى كان بها خطأ تسبب عنه نوع من التناقض. لقد اضطر إلى البقاء هنا بضعة أيام؛ لأننى كنت مشغولاً، والسلام. [التاريخ: الثالث عشر من يونيو عام ٢٥٢ ق.م.]

> بيثون (Pythōn)، صاحب بنك [أضاف] إلى [حساب] إيفارموستوس (Epharmostos) بن أجريوفون (Agreophōn) قرضاً مقابل رهن مزرعة كروم في فيلاديلفيا، في المنطقة الرملية، وبضمان زينون بن أجريوفون، وقيمة الرهن عليها مسجلة لصالح ديفيلوس (Diphilos) بن كونون (Konōn)، ثلاثة آلاف وسبعمائة دراخمه نحاسية. [بدون تاريخ، وهى بلا شك نسخة من أصل].

وكان لزينون حسابات في بنوك في مدن أبعد حتى من مدينة منف. إن بنك بيثون، الذي ترجع إليه آخر وثيقة اقتبسناها، كان يوجد في مدينة أتريبيس

(Athribis) في الدلتا، وكان يوجد فيها أيضاً أمونيوس كاتب الخطاب الذي يسبقها والذى يعتذر فيه عن التأخير في الدفع. أما بروميثيون (Promēthiōn)، الذي سنتعرف عليه بعد قليل، فكان يقيم في بُلدة منديس (Mendis) التى تقع إلى الشمال، بالقرب من البحر المتوسط. وبالإضافة إلى مهام الصرف والإيداع البسيطة التى تقوم بها البنوك، كان زينون يعتمد عليها جميعاً، أو على أىّ منها، في مساعدته في إنجاز تعاملاته التجارية في الأسواق المحلية القريبة من هذه البنوك. إن أول خطاب في مجموعة الخطابات التى سنقتبسها الآن كتبه رجل يعمل تاجراً متنقلاً عند زينون، بينما يصور الخطابان التاليان بعض الخدمات التى كان بروميثيون على استعداد للقيام بها من أجل عميله الكبير. وتشتمل هذه العمليات، من بين أمور عدة، على الحصول على لفافات البردى، أىّ ورق الكتابة الذي كان من المنتجات المهمة في منطقة الدلتا:

من مولوسّوس (Molossos) إلى زينون، بعد التحية. بعد أن كتبت إليك خطابى الأول، الذي أرسلته إليك مع رجلى هوروس، وصل ثيوجينيس (Theogenēs) إلى منديس في الثالث والعشرين ومعه ثلاث لفافات كتان مختومة أرسلتها أنت معه [بوصفها عينات]. هذه اللفافات تباع هنا بـــ... ويقول أصحاب المتاجر الذين سألناهم أن باستطاعتهم بيع عشرة آلاف وحدة. ولهذا أرسل رجلاً على وجه السرعة ليرتب أمر التعاقد، إذا كان السعر مربحاً بالنسبة لك، ومُرْه أن يبيع لهم بالقدر الذي يحقق أكبر ربح بالنسبة لك. أيضاً اكتب إلى صاحب البنك بروميثيون؛ لكى يساعد في إنجاز الموضوع، لأن المنطقة تقع في دائرته. وبشأن أوراق البردى فقد كتبت لك أن ... وعندما قابلت كريتون (Kritōn) في الدلتا طلبت منه أيضاً أن يخبرك. وبعد أن يصلك هذا الخطاب أرسل إلىّ بما يجب عمله، وسوف أقوم بتنفيذه. أيضاً اكتب إلىّ عن نفسك، وعن أنك بصحة طيبة، والسلام. [التاريخ مفقود].

من سوسوس (Sōsos) إلى زينون، بعد التحية. لقد أبحرت شمالاً إلى منديس، وسلمت خطابك وخطاب ياتروكليس إلى ديونيسيوس (Dionysios) وبروميثيون. وقد تصادف كذلك، لحسن الحظ، وجود أبوللونيوس محصل الضرائب هناك، مما أعطى ديونيسيوس ذلك العذر [في التأخير]. ونظراً لأننى مكثت هناك عشرة أيام فإن بروميثيون، بما له من أخلاق حميدة، بعد أن رآنى أقضى هذه الأيام هناك، أعطانى خطاباً لديودوتوس (Diodōtos) في الإسكندرية، ليعطينى ألفى دراخمه نحاسية، وأخبرنى أنه أعطى ليمنايوس (Limnaios) ألفاً ومائتى دراخمه. وهكذا فإننا على شفا أن نحصل الآن على [كامل] نقودنا، والسلام. [التاريخ: الثالث والعشرون من يناير عام ٢٥٠ ق.م.]

من بروميثيون إلى زينون، بعد التحية. لقد ساءنى ما سمعته عن سوء حالتك الصحية، الذي استمر بعض الوقت، وإن أصبحت الآن سعيداً لأننى سمعت أنك أحسن حالا الآن، وباستطاعتك العودة إلى العمل. إننى أيضا بخير. لقد أعطيت عميلك هيراكليديس (Herakleidēs)، كما كتبت إلىّ، مائة وخمسين دراخمه فضية من حسابك، وسوف يحضر إليك عشرة مكاييل من الصمغ في إحدى وعشرين جرة من الألباستر مختومة بخاتمى الخاص. لقد كتب إلىّ أبوللونيوس [وزير المالية الذي يعمل عنده زينون] طالباً أن أشترى أكاليلاً من أوراق الرمان وأن أرسلها إليه أيضاً، إلا أننا لم نتمكن من إعطائها له؛ لأنها لم تكن جاهزة. ولكنها سوف تكون كذلك في الغدّ، وسوف نسلمها إليه في نقراطيس. لقد دفعت ثمن هذه الأكاليل والصمغ من حسابك، كما كتب إلىّ أبوللونيوس. كذلك دفعت عشر دراخمات نحاسية عمولة [نقل الشحنة بواسطة] القارب المبحر أعلى النهر [تجاهك، إلى الجنوب]. كذلك دفعت مبلغ أربعمائة دراخمة فضية إلى پاتروكليس من أجل لفافات البردى التى تجهز في تانيس لأجل أبوللونيوس. أرجو أن تعرف أن الأمور تسير بهذه الكيفية. من فضلك اكتب إلىّ إذا احتجت شيئاً آخر، والسلام. [التاريخ: العشرون من فبراير عام ٢٥٦ ق.م.]

لقد كنا نود أن نعرف شيئاً عن الحياة الشخصية للعاملين بالبنوك، وعن وضعهم الاجتماعىّ في مصر البطلمية، إلا أن الوثائق التى وصلت إلينا صامتة صمتاً مطبقاً عن هذه الموضوعات، كما أن ما يختص من هذه الوثائق بالبنوك وأعمالها يغلب عليه طابع التعاملات التجارية. إن ما يمكننا عمله هو أن نستخلص أن المرء الذي يتعامل في مبالغ كبيرة من الأموال العامة والخاصة لن يكون هو نفسه فقيراً، أو لن يظل كذلك لوقت طويل.

الحواشي:

(١) J. Bingen, *Proc. Twelfth International Congr. Papyrology* [*Amer. Stud. in Papyrology,* 7, 1970], 36-37, 40 وفيما يتعلق بالسلاح الذي يستخدمه المصريون في الإضراب، راجع الفصل الثانى، الحاشية رقم ٦

(٢) البنك الخاص مذكور في: *P. Oxy.* 1639 التى ترجع إلى عام ٧٣ أو ٤٤ ق.م.

(٣) إن الدراسة التى أجريت عام ١٩٨١م هى: R. Bogaert, *L'antiquite classique,* 50, 1981, 86-99 وتوجد فيها إشارات إلى الدراسات السابقة في هذا الموضوع.

(٤) انظر: *P. Grad.* 4 وعن الإلهين الأخوين، راجع الفصل الأول، الحاشية رقم ٢، أما الإلهان الخيران فهما بطلميوس الثالث يورجيتيس وزوجته بيرينيككى. وعن الفرار إلى المعابد راجع الفصل الثانى، الحاشية رقم ٦

(٥) البرديات المقتبسة هى على الترتيب: *P. Hamb.* 171, 172, 169, 170, 177, 176, 173

(٦) إن السجلات المتضمنة لفافات البردى التى استخدمها موظفو أبوللونيوس توجد في: *P. Cairo-Zenon* 59687; *P. Col. Zenon* 4

(٧) إن الوثائق التى اقتبسناها من أرشيف زينون من هنا حتى نهاية الفصل هى على الترتيب: *P. Cairo-Zenon* 59022; *P. Wis.* 77 = *SB* 6797; *P. Co. Zenon* 45; *P. Lond.* 1938; *P. Cairo-Zenon* 59253, 59504, 59470; *PSI* 363, 333

الفصل الرابع

الاستراتيجوس ديوفانيس

الزمان: المدة من حوالىّ عام ٢٢٢ قبل الميلاد إلى عام ٢١٨ قبل الميلاد.

المكان: إقليم أرسينوى في الفيوم (انظر: خريطة رقم ٢).

الوثائق: ما يقرب من ١٢٥ بردية يونانية، أربع منها موجودة في المكتبة البريطانية في لندن. أما باقى الوثائق فموزعة بين متحف القاهرة وجامعات ليل (Lille) وباريس: السوربون (Sorbonne). لقد سبقت الإشارة إلى التماسين من هذا الأرشيف في الفصل الأول، الحاشيتين رقم ٩، ١٤. وقد عُثر على كافة هذه البرديات في صندوق إحدى المومياوات، الذي تبين بعد فصل أجزائه أنه مصنوع من وثائق بردية كانت تخص مكتب شخص يدعى ديوفانيس (Diophanēs). كذلك تدلنا الوثائق على أن الرجل كان حاكماً لإقليم أرسينوى بين أعوام ٢٢٢ و ٢١٨ ق.م.، وربما استمر أكثر من ذلك، إلا أن هذه هى الأعوام التى ترجع إليها أوراق البردى التى وصلت إلينا. ويمكن كذلك ملاحظة أن ٨٨ بردية على الأقل، أو ما يزيد عن ثلثى المجموعة المتبقية، قد قدمت إلى مكتبه في الخمسة أيام الموافقة ٢٨ يناير عام ٢٢٢ ق.م. (١١ بردية)، و ٢٦ و ٢٧ فبراير عام ٢٢١ (٤١ بردية)، و ١٣ يناير عام ٢١٨ (١٧ بردية)، و ١١ مايو عام ٢١٨ (٩ برديات). ولا شك في أن بعض الوثائق التى فقد منها التاريخ بسبب حالتها المهترئة يرجع أيضاً إلى أىّ من هذه المجموعات.

- إننا نعرف أسماء حوالىّ مائتى استراتيجوس، أو حاكم إقليم، في مصر البطلمية من خلال أوراق البردى، إلا أن ديوفانيس هو أفضل من تتوفر لدينا معلومات عنه. إن عدد الوثائق الموجهة إليه، أو التى تذكره بوصفه حاكماً للإقليم وشخصية مسؤولة، تفوق كافة الوثائق التى وصلت إلينا من غيره من حكام الأقاليم في ذلك العصر.

إن كلمة استراتيجوس (*stratēgos*) اليونانية تعنى حرفياً "قائد مجموعة من الجنود." وعندما قضى الإسكندر الأكبر على الإمبراطورية الفارسية

استعاض عن الحكام الفارسيين، الذين كان الواحد منهم يعرف باسم ساتراب (*Satrap*)، بهؤلاء القادة أو الاستراتيجوى. بعد ذلك بدأ حكام المدن والأقاليم في ممالك العصر الهللينستىّ (المتأغرق) الموجودة في شرق البحر المتوسط يحملون بشكل تقليدىّ لقب استراتيجوس.

إن معظم المعلومات التى وصلت إلينا عن هذا الموضوع، بل في الحقيقة الأعم الأغلب منها، وصلت إلينا أيضاً من مصر التى كانت تنقسم إلى أربعين قسماً إدارياً على عهد قدماء المصريين. وبينما حافظ البطالمة على الجوانب الأساسية للنظام القديم، فإنهم أسموا الوحدات الإدارية، التى ربما قل عددها قليلاً عن ذلك، نوموى *nomoi*، وهو اسم مأخوذ من فعل يونانىّ بمعنى "يوزع" أو "يقسم". هذه النوموى [أو: النومات، كما جرى العرف على تسميتها بالعربية: المترجم] وصفها أحد الدارسين قائلاً بحق "إنها تمد سكانها بالمعالم المحددة لحياتهم، فلم تكن النومات مجرد وحدات إدارية في الإدارة الإقليمية فقط، بل كانت أيضاً مجتمعات دينية."[١] لقد كانت الديانة في كل نوموس تتركز حول عبادة إله حام للإقليم، له صفة حيوانية، مثل أبو منجل أو التمساح أو غيرهما، وكان يحكم كل إقليم استراتيجوس يعينه الملك ويظل في منصبه طالما كان الملك راضياً عنه. كذلك كان الاستراتيجوس يرأس الإدارة المدنية في الإقليم، ويقود القوات العسكرية، بما فيها الكليروخوى الموجودين في إقليمه، من أجل ضمان الاستقرار والهدوء التام.

ويدلنا اسم ديوفانيس على أن أجداده كانوا يونانيين أو مقدونيين، وهو الأمر الذي يبين لنا سياسة البطالمة الأوائل في اجتيار موظفى المناصب العليا، حيث إنه لم يظهر رجال يحملونْ أسماء مصرية في منصب حكام الأقاليم حتى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد. وعلى الرغم من ذلك فإن أوراق البردى التى وصلت إلينا لا تخبرنا أكثر من ذلك عن حياة ديوفانيس السابقة، ولا عن نشاطه بوصفه قائداً عسكريا. ويرجع السبب في ذلك إلى أن وثائق الأرشيف كلها سلمت إلى مكتبه بواسطة أفراد يطلبون الإنصاف والمعونة في أمور وصراعات شخصية؛ والنتيجة أننا نقابل ديوفانيس فقط بصفته الإدارية غير

العسكرية، وهو يمارس سلطاته الإدارية والقضائية والبوليسية. ومع ذلك فإن الشكاوى التى نجدها في أرشيفه تتيح لنا، بما تتصف به من تعدد وتنوع، الحصول على مشاهد متعددة من الحياة الصاخبة في قرى الإقليم وعاصمته. لقد وصلت إلينا حوالى اثنتا عشرة بدرية من وثائق الأرشيف مهترئة تماماً، بحيث لا تتيح لنا فرصة التحقق من محتوياتها ومن طبيعتها. أما البقية فإن معظمها شكاوى يطلب أصحابها استعادة أموالهم أو ممتلكاتهم، وربما اشتملت عشرون بردية على الأكثر على طلب من مقدمى الالتماسات توقيع عقوبات جنائية على خصومهم.

لقد كانت طلبات التعويض توجه عادة من الناحية الإجرائية *pro forma* إلى الملك الذي كان يحمل ضمن ألقابه الرسمية العديدة ما يدل على أنه حامى الرعية وواهب الخيرات والمتصرف في أمور العدالة. أما من الناحية الفعلية فإن هذه الطلبات كانت تسلم إلى مكتب حاكم الإقليم، ولم تكن تتعداه إلى من فوقه في السلم الوظيفىّ، بل كان يفصل فيها في مكتب الحاكم ذاته. وربما حفظ أحد الالتماسات، في أحيان نادرة، لكى ينظر فيه الاستراتيجوس نفسه، ولكن غالبيتها كانت تطبق عليها الإجراءات التالية التى نتعرف عليها من المصادر. لقد كان الاستراتيجوس يستمع إلى أحد موظفيه وهو يتلو عليه نص الشكوى أو الالتماس، وعندئذ كان يصدر أمراً موجزاً يكتبه الموظف في نهاية العريضة. ولا يمكننا سوى أن نتساءل عمّا إذا كان الأمر قد وصل بالموظف أن يكتب الأوامر بنفسه في بعض المسائل الروتينية، دون الرجوع إلى حاكم الإقليم. وبينما لا يوجد دليل قاطع يؤيد هذا الافتراض أو ينفيه، فإن الوثائق تميل إلى جعله غير صحيح.

لقد كان الالتماس يحفظ في سجلات مكتب حاكم الإقليم بمجرد نظره (أو نظر مكتبه) فيه، وكان صاحب الالتماس يحصل على نسخة منه عليها تعليمات لتسليمها إلى الموظف الموجهة إليه الأوامر، وهو في هذه الحالة عادة ما يكون قائد الشرطة في القرية التى يقيم فيها المتهم أو المدّعَى عليه. ولا نعرف على وجه التأكيد ما إذا كانت النسخة تُعَدّ في مكتب حاكم الإقليم، أو أن

مقدم الالتماس كان يُسلمها مع الأصل. وربما كان أمام الأخير أحد خيارين: إما أن يسلم أصلاً ونسخة، أو أن يدفع رسماً مقابل النسخة التى يُعدها موظف مكتب حاكم الإقليم. وعلى أية حال فإن البرديات التى وصلت إلينا من أرشيف ديوفانيس هى النسخ التى احتفظ بها مكتبه، والتى تخلص منها بعد أن زالت الحاجة إليها، وحصل عليها بعد ذلك أحد صانعى الأكفان ليستخدمها في عمل صناديق الموتى.

إن أسلوب معالجة ديوفانيس للشكاوى والالتماسات المقدمة إليه يدل على أنه كان يميل إلى ممارسة دور المُصلِح، وليس المُقَوّم أو مُوَقّع العقوبات، سواءً أكانت هذه هى السياسة العامة أم ميل شخصىّ من جانبه، أم هى مزيج منهما معاً. إن التعليق الرئيس الذي يغلب على أوامره المسجلة في نهاية الالتماسات هو: لا تلجأوا إلى القضاء، وحاولوا إنهاء الموضوع. وكان ديوفانيس عادة ما يأمر قائد الشرطة بتهدئة الأطراف والإصلاح بينهم بقدر الإمكان. وكان هذا التوجيه، خاصة وأنه صادر عن أعلى مسؤول معين بواسطة الملك ذاته في الإقليم، كفيلاً في حالات كثيرة بأن يدفع الأطراف إلى حل مشكلاتهم "بعيداً عن ساحات القضاء." أما في الحالات التى لا تنجح فيها هذه الوسيلة، فإن ديوفانيس كان يُضطر إلى الفصل في الموضوع بنفسه أو إلى إحالته إلى الجهة القضائية المختصة.

لقد استخدم ديوفانيس في تعليماته إلى الشرطة المحلية ما يقرب من اثنتى عشرة صيغة، أكثرها شيوعاً هى العبارات التالية:

١. "أصلح بينهم بقدر الإمكان، أما إذا لم يتيسر ذلك فأرسله [أو أرسلها، أو أرسلهم] إلىّ حتى أنظر في الموضوع [أو حتى يتحاكموا أمام الجهة المختصة]." هذه هى التعليمات الأكثر شيوعاً، وقد تكررت على الأقل أربعين مرة، أىّ في حوالىّ ثلث البرديات. وفى إحدى الحالات التى اتهم فيها أحد المصريين العاملين في حمام بحرق سيدة يونانية بالماء الساخن، نجد هذه الصيغة مختصرة وجافة: "أرسل بهم إلىّ."[٢]

٢. "انظر في الموضوع، واحرص على أن يحصلوا على حقوقهم." وهذه

الصيغة استخدمها ديوفانيس في حالة بعض الأمور البسيطة التى شعر أنه يمكن تركها لرئيس الشرطة المحلىّ للتصرف فيها. وبطبيعة الحال فقد كان بوسع الأخير، إذا ما واجه مشكلة ما، أن يحيل الأمر ثانية إلى حاكم الإقليم.

٣. "راجع القوانين واجعلهم يؤدون ما هو واجب، أما إذا اعترضوا فابعث بهم إلىّ.

٤. "وافنى بمعلومات إضافية عن هذا الموضوع."

كانت هذه العبارات تقليدية ومألوفة للغاية، إلى حد أن الموظفين الذين كانوا يَمَلّون من رتابتها يتجهون إلى اختصارها في أثناء الكتابة، على الأقل في النسخ التى يحتفظون بها في سجلاتهم. وفى بعض الأحيان كان هؤلاء الموظفون يميلون إلى التقليل، على الأقل من وجهة نظرنا، من الاختصارات ذاتها. لقد فضلوا عادة الكتابة برموز بسيطة تكاد تقتصر على الحروف الأولى للكلمات، وعلى علامة أو أكثر لبيان بعض الكلمات، بالكيفية التى يوقع بها الآن كثير من الناس أسماءهم. وفى بعض الأحيان نجد أنه من الصعب علينا أن نتأكد من تفسير مجموعة رموز أو خطوط أو علامات، على الرغم من معرفتنا بمعنى ودلالة كل منها، بسبب تداخلها وازدحام الوثائق بها.

إن المؤرخ الاجتماعىّ الذي يقرأ وثائق وسجلات ديوفاينس سرعان ما يدرك أن غالبية الالتماسات المقدمة إلى حاكم الإقليم تدور حول نزاعات بين يونانيين ومصريين. هذا هو الوضع الذي نقابله في خمس وعشرين بردية تمثل خُمس ذلك الأرشيف. وفى ثمان عشرة بردية من هذه الخمس والعشرين، أىّ حوالىّ ٧٢% منها، نجد أن الشاكى من أصل يونانىّ، وفى السبع الأخرى نجده من أصل مصرىّ. وكانت هذه الالتماسات تدور في الغالب حول ضرر حاق بالممتلكات، أو نزاع حول أماكن الإقامة، أو التأخير في تسليم منتجات مدفوع أجرها، أو التأخير في تسديد قروض، وكذلك حول حوادث ضرب واعتداء على آخرين. وهذا النوع الأخير من الشكاوى، الذي نجده في عشر من الوثائق يعطى فكرة عن العداوة المتبادلة والسائدة بين فئتى السكان عندئذ.

هذه العداوة كانت ترجع إلى احتقار اليونانيين لأهل البلاد وإلى استياء المصريين للمعاملة السيئة من قبل حكامهم، وكانت تتقد باستمرار وتتضح في تعاملاتهم اليومية، بل وتتحول إلى العنف عند أىّ بادرة استفزاز. وبينما نجد في ثلاث من العشر برديات التى تشير إلى حوادث اعتداء بالضرب أن يونانيين متهمين بضرب يونانيين، فإن بردية واحدة تشير إلى سيدة مصرية تتهم مصرية مثلها، وفى خامسة نجد مصرياً يتهم يونانياً، أما الخمس وثائق الباقية فتشير إلى يونانيين يشتكون مصريين. والأمثلة التالية هى لبعض الحالات التقليدية التى نقابلها في السجلات:

إلى الملك بطلميوس، بعد التحية. من باسيس (Pasis) المزارع [المصرىّ] في قرية بوليديوكيا (Polydeukia). لقد أساء إلى جيروروس (Geroros) وهو [يونانىّ] يمتلك سبعين أروره. إننى أمتلك منزلاً في القرية، وقد أخرجنى [جيروروس] من هذا المنزل بالقوة، مع حيواناتى التى أصبحت الآن بلا مأوى، على الرغم من أنه قد حصل على مكان للإقامة في القرية. وإننى لذلك أطلب منك، أيها الملك، أن تأمر حاكم الإقليم ديوفانيس بالكتابة إلى سوسيبيوس (Sosibios) قائد الشرطة؛ لكى يأمر باستدعاء الرجل. وإذا كان ما ذكرته صحيحاً [فأرجو] ألا يُسمح له أن يلقينى خارج منزلى، حتى أتمكن من مباشرة زراعتى، وبفضلك، أيها الملك، يا مغيث الجميع، أحصل على حقوقى، والسلام.

[من ديوفانيس] إلى سوسيبيوس: أصلح بينهم بقدر الإمكان، وإذا لم يتيسر ذلك أرسلهم للتقاضى أمام المحكمة [اليونانية المصرية] المختلطة. [التاريخ: السادس والعشرون من فبراير عام ٢٢١ ق.م.]

إلى الملك بطلميوس، بعد التحية. من تيتوزيريس (Tetosiris) [سيدة مصرية]. إن عندى قضية منظورة الآن... ضد أبوللودوروس [يونانىّ] بشأن منزل كائن في بيرينيكى ثيسموفورو (Thesmophorou). ونظراً لأننى أحتاج شهوداً للقضية فقد حصلت من موظف المحكمة على خطاب موجه إلى قائد الشرطة هيراكليودوروس للحصول على شهادات كتابية مشفوعة بقسم من الشهود الذين سأحضرهم إليه. إلا أن أبوللودوروس ومعه عصابة [؟] تهجم على الشهود وأرعبهم، قائلاً إنه سوف يضربهم ويضربنى حتى الموت، وأنه سوف يدفعنا إلى ترك القرية. كذلك فقد تحرش بـــ: بيو... [يونانىّ] الذي يمتلك مائة أروره، لأنه كان سيشهد معى، وقال إنه سوف يعتدى عليه أيضاً، مما جعل الأخير يتراجع عن شهادته. ولأن الشهود الآخرين جميعهم مصريون فقد شعروا بالخوف وتراجعوا عن شهاداتهم. إننى أرجوك، أيها الملك، ألا تسمح بتأخير العدالة أكثر من ذلك... وأن تأمر ديوفانيس حاكم الإقليم أن يكتب إلى

هيراكليودوروس (Herakleodōros) لكى يرسل إلى ديوفانيس أولئك الذين أذكرهم من بنائى المنزل، ومن مساعدى بنائين ونجارين وبنائين، حتى يستمع إلى شهاداتهم... وعندما يحدث ذلك، أيها الملك، سأشعر أنا الذي لجأت إليك، بوصفك صاحب الفضل على الجميع، بكرمك ومنك، والسلام.

إلى الملك بطلميوس، بعد التحية. من هيراكليديس (Herakleidēs) المنتمى إلى جزيرة أليكساندروس (Alexandros) والمقيم حالياً في كروكوديلوبوليس، في إقليم أرسينوى. لقد أساءت إلى بسينوباستيس (Psenobastis) المقيمة في بسيه في الإقليم المذكور. لقد ذهبت إلى بسيه (Psya) في الإقليم المذكور في مهمة خاصة في الحادى والعشرين من شهر برمهات في العام الخامس من التقويم المالىّ. وبينما كنت أمر أمام [منزل] سيدة مصرية يقال إن اسمها هو بسينوباستيس، أطلت هذه السيدة [من نافذة] وألقت بإناء من البول على ملابسى التى ابتلت بالكامل. وعندما وبختها بشدة سخرت منى وأهانتنى. وعندما رددت عليها بالكيفية نفسها مدت بسينوباستيس يدها اليمنى وجذبت ثنايا عباءتى التى أرتديها حتى أصبحت عارى الصدر. كذلك بصقت في وجهى في حضور بعض الأفراد الذين دعوتهم للشهادة. إن التهم التى أوجهها إليها هى: اللجوء إلى استخدام العنف ضدى، والبدء [في المشادة] باستخدام يدها ضدى بشكل غير قانونىّ. وعندما وبخها المارة لما فعلته، تركتنى وعادت إلى المنزل الذي صبت منه البول علىّ. لهذا فإننى أرجوك، أيها الملك، إذا شئت ألا تتغاضى عن هذه المعاملة السيئة التى لحقتنى بدون سبب على يد سيدة مصرية، بينما أنا يونانىّ يزور المكان، أن تأمر ديوفانيس حاكم الإقليم... أن يكتب إلى سوجينيس (Sōgenēs) قائد الشرطة لكى يرسل إليه بسينوباستيس ليسألها عن شكواى لكى تتحمل، متى ثبتت صحة الأمر، العقوبة التى يقررها حاكم الإقليم، والسلام.[٣]

كذلك كانت شكاوى السرقة وإلحاق الضرر بالممتلكات من الأمور الشائعة. وبالمقارنة بالشكاوى التى تشير إلى حوادث اعتداء وضرب فإن هذا النوع كان يصدر غالباً عن يونانيين ضد يونانيين، أو عن مصريين ضد مصريين. وهذه السمة الغالبة على شكاوى السرقة وإلحاق الضرر بالممتلكات لا تجعلنا في حقيقة الأمر نشعر بالدهشة. وعلى النقيض من ذلك، فإنها تصور بأمانة الدرجة التى مارست بها كل فئة سكانية شؤون حياتها اليومية، بقدر الإمكان، في حدود دائرتها الخاصة. ولكن نظراً لأن السكان كانوا يعيشون متجاورين، فإن بعض النزاعات من هذا النوع أيضاً كان يرتكبها بعض أفراد فئة ضد أفراد الفئة الأخرى، كما في الالتماس التالى المقدم من أحد اليونانيين ضد مصريَّيْن:

إلى الملك بطلميوس، تحية من إيدومينيوس (Idomeneus)، المزارع في ضيعة خرسيرموس (Chrysermos) من قرية كامينوى (Kaminoi). لقد ألحق بى الضرر بيتوباستيس (Petobastis) بن تاؤوس (Taōs) وهوروس (Hōros) بن كليئيسيس (kleēsis) من القرية نفسها. لقد استأجرت أرورتين في ضيعة خريسيرموس، وبعد أن زرعت الأرض وبعد أن أنبتت، أغرق بتيوباستيس وهوروس أرضى بالمياه وجرفوا البذور حتى أن النبتات قد فسدت جميعها، ولا أستطيع أن أستعيد ما أنفقت على الأرض. لذلك فإننى أرجوك، أيها الملك، إذا كانت هذه مشيئتك، أن تأمر ديوفانيس حاكم الإقليم أن يكتب إلي هيفايسيتيون (Hephaistion) قائد الشرطة، لكى يرسل بيتوباستيس وحوروس، المتهمين، إلى كروكوديلوبوليس حتى يحكم ديوفانيس في اتهامى لهما. وإذا ثبت أنهما أغرقا أرضى وجرفا حقلى المزروع، فإننى [ألتمس] أن يُجبرا على أخذ هذا الحقل وعلى دفع الإيجار وأن أحصل من الأرض التى يزرعانها على مساحة تساوى الجزء الذي أغرقاه. وإذا حدث ذلك فسيكون باستطاعتى أن ادفع الإيجار إلى خريسيرموس، أنا الذي لجأت إليك، أيها الملك، وسوف أشعر بفضلك وكرمك.

[من ديوفانيس] إلى هيفايستيون. أصلح بينهم بقدر الإمكان، وإلا فابعث بهم بعد [الرابع والعشرين] لكى تنظر الجهة القضائية المختصة في أمرهم. [التاريخ: الثالث عشر من يناير عام ٢١٨ ق.م.].[٤]

أما النوع التالى من الالتماسات فيعطينا أمثلة لحالات سرقة ولحالات بعض الأفراد الذين عجزوا عن سداد ديونهم. وبينما حدثت الثلاث حالات التالية بين أناس يتكلمون اليونانية، فإن الثانية منها تتعلق بنزاع بين أفراد أسرة واحدة:

إلى الملك بطلميوس، بعد التحية من سوسيجينيس (Sōsegenēs) من [قرية] ثيوجنيس (Theognis). لقد ألحق بى الضرر هيبوئيتاس (Hippoïtas) من [قرية] بيرينيكى ثيسموفورو. ففى الثامن عشر من طوبة [أىّ من تسعة وستين يوماً مضت] اختفى ديمتريوس، وهو سورىّ كان يقيم عندئذ في ثيوجنيس ومعه بعض ممتلكاتى التى تقدر بحوالىّ ٥ر٤٥١ دراخمه. بعد ذلك ظهر الرجل في ثيسموفورو حيث عثر عليه هيبوئيتاس المذكور، الذي قبض عليه وأخذ منه كأساً نحاسية واثنتى عشرة دراخمه نحاسية تشكل جزءاً مما استولى عليه الأول منى. وعند القبض على ديمتريوس استجوبه هيراكليديس رقيب الشرطة [؟] واعترف ديمتريوس بأنه أعطى هيبوئيتاس الكأس والاثنتى عشرة دراخمه، مما جعل هيراكليديس يأمر الأخير بإعادتها إلىّ. وقد أعطانى هيبوئيتاس بالفعل الكأس، إلا أنه لم يدفع النقود. ولهذا فإننى أرجوك، أيها الملك، أن تأمر ديوفانيس حاكم الإقليم، أن يكتب إلى ميكون (Mikōn) قائد الشرطة، ليرسل هيبوئيتاس لأنه قد أنهى عمله بالشرطة، إلى ديوفانيس، وإذا ثبت أن الأمر كما أقول، أن يجبره على إعادة النقود إلىّ. وعندما يحدث ذلك بعونك، أيها الملك،

سأحصل حقوقى، والسلام.

[من ديوفانيس] إلى ميكون. انظر في الموضوع، واحرص على أن يحصل على حقه. [التاريخ: الحادى عشر من مايو عام ٢١٨ ق.م.].

إلى الملك بطلميوس، بعد التحية من ثيون (Theōn) وتيوتيوس (Teutios)، أبناء فيليبوس المقدونىّ الأصل، من [قرية] فاربايثوس (Pharbaithos). لقد أساء إلينا ثيودوتوس وأجاثون (Agathōn)، وهما أقارب لنا من جهة جدتنا لأبينا. وبالنظر إلى أننا أوصياء على فيليبى (Philippē) بنت فيليبوس، فقد بحثنا عن بعض الممتلكات التى تركها فيليبوس، واكتشفنا أن الأشخاص المذكورين أخذوا بعضاً منها، وهو ما سوف نقدم به قائمة لفيلوتاس (Philotas)، قائد الشرطة. أيضاً لأننا كنا بحاجة إلى خمس وعشرين دراخمه من أجل جنازة فيليبوس، فقد رهنّا بدلته الحربية ودرعه وعباءته والحقيبة التى توضع فيها مع أجاثون المذكور. وعلى الرغم من أننا نريد الآن استعادة هذه الأشياء ودفع المبلغ الذي اقترضناه بالإضافة إلى الفائدة، فإنه يرفض إعادتها ويصر على المماطلة. لذلك فإننا نرجوك، أيها الملك، إذا كانت هذه مشيئتك، أن تأمر ديوفانيس حاكم الإقليم أن يكتب إلى فيلوتاس قائد الشرطة، لكى يجبر ثيودوتوس وأجاثون، إذا كان كل ما ذكر في هذا الالتماس صحيحاً، أن يعيدوا إلينا الأشياء التى سنكتب قائمة بها، والتى استولوا عليها، وأن يجعل أجاثون يقبل أصل الدين والفائدة، وأن يعيد إلينا الأشياء المرهونة لديه. وهكذا، أيها الملك، يا معين الجميع وصاحب الفضل عليهم، سوف نحصل على حقنا بعد أن لجأنا إليك، ولن يلحق بالفتاة اليتيمة أىّ ظلم، والسلام.

[من ديوفانيس] إلى فيلوتاس. أصلح بينهم بقدر الإمكان وإلا فأرسلهم إلىّ بعد [الرابع والعشرين] لكى يمثلوا أمام القضاء المختص. [التاريخ: الثالث عشر من يناير عام ٢١٨ ق.م.].

إلى الملك بطلميوس، بعد التحية من أليكساندروس بن بيثـ...، من [قرية] فاربايثوس في ناحية هيراكليديس [من إقليم أرسينوى]. لقد ألحق بى الضرر أبوللونيوس بن .... [منذ ما يزيد عن عامين] عندما استأجرت حديقة خضروات من ثيوجينيس [الذي استأجرها بدوره من التاج] أعطيت أبوللونيوس عشرين دراخمه قيمة إيجار الحديقة، لكى يدفعها في البنك، إلا أنه دفع عشر دراخمات فقط، وما يزال يماطل في دفع العشر دراخمات الأخرى، التى لم يسلمها للبنك حتى الآن. والآن يطالبنى ثيوجينيس مالك الأرض، طبقاً لعقدى معه، بالمبلغ بالإضافة إلى الفوائد وغرامة نصف المبلغ، لأنه كان على ثيوجينيس أن يدفع بنفسه للبنك العشرة دراخمات. لهذا فإننى أرجوك، أيها الملك، إذا كانت هذه مشيئتك، أن تأمر ديوفانيس حاكم الإقليم أن يكتب إلى قائد الشرطة [الاسم مفقود]، لكى يرسل أبوللونيوس ليحاكم بخصوص شكواى ضده. وإذا ثبت أن ما أقوله صحيح، [أرجو] أن أحصل منه على العشر دراخمات بالإضافة إلى الغرامات المطلوبة منى [بواسطة ثيوجينيس]، حتى أحصل

على حقوقى، أيها الملك، بعد أن لجأت إليك.

[من ديوفانيس] إلى .... انظر في الموضوع، واحرص على أن يحصل على حقه. [التاريخ: الثامن والعشرون من يناير عام ٢٢٢ ق.م.].[٥]

وبعرفنا هذا الالتماس الأخير أن المدين الذي لا يسدد دينه في الوقت المحدد كان يدفع غرامة يبلغ مقدارها ٥٠% من أصل الدين، بالإضافة إلى قيمة الفائدة المركبّة. وربما وصل الأمر إلى أبعد من ذلك في بعض الأحيان، وأدى إلى الاحتجاز في سجن المدينين. وبالنظر إلى أن سجلات ديوفانيس لا تحتوى على حالات طبقت فيها هذه العقوبة، فلا بأس أن نستطرد ولو للحظة وجيزة لنقتبس التقرير التالى الذي أرسله قائد الشرطة في إحدى القرى إلى حاكم الإقليم الذي توجد فيه القرية، والذى يرجع تاريخه إلى ما بعد سجلات ديوفانيس بعقود قليلة:

في السابع عشر من شهر بابه من العام السادس، سلمنى هيرمياس (Hermias) بن داجوزيس (Dagouzis)، أحد المقيمين في القرية المذكورة شكوى ضد خينيفيبيس (Khenephibis) بن هيريوس (Herious) وزوجته تارموتيس (Taarmotis) بنت باسيس (Pasis)، مؤداها أنهما اقترضا منه، على أساس عقد لمدة ستة أشهر، قمحاً مقداره ستة أرادب لم يدفعا إليه منها شيئاً، ولا حتى غرامة الخمسين بالمائة. وقد طلب استدعاءهما لكى يدفعا إليه القمح والغرامة. وفى اليوم الثامن من الشهر المذكور، استدعيت خينيفيبيس، وعندما أقرّ [بالدين] حولته [إلى السجن] حتى أدى ما يجب عليه من حق.[٦]

إن دعاوى المطالبة ببعض المبالغ المتأخرة تظهر كثيراً في الالتماسات المقدمة إلى ديوفانيس. وهذا الدعاوى تدور حول عقود من كافة الأنواع، سواءً أكانت عقود بيع أم تأجير أم قروض أم توظيف. وفيما يلى بعض الحالات التى تعطينا فكرة عن هذه الدعاوى. وتتميز أول حالة بأهمية خاصة؛ لأنها تعرفنا بمجموعتين من الأقليات المقيمة في مصر، حيث إن المتهم سورىّ الأصل، كما يتبين من اسمه، بينما ينتمى مقدم الالتماس إلى بعض المستوطنين العرب:

إلى الملك بطلميوس، بعد التحية من باراتيس (Paratēs) الحلاق، والمقيم في [قرية] بطلمية التى يسكنها العرب. لقد الحق بى الضرر ماليخوس (Malichos) بن سازايوس.. لقد خدمته وأسرته لعدة أعوام وأنا أقوم بزيارته في الأوقات المعتادة وبشكل لا غبار عليه مقابل الأجر المتفق عليه بين ماليخوس وبينى. والآن [فإنه لم

يدفع لى أجر] العام الماضى ويرفض دفع [ما أطالبه به]. وقد جعلنى أذهب إلى معبد أثينا وأقسم أننى لم أتلق بالفعل هذا الأجر.... إننى أرجوك، أيها الملك، ألا تتغاضى عن الظلم الذي لحق بى، أنا الذي أقتات من هذا العمل، وأن تأمر ديوفانيس حاكم الإقليم أن يكتب إلى بطوليمايوس قائد الشرطة [ليتحقق] مما إذا كنت حقيقة قد أقسمت اليمين التى طلبها وإذا كان مستعداً لأن يدفع لى أجرى في النهاية، وإذا رفض أو حاول الاعتراض أن يرسله إلى ديوفانيس. وعندما يحدث ذلك، أيها الملك، سوف أشعر بفضلك وكرمك، والسلام.

[من ديوفانيس] إلى بطوليمايوس. أصلح بينهم بقدر الإمكان، وإلا فأرسلهم للمثول أمام القضاء المختص. [التاريخ: السادس والعشرون من فبراير عام ٢٢١ ق.م.].

إلى الملك بطلميوس، بعد التحية من ديوسكوريديس (Dioskouridēs) ونيكانور [يونانيان]. لقد ألحقت بنا الضرر نفرسوخيس التى اقترضت [منذ عدة شهور] عشر دراخمات فضية من ديوسكوريديس وأربع عشرة دراخمه نحاسية من نيكانور، ومجموع القرض أربع وعشرون دراخمه. إنها لم تسدد لنا هذا المبلغ وذهبت إلى [قرية] كيركيسوخا (Kerkesoucha) غير ملقية بالاً إلينا. إننا لذلك نرجوك، أيها الملك، إذا كانت هذه مشيئتك، أن تأمر ديوفانيس حاكم الإقليم أن يكتب إلى دينياس (Deinias) قائد الشرطة في كيركيسوخا ليستدعيها، وإذا أقرت [بالدين] أن يحصل منها على النقود ويرسل بها إلينا، وإذا أنكرت أن يرسلها إلى ديوفانيس حاكم الإقليم، حتى نشعر بكرمك وعطفك، والسلام.

[من ديوفانيس] إلى دينياس. أصلح بينهم بقدر الإمكان، وإلا فاستدعها لكى يمثلوا أمام المحكمة المختلطة. [التاريخ السادس والعشرون من فبراير عام ٢٢١ ق.م.].

إلى الملك بطلميوس، بعد التحية من مارون (Marōn) بن يوكتوس الأرجوسى الأصل. لقد ألحق بى الضرر ثيودوسيوس (Theodosios) بن كسانثوس وهو أصلاً من ليقيه. لقد أخذ ابنى يوكتوس (Euktos) من أرتيمون (Artemōn)، بالمشاركة مع ثيودوسيوس، عقد إيجار مدته تسعة وتسعون عاماً لأرض بناء في [قرية] أوتوديكى (Autodikē) من أرتيمون مات قبل أن يقسما الأرض وبادر ثيودوسيوس ببناء جدران منزلة في أفضل الأمكنة وأكثرها سهولة في الوصول إليه. بعد ذلك توصلنا إلى تقسيم محدد، وعلى الرغم من أننا اتفقنا على قسمين متساويين ومتشابهين، فإنه يرفض أن يقتسم معى الأرض قسمة عادلة، ويصر على المراوغة وعلى إعطائى جزءاً لا فائدة منه لأنه ضيق وطويل بينما يحتفظ هو لنفسه بقطعة مربعة. لهذا فإننى أرجوك، أيها الملك، إذا كانت هذه مشيئتك، أن تأمر ديوفانيس حاكم الإقليم أن يكتب إلى بيثياديس (Pythiadēs) قائد الشرطة، لكى يذهب إلى الموقع وأن يقسمه بحيث تكون قطعتى متساوية ومشابهة [لقطعته] وأن يجعله يزيل الممر الذي كاد ينتهى منه في الجزء الذي يخصنى، ولأنه قد استولى على سبعين ذراعاً مربعاً من أرضى، أن يجعله يعطينى في المقابل ممراً للدخول والخروج إلى الشارع المشترك بيننا لأن

قطعتى تقع الآن إلى الخلف. وعندما يحدث ذلك بعونك، أيها الملك، أكون قد نلت حقى، والسلام.

[من ديوفانيس] إلى بيثياديس. أصلح بينهم إذا كان ممكناً وإلا فأرسلهم إلينا بعد [الرابع والعشرين] للمثول أمام المحكمة المختصة. [التاريخ: الثالث عشر من يناير عام ٢١٨ ق.م.].[٧]

وتشكل الالتماسات المتعلقة بالشجار المنزليّ نوعاً آخر من الالتماسات التى تقدم إلى ديوفانيس، ويمثل الالتماس الذي اقتبسناه من قبل، والمتعلق بأملاك الطفلة اليتيمة فيليبى أحد هذه الأمثلة. أما أول الالتماسات التالية فيتعلق بوالد وابن مُسرف وغانية، ويذكرنا بالتالى أن الشخصيات والمواقف التقليدية في المسرح الهللينستيّ (المتأغرق) لها جذورها الواقعية. وبينما تدور مسرحيات ميناندروس (Menandros) وغيره من كتاب "الكوميديا الحديثة" حول الحياة في أثينا وغيرها من بلاد اليونان ذاتها، فإن مكان هذه الالتماسات هو عاصمة إقليم أرسينوى، حيث جاهد عدد كبير من المهاجرين اليونانيين وأبنائهم بقوة من أجل إيجاد بيئة وأسلوب حياة يقارب بقدر الإمكان ما اعتادوا عليه في بلادهم الأصلية، وحاولوا المحافظة عليهما. أما الالتماس الثانى من المجموعة التالية فيشير إلى بعض أفراد المجتمع اليونانيّ، إلى والد طاعن في السن يشكو من ابن لا يعوله:

إلى الملك بطلميوس، بعد التحية من سوبوليس (Sopolis). لقد ألحقت بى الضرر سيدة تدعى ديمو (Demō) وهى تقيم في كروكوديلوبوليس في إقليم أرسينوى وتعمل غانية. لقد تمكنت بمساعدة بعض الأفراد من غواية ابنى سوبوليس الذي ما يزال قاصراً، وجعلته يوقع على تعهد بأنه اقترض منها ألف دراخمه. لهذا فإننى أرجوك، أيها الملك، إذا كانت هذه مشيئتك، أن تأمر ديوفانيس حاكم الإقليم أن يستدعى ديمو والرجل الذي يظهر اسمه على الإيصال بوصفه ممثلاً لها ومسجل العقود حتى يستجوبهم بعناية، وإذا ثبت أن هذا القرض لا وجود له، وأن الوثيقة كتبت بغرض الخداع، فعليه أن يجعلها تسلم الإيصال إلىّ، وأن يُصدر حكمه عليها. وعندما يحدث ذلك، أيها الملك، أكون قد نجوت من الظلم الواقع علىّ أنا الذي قمت بخدمتك وخدمة والدك خدمة مشرفة، والسلام.

[إشارة مكتبية] كُلف ديمتريوس (Demetrios) بن نيكاجوراس (Nikagoras) [بمعالجة الموضوع]. [التاريخ: السابع والعشرون من فبراير عام ٢٢١ ق.م.].

إلى الملك بطلميوس، بعد التحية من بابّوس (Pappos). لقد ألحق بى الضرر ابنى استروثوس (Strothos). لقد أرسلته إلى المدرسة وربيته تربية حسنة، وعندما بلغنى الكبر ولم أتمكن من الحصول على ما يقيم أودى ذهبت [؟] إلى قرية أرسينوى ومثلت أمام ديوسكوريديس نائبك [؟]، الذي أمره أنْ يزودنى بأردب من القمح وأربع دراخمات في الشهر. وقد وافق استروثوس بنفسه على ذلك ولكنه لم يعطنى شيئاً مما اتفق عليه، وعندما يقابلنى يوجه إلىّ الإهانات الشديدة، بل وأكثر من ذلك فإنه يقتحم منزلى ويخرج كل مرة بما يتراءى له من الأدوات المنزلية، غير عابئ بى لكبر سنى ولضعف بصرى. لهذا فإننى أرجوك، أيها الملك، أن تأمر ديوفانيس حاكم الإقليم أن يكتب إلى قائد الشرطة في قرية أرسينوى الواقعة على الجسر من ناحية ثيمستيس [من الإقليم] لكى يرسل استروثوس إلى ديوفانيس لكى يكف أذاه عنى، وإذا كان ما أقوله في هذا الالتماس صحيحاً، أن يجعله يقدم ضمانات من أجل المعاش حتى يسدده بانتظام في المستقبل. وعندما يحدث ذلك بفضلك، أيها الملك، سأكون قد حصلت على حقى، والسلام.

[من ديوفانيس] إلى بطوليمايوس. بقدر الإمكان أصلح بنفسك بين الوالد واستروثوس؛ أما إذا رفض فأرسله إلى وسوف أهتم أنا بالموضوع بشكل آخر. [التاريخ: الحادى والعشرون من نوفمبر عام ٢٢٢ ق.م.].

[إشارة على الوجه الخلفىّ للوثيقة] حضر استروثوس [أمام بطوليمايوس] وقال إنه سيعطى بابّوس دراخمتين نحاسيتين في الشهر من أجل طعامه. كان بابّوس حاضراً ووافق على هذا الشرط.[٨]

على الرغم من أن ثمانى التماسات من الموجودة في السجل عليها إشارات تدل على الإجراء الذي اتخذه قائد الشرطة، ونتيجة هذا الإجراء، فإن التعليق السابق هو الوحيد المحفوظ بدرجة تسمح بقراءته وتفسيره. هناك أيضاً عدة برديات تحتوى على رسائل قصيرة أرسلها إلى ديوفانيس قادة الشرطة يقررون فيها أنهم قد فعلوا ما أمرهم به. وفيما يلى مثال لهذه الرسائل:

من ديمتريوس إلى ديوفانيس، بعد التحية. لقد أحضر إلى إبيستراتوس (Epistratos)، وهو من اليونانيين المقيمين في قرية موخيس (Mouchis)، شكواه ضد المزارعين بشأن [الضرر] الذي سببه حرقهم للأعشاب، وهو الالتماس الذي أفادت إشارتك عليه بأن أصلح بينهم بقدر الإمكان، وإلا أرسلت بهم ليمثلوا أمام القضاء المختص. ولهذا فقد استدعيت المزارعين المقيمين في القرية وقرأت عليهم الشكوى. ونظراً لأنهم رفضوا التصالح في حضورى فقد أرسلت بهم إليك، وإننى أكتب إليك لأخبرك بذلك.

وتصور إحدى الوثائق الأخرى نوعاً آخر من الإجراءات المتبعة، وهو الحصول على شهادات كتابية مشفوعة بقسم. لقد أرسل قائد الشرطة نفسه إلى ديوفانيس بشأن شكوى مقدمة هنا أيضاً من مصريين ضد يونانيين، قائلاً:

لقد طلبت منى أن أحصل على شهادات كتابية مشفوعة بقسم من الشهود الذين يدعوهم هوروس وإخوته للشهادة في قضية ضد بطوليمايوس وزوبيروس (Zopyros). لقد حصلت على شهاداتهم وإننى أرسلها إليك مع هذا الخطاب مغلقة ومختومة بخاتم عليه وجه هيليوس (Helios). لقد كتبت أيضاً [لمعلوماتك] أسماء الشهود.

ضد زوبيروس: [اثنا عشر اسماً كلهم مصريون].

ضد بطوليمايوس: [الأسماء نفسها].[٩]

لا تساعدنا سجلات ديوفانيس، لسوء الحظ، على معرفة ما إذا كان باستطاعة قائد الشرطة عادة أن يفصل في بعض الشكاوى التى تحال إليه. ربما يمكننا أن نعتقد ذلك في المقام الأول، وإلا فما فائدة أن يحيل إليه الاستراتيجوس الالتماسات وأن يكون هذا الإجراء تقليدياً. وبالإضافة إلى ذلك يمكننا أن نفترض أن الأطراف المتنازعة كانت تقبل عادة تحكيمه في الموضوع نظراً لمعرفتها أنه يعمل بتفويض من حاكم الإقليم. وعلى الرغم من ذلك يجب التأكيد على أنه لا يوجد دليل قوى يؤيد هذا الاستنتاج أو يقطع بنقيضه. إن الوثائق التى وصلت إلينا، من النوع الذي اقتبسناه مؤخراً، توضح أن تدخل قائد الشرطة كان ينجح في حل النزاعات في بعض الأحيان ويفشل في بعضها الآخر. إن ما نراه وما نشعر به بوضوح، في حالة تلو الأخرى من الحالات التى ذكرناها، هو أن الحياة في القرى المصرية التى كان يسكنها الكليروخوى كانت تسود فيها روح العداوة المدمرة والمتبادلة. كذلك كان يسودها أيضاً إحساس متبادل بالسخط وعدم الثقة التى تصل إلى حد الخوف، وهى مشاعر نجدها متبادلة بين طبقة الصفوة اليونانيين وطبقة المصريين الأدنى منزلة. لقد قابلنا على صفحات هذا الفصل من حوادث اعتداء على النفس وإلحاق الضرر بالممتلكات ومخالفات للعقود ما يعبر عن هذه العداوة، وسوف تقابلنا أمثلة أخرى في الفصول التالية.

الحواشي:

(١) انظر: H. Bengtson, *Die Strategie in der hellenistischen Zeit*, III (= *Münchner Beiträge*...., 36, 1952, 13

(٢) المثال الوحيد هو: *P. Ent.* 82 = *Select Papyri* 269

(٣) راجع: *P. Ent.* 11, 86 and 79 وقد فقدت فى البردية رقم ٨٦ تعليمات ديوفانيس، نظراً لحالة البردية المهترئة، أما التاريخ الموجود في تعليق (غير كامل أيضاً) فمكتوب على ظهر البردية ويقابل ٢٦ أو ٢٧ فبراير عام ٢٢١ ق.م. وفى البردية رقم ٧٩ فإن تعليمات ديوفانيس غير مسجلة، أما التاريخ المسجل على ظهر البردية فيقابل ١١ مايو عام ٢١٨ ق.م.

– من بين القرارات الصادرة عن الإسكندرية والمحفوظة لنا على بردية ترجع إلى عام ٢٥٠ ق.م. نجد التعليمات التالية (*P. Hal.* 1, lines 203-209): "قضية: تبادل اللكمات بين رجال أحرار. إذا اعتدى رجل حر أو امرأة حرة دون وجه حق بيده على رجل حر أو امرأة حرة فستوقع غرامة موحدة عند ثبوت الإدانة قدرها مائة دراخمه. وإذا وجه أو وجهت أكثر من ضربة فإن على المدعى أو المدعية أن يتقدم إلى المحكمة بطلب تعويض عن الأضرار الناجمة عن اللكمات، وسوف يدفع المدعى عليه ضعف القيمة التى تحددها المحكمة. وإذا اعتدى أحد بالضرب على أىّ من الموظفين في أثناء تأديتهم لواجباتهم المنوطين بها فسوف يدفع أو تدفع ثلاثة أضعاف الغرامة المقررة."

(٤) انظر: *P. Ent.* 60

(٥) راجع: *P. Ent.* 28, 32 and 89

(٦) انظر: *UPZ* 124

(٧) راجع: *P. Ent.* 47, 44 and 66 إن عقد التسعة وتسعين عاماً المألوف في القانون الإنجليزى والأمريكى لا يتكرر كثيراً في وثائق العصر الهللينستىّ (المتأغرق). ربما كان السبب في ذلك هو أن غالبية العقود الموجودة لدينا تتعلق بأراض زراعية حيث القاعدة السائدة هى التأجير لمدة عام أو أعوام قليلة. وعلى الرغم من ذلك يمكننا أن ندرك أنه في حالة تأجير قطعة أرض بناء لا بد وأن يكون هناك نوع من الاطمئنان إلى أن العقد سوف يستمر لمدة طويلة نوعاً ما قبل أن يقدم المستأجر على إنشاء أى مبنى على هذه الأرض.

(٨) انظر: *P. Ent.* 49 and 25 من المحتمل أن إشارة سوبوليس في أولى هاتين البرديتين إلى خدمته السابقة للملك تجعل منه جندياً مرتزقاً أو كليروخوس. كذلك يمكن ملاحظة أنه لا يوجد في هذا الالتماس أى طلب لإحالة الموضوع ولا أية تعليمات إلى قائد الشرطة بالقرية. إن السبب في ذلك يرجع إلى أن المتهم يقيم في عاصمة الإقليم؛

وحيث إن الاستراتيجوس ذاته يقيم أيضاً هناك ويوجد مكتبه في المكان نفسه، فإن مقدم الالتماس يطلب من الاستراتيجوس أن يتولى الموضوع بنفسه. أما الاستراتيجوس فقد نظر في الموضوع، كما تدل إشارته، وقضى بإحالته إلى مندوب له.

- فيما يتعلق بالالتماس الأخير، من الجدير ملاحظة أنه في بردية أخرى من أرشيف ديوفانيس يتقدم والد معمر بشكوى لإهمال ابنته الناكرة للجميل له، راجع: *P. Ent.* 26 = *Select Papyri* 268

(9) أول هذه التقارير هو: *P. Sorbonne* inv. No. 2410 المنشور في: *Livre du centenaire de l'institut français d'Archaeologie Orientale*, Cairo, 1980, 309 وفى التقرير التالى المنشور في: *P. Turner* 16 فإن وصف الختم المستخدم قد ذكر في النص ليساعد مستلم البردية على التحقق من أن هذا التقرير الرسميّ لم يفتح (وهو ما يعنى أن الختم قد فض) وأن المعلومات الموجودة بالبردية لم تتغير في الطريق *en route* من القرية إلى مكتب الاستراتيجوس. لقد أعيد الآن طبع البردية التى تحمل رقم ٢٤١٠ في: *SB* 12426

الفصل الخامس

الـــناسك بطولـــيمايوس

الزمان: المدة من حوالىّ عام ١٦٤ قبل الميلاد إلى عام ١٥١ قبل الميلاد.

المكان: الساحة المقدسة لمعبد سيرابيس المقام غرب منف.

الوثائق: ما يزيد قليلاً عن مائة بردية باللغة اليونانية وبعض الوثائق الديموطيقية. لقد أعيد نشر البرديات اليونانية المتناثرة بين ما يقرب من عشر مجموعات في طبعة فخمة للغاية ومعها تحقيق واف وشامل، وقام بها: U. Wilcken, *Urkunden der Ptolemäerzeit.* Vol. I, Berlin und Leipzig, 1927

السيرابيون:

كانت منف هى العاصمة المصرية القديمة لمصر السفلى مثلما كانت طيبة عاصمة لمصر العليا. وعلى أطراف المدينة بالقرب من حافة الصحراء أقيم منذ أقدم العصور التاريخية مبنى دينى كبير لعبادة الآلهة الرئيسة والآلهة الصغرى التى تعبد في الوجه البحرى. وما يزال باستطاعتنا حتى الآن مشاهدة معبد الكرنك والبقايا الضخمة للمبانى الملحقة به التى بناها خارج مدينة طيبة مجموعة من الملوك المصريين القدماء. وعلى النقيض من ذلك، وجد الأثريون في القرن التاسع عشر في مدينة منف قدراً ضئيلاً من الآثار يبعث على الأسى، إلا أنه يكفى مع ذلك للدلالة على ضخامة المبانى التى أقيمت في الماضى في ذلك المكان.

إن أقدم العبادات التى شهدتها المدينة هى عبادة العجل أبيس (Apis). وقبل مرور وقت طويل امتزجت هذه العبادة بعقيدة أوزيريس (Osiris)، وأصبحتا تعرفان معاً باسم أوزيريس–أبيس (Osiris-Apis)، أو أوزيرابيس

(Osirapis). هذه العقيدة بدورها هى الأصل المعروف لاسم سيرابيس (Serapis) أو سارابيس (Sarapis)، والاسمان كانا شائعين بالقدر نفسه في العصور القديمة. هذا الاسم اختاره بطلميوس الأول للديانة المصرية-اليونانية التى ابتدعها حوالى عام ٢٨٦ ق.م. لقد أملى عليه هذا الاختيار، أو على الأقل أثرت فيه، حقيقة إن ساحة مدينة منف الدينية كانت منذ مدة طويلة على قدر كبير من الأهمية وخاصة بوصفها مركزاً طبياً، كما سنرى بعد قليل.

وقد أعاد البطالمة بناء الساحة المقدسة في منف بعد إنشاء عبادة سيرابيس، وزادوا فيها زيادة كبيرة حتى أنها أصبحت يُشار إليها بعد ذلك عادة في منف باسم "السيرابيون (Sarapeion) الكبير في منف،"[١] كما حقق الإله سيرابيس نجاحاً كبيراً ومستمراً في الأوساط اليونانية والمصرية على حد سواء. واستمرت هذه الديانة طوال العصور القديمة حتى انتصرت المسيحية، على الرغم من أن المصريين لم يقتربوا أبداً من منزلة المساواة مع اليونانيين، وهى المساواة التى يُفترض أن سيرابيس كان يرمز إليها. وبالنسبة لهؤلاء المصريين فإن هذا الرمز لم يتعد مجرد كونه فكرة مثالية في مستقبل بعيد لم يصبح أبداً واقعاً يحيونه. وفى حقيقة الأمر كانت هناك بالفعل عقيدتان منفصلتان لسيرابيس؛ إذ كان اليونانيون يعبدونه حسب الطقوس اليونانية، ويصورونه غالباً على غرار تصويرهم لزيوس، بينما نظر إليه المصريون تماماً على أنه أحد آلهتهم.

إننا نقابل المتعبدين للإله سيرابيس في منف وهم يستطلعون منه أمور الغيب، ويلجأون إليه بوصفه حامياً من المصاعب والمشكلات ومنقذاً من المخاطر ومصرفاً لأمور العدالة. كذلك كانوا ينادونه بألقاب مثل "عظيم الآلهة،" و "رب العالمين،" وكانوا يطلبون منه أن يمنح البيت الحاكم "الصحة والنصر والقدرة والقوة وحكم الأراضى التى تُظلها السماء."[٢]

وكانت مجموعة المبانى التى يضمها السيرابيون الكبير تشتمل على مبان لعديد من الآلهة الأخرى التى ترتبط بدرجات متفاوتة من القوة بعبادة سيرابيس. ويمكن أن يزودنا الوصف الذي يورده كتاب حديث العهد لمعبد

السيرابيون في الإسكندرية بنموذج لما كانت عليه الساحة المقدسة في منف. كان السيرابيون يتكون من ساحة مقدسة واسعة ومفتوحة، بها ممرات مغطاة وسراديب تحت الأرض، ومحاريب متعددة تزدحم بعديد من تماثيل الآلهة اليونانية والمصرية، وكلها تمت بصلة بشكل أو بآخر إلى سيرابيس أو إيزيس أو حربوقراط.[٣]

وكانت أهم الآلهة المصاحبة لسيرابيس في معبد السيرابيون هى إيزيس ذات المائة اسم وصفة، الذين يجعلون منها واهبة الحياة والمعينة على الشدائد، وكان الناس يدعونها مع سيرابيس في أثناء صلواتهم ودعواتهم أن يحكم البطالمة العالم. كذلك كان العاملون في معبد السيرابيون يؤدون شعائر عبادتها ويحتفلون بأعيادها. وفى واقع الأمر توجد علامات واضحة في برديات السجل الذي ندرسه في هذا الفصل على أن ديانة إيزيس بدأت في الظهور في القرن الثالث قبل الميلاد، وبشكل نجم عنه أن أصبحت الديانة ذات مكانة متميزة في عالم البحر المتوسط طوال القرون التالية.

ومن بين الآلهة الصغرى التى نجدها في السيرابيون الكبير الإله الذي وفد إليه أكبر عدد من الحجيج والضارعين، وهو الإله المصرى إيمحتب (Imhotep) الذي قرن اليونانيون بينه وبين إلههم أسكليبيوس (Askēpios)، إله الشفاء. لقد انتشرت شهرة هذه الديانة فيما وراء حدود الإمبراطورية البطلمية، وكان يشار في العالم الخارجيّ إلى هذه الساحة المقدسة بوصفها "معبد أسكليبيوس الكبير في منف."

وكما هو الحال مع المعابد السابقة للإله أسكليبيوس في بلاد اليونان، وأشهرها المعبد المعروف في إبيداوروس (Epidauros)، جذبت ديانة الإله في منف طوفاناً من المقعدين والمرضى الذين أتوا يحدوهم الأمل في أن الإله سينعم عليهم بالشفاء من عاهاتهم وأمراضهم. وكانت الشعائر تتشابه في خطوطها الأساسية، إن لم تكن تتشابه في تفصيلاتها، مع نظيرتها في بلاد اليونان، فكان على المتعبد أن يمر بطقوس التطهير التى تشمل الاغتسال والصوم، الذي يعنى أيضاً الامتناع عن الجماع، وأن يقضى الليلة في المعبد

وهو يدعو الإله أن يهبه رؤيا تتضمن العلاج المناسب له. وعندئذ كان المتعبد يصل إلى قمة التأثر الروحانيّ وقمة الاستعداد الذاتيّ لاستقبال الرؤيا الليلية. وعلى الرغم من ذلك ربما لا تحدث الرؤيا، ولهذا كان الذين يرغبون في تجنب هذا الاحتمال يلجأون إلى بعض متعهدى الأسرار، ويشترون منهم بعض التعليمات عن الأفكار التى تجلب النوم أو بعض الترانيم السحرية "المضمونة" لإحداث الرؤيا المرجوة.

إننا نشعر من خلال قراءاتنا أن المنطقة وجوّها العام يُشبهان ساحة السوق والألعاب والمهرجانات، وليس مكاناً مقدساً. لقد كان الطريق المؤدى إلى المعبد يَحُدّه من الجانبين أكشاك ومحلات لبيع الطعام والأشياء التذكارية وغيرها من البضائع والخدمات التى يحتاجها الزائرون الذين يُشكلون فريقاً من المرضى والمقعدين، ومن يصاحبونهم من أعضاء أسرهم. وكانت هذه الأماكن التجارية التى تقع على الطريق المؤدى للساحة المقدسة تُؤجر، بطبيعة الحال، بواسطة المعبد، وتُشكل أحد الموارد المتعددة والثابتة للدخل. كذلك كانت الرسوم التى يسارع إلى دفعها زوار المعبد تشكل مصدراً آخر، وكانت تشتمل على الأقل على رسوم لدخول المعبد، أو رسوم أخرى للتطهير، وثالثة لقضاء الليلة داخل ساحة الإله. بالإضافة إلى ذلك، بطبيعة الحال، كان المسافرون يتكلفون مصاريف السفر الكبيرة. ونخلص من ذلك إلى أن فرصة اللجوء إلى أسكليبيوس–إيمحتب لم تكن سهلة أو غير مكلفة. كذلك فإنه إذا تم كل شئ بالشكل المرجوّ، وأنعم الإله بالرؤيا المطلوبة، فمن المحتمل أنها كانت مليئة بالرموز والإشارات والأحداث الغامضة. عندئذ كان من الضرورى دفع مقدار آخر من النقود لأحد "العارفين" لكى يفسر "المعنى الحقيقىّ" للحلم والرسالة التى يتضمنها. وكان هؤلاء الأفراد من محترفى تفسير الأحلام يتمتعون بمنزلة كبيرة، وازدهر عملهم في الساحات المشابهة لساحة أسكليبيوس. وقد عثر الأثريون في منف على لوحة من الواضح أنها كانت معلقة في وقت من الأوقات على باب أحد الأكشاك أو المحلات الصغيرة بالقرب من المعبد. هذه اللوحة مكتوب عليها: "مفسر أحلام كريتىّ، هنا." إن الإشارة إلى كريت لا

تخلو من طرافة ولها دلالاتها وإسقاطاتها العديدة. لقد كانت مصر البطلمية تضم أعداداً كبيرة من المهاجرين الكريتيين، كما سنرى في الفصل التالى، وبالإضافة إلى ذلك كانت كريت تشتهر في العالم القديم بأنها مهد الحضارة اليونانية. وهكذا كانت اللوحة، بذكاء، تعد أسر الصفوة المتكلمة باليونانية والمقيمة في مصر بمعلومات وتفسيرات على أساس من "التقاليد القديمة الأصلية المعروفة في بلادهم الأم؛" وهى تقاليد تتضمن خبرة قرون طويلة لا تتشابه مع كمّ المعلومات والتقاليد الجديدة والغريبة التى لم تُختبر والتى قد تتوفر لدى من يفتقرون إلى الخبرة من المفسرين.

وبينما كان سيرابيس ذاته هو الذي يأتى بالأحلام والرؤى الشافية في الساحات المقدسة في مصر، فإنه لم يأخذ في منف بشكل مباشر خاصية القدرة على الشفاء التى تميز بها أسكليبيوس-إيمحتب، مع أن سيرابيس كان يهيمن على الساحة بأكملها. إن الوصف التالى الذي نجده على بردية عُثر عليها في أوكسيرينخوس يبدو وكأنه يتحدث عن الساحة المقدسة في منف، ويعتبر اسم إيموثيس (Imouthes) في هذه البردية الصيغة اليونانية المقابلة للاسم المصرى إيمحتب:

> بعد أن أمسكت الحمى اللعينة بتلابيب والدتى، وتملكتها لمدة ثلاثة أعوام، عدنا أخيراً إلى رشدنا وذهبنا نتضرع للإله، داعين إياه أن ينعم علينا بعلاج من المرض. وقد تجلى الإله في رؤيا، وهو صاحب الفضل على الجميع، وشفاها بعلاجات بسيطة، ثم قدمنا القرابين الواجبة لشكره على إنقاذها. وقبل أن يمر وقت طويل على ذلك شعرت بألم مفاجئ في جانبى الأيمن، وأسرعت إلى طلب المساعدة ممن لا يضنّ بها على البشر، الذي لبّى أيضاً وبسرعة توسلاتى إليه، وأظهر كرمه الشديد بشكل خاص ومؤثر، كما سيتضح من خلال روايتى التالية لقدرته الواسعة:
>
> كان الوقت ليلاً وقد خلَدت كافة المخلوقات الحية إلى النوم باستثناء من أيقظهم الألم، وهو وقت تتجلى فيه القدرة الإلهية ويظهر تأثيرها بوضوح. وكنت أشعر بحرارة شديدة من تأثير الحمى، وأتلوى من سرعة التنفس والسعال الشديد الذي يسببه الألم الموجود في جانبى. بعد ذلك شعرت بثقل في رأسى تحت تأثير الألم، وبرغبة في النعاس، إلا أن والدتى، كما هو شأن الأمهات دائماً من الإشفاق على أبنائهن، ظلت جالسة إلى جوارى دون نوم ولو للحظة واحدة، تقاسى من جراء آلامى. عندئذ رأت والدتى فجأة في يقظتها، لأنها لم تكن نائمة تحلم، وكانت عيناها مفتوحتين جيداً وإن لم

تريا بوضوح كامل، أقول أتت إليها روح إلهية فجأة حتى أنها لم تتمكن من ملاحظة الإله وأتباعه بوضوح. وعلى أية حال، لقد شاهدت أمي رجلاً طويلاً أطول من البشر يرتدى ملابس لامعة، ويحمل في يده اليسرى كتابا، ثم نظر إلى من أعلى الرأس إلى أخمص القدم مرتين أو ثلاثا، ثم اختفى. بعد ذلك حاولت أمى أن توقظنى بعد أن تمالكت نفسها، ووجدتنى غارقا في عرق شديد، وقد ذهبت الحرارة عنى. وبعد أن قدمت الشكر للإله على تجليه، جففت عرقى وأخذت تهدئ من روعى. بعد ذلك تكلمنا معاً وبدأت هى تخبرنى عن قدرة الإله، ولكننى سبقتها وأعطيتها بنفسى وصفاً كاملاً لما حدث لأن كل شئ رأته هى في اليقظة شاهدته أنا في الرؤيا. وبعد أن أذهب عنى الإله الألم الذي كنت أشعر به في جانبى، أعطانى علاجاً مسكناً، وأعلنت أنا كرمه. ولكن، عندما حاولنا مرة ثانية أن نطلب منه معروفاً وقدمنا ما نستطيع من أضحيات، طلب منا الإله بواسطة الكاهن الذي يشرف على طقوسه المقدسة الوفاء بوعد قطعناه للإله منذ مدة طويلة. وعلى الرغم من أننا نعرف أننا لم نتأخر في أداء الأضحيات أو تقديم النذور إلا أننا أخذنا نستعطفه ثانية وثالثة بهذه الأشياء. وفى كل مرة كان يقول إنه لا يريد أضحيات أو نذوراً، وإنما يريد أن نفى بما قطعناه على أنفسنا، مما يجعلنى أزداد حيرة، حتى تجلت لى الرغبة الإلهية في أن أكتب هذا الكتاب، على الرغم من أننى غير كفء لهذه المهمة.

إلهى، لقد قررت أنت أننى كنت مهملاً بعدم كتابتى هذا الكتاب، ولهذا طلبت عونك، وملأت نفسى روحانية إلهية، وسارعت إلى تنفيذ هذه المهمة المقدسة. إننى أعتقد أن باستطاعتى أن أنشر في إيجاز ووضوح الكلمة التى تبين غايتك؛ لأننى قد تحدثت في عمل آخر عن الطبيعة، وأعطيت وصفاً بسيطاً وحقيقياً ومقنعاً لعملية خلق العالم. وفى أثناء كتابة هذا المؤلف ضمنته الأمور المفقودة، وحذفت منه الزائد منها، ومع أننى أطلت في الرواية نوعاً ما، فإننى قد تحدثت ببلاغة، وتناولت قصة صعبة بأسلوب مباشر.

إلهى، إننى أشعر أن هذا العمل لم يكتمل إلا بفضلك ورحمتك، وليس بما لدى من حكمة وفطنة. إن مثل هذه المؤلفات تتناسب مع ألوهيتك، أنت الذي يلهج الجميع بشكره، أنت يا إله الآلهة ويا معلمنا، أسكليبيوس، يا مكتشف هذا العلم. إن كل القرابين والنذور والأضحيات والهدايا ترتبط فقط بالمناسبة التى تحدث فيها وتنتهى معها، ولكن الكلمة المكتوبة تظل تعبيراً لا يفنى عن الاعتراف بالجميل الذي يتجدد ويجدد الذكريات في كل لحظة. لسوف ينطق كل لسان يتحدث باليونانية بقصتك، وسيتعبد كل اليونانيين لإيموثيس بن بتاح.

هلموا إلىّ، تجمعوا أيها الرجال الطيبون الصالحون، واغربوا عنى أيها الملحدون الفاسقون. هلموا إلى يا من تعبدتم للإله وشفاكم من أمراضكم، ويا من تأخذون بوسائل العلاج، ويا من تعملون بجد واجتهاد لأجل الفضيلة، ويا كل من نعمتم بالخير الوافر، ويا كل من تحققت لهم النجاة من مخاطر البحر. إن قوة الإله المنقذة تحل في

كل مكان ومكان.[٤]

أبناء جلاوكياس:

كان جلاوكياس (Glaukias) الذي توفى عام ١٦٤ ق.م. أحد أفراد فئة الكليروخوى الذين ينتمون إلى أصل مقدونىّ، وكان قد استقر في أرضه التى تقع في قرية بسيخيس في إقليم هيراكليوبوليس الذي يقع إلى الجنوب مباشرة من منف، ويحد إقليم أرسينوى من الجنوب والشرق. وفى أثناء المدة التى قضاها في الخدمة العسكرية تمكن من الحصول على لقب كبير هو "ابن عم الملك". وقد ظل أبناء جلاوكياس دائماً على وعى بأصلهم المقدونىّ، ويفتخرون به. ويدل على ذلك أن أحدهم، في أثناء إقامته في ساحة السيرابيون المقدسة وسط السكان المصريين تحديداً، كان لا يدع فرصة لوصف نفسه في الوثائق الرسمية بكافة درجاتها وأنواعها بكونه "مقدونياً" أو "مقودنىّ الأصل" إلا واقتنصها.

وكان لجلاوكياس أربعة أبناء وربما أيضاً ابنة. وبالنسبة للأبناء فإن أكبرهم ويُدعى بطوليمايوس، وأصغرهم ويُدعى أبوللونيوس، تركا البيت في النهاية سعياً وراء الرزق، بينما ظل الآخران، وهما هيبالوس (Hippalus) وسارابيون (Sarapiōn)، يُقيمان في بسيخيس. وعلى الرغم من ذلك ظلوا جميعاً على اتصال وثيق ببعضهم البعض على المستوى الشخصىّ وفى مجال العمل. وربما كانت بيرينيكى التى ورد اسمها في السجلات أختاً لهم، على عكس ما يقوله البعض استناداً إلى الإشارات القليلة إليها بأنها زوجة سارابيون.

وُلد الابن الأكبر بطوليمايوس قرب نهاية القرن الثالث قبل الميلاد ولعله تلقى في قريته مبادئ التربية اليونانية اللائقة بكونه ابناً لأحد الضباط المقدونيين. كذلك توجد إشارة في إحدى الوثائق تجعل من زيارته للإسكندرية ذات مرة أمراً محتملاً، وإن لم يتكرر بعد ذلك. وإذا كان قد زارها بالفعل فإن الهدف من الزيارة كان إنجاز بعض الأعمال، وليس استكمال دراسته كما فعل كثيرون من أبناء الأسر اليونانية والمقدونية. ويتضح من خلال أوراق البردى

في السجل الخاص بالعائلة أن بطوليمايوس كان يعرف الكتابة وإن كان يفعل ذلك بصعوبة ويفتقر إلى المهارة والبراعة. بالإضافة إلى ذلك كان الرجل يتبع في هجائه للكلمات طريقة نطقها بدقة، مثلما أن معرفته بقواعد اللغة كانت غير دقيقة، على أحسن الفروض. وفى عام ١٧٢ ق.م. بعد أن اقترب من عامه الثلاثين أو نحوه، دخل متطوعاً حياة العزلة والبعد عن العالم الدنيوىّ، وأقام في معبد صغير لعشتروت (Astartē) كان موجوداً بالقرب من "السيرابيون الكبير". وفى ذلك المعبد قَبِله الإله سيرابيس بوصفه "شخصاً معتزلاً"، أىّ: ناسكاً "في خدمة الإله." إن أوراق البردى لا تذكر أىّ سبب من الأسباب التى جعلت بطوليمايوس يغير من أسلوب حياته بهذا الشكل الجذرىّ. ربما كان يمر آنذاك بمرحلة حرجة مثل "أزمة نفسية" من التى يمر بها الناس قرب منتصف العمر، كما تُعرف في وقتنا الحالىّ، وربما كان هناك سبب آخر إلى جانب تلك الأزمة، إن لم يكن بديلاً عنها. إن الوثائق تُعرفنا أنه كان يحلم أحلاماً كثيرة ذات دلالات عاطفية ومليئة بالمشاعر الجياشة، وسوف ننظر إلى بعض هذه الأحلام بعد قليل. لذلك فمن الممكن أن نفترض أنه أقام في الساحة المقدسة امتثالاً لأمر إلهى تلقاه، أو اعتقد أنه تلقاه في أحد أحلامه. لقد كان اليونانيون يعتقدون منذ قديم الزمان، كما نعرف من "إلياذة" هوميروس التى تَرِدُ فيها الكلمات التالية على لسان أخيليوس، أن "الرؤى أيضاً تأتى من لدن زيوس."[٥] إلا أن هذه الأسباب كلها، بطبيعة الحال، مجرد افتراضات، وإذا كان بطوليمايوس ذاته قد سجل الأسباب التى جعلته يقدم على حياة العزلة فإن هذا السجل قد اختفى.

عاش بطوليمايوس مجاوراً بالسيرابيون ما يقرب من عشرين عاماً، وربما حتى أدركه الموت. أما واجباته "في خدمة الإله" فلا يوجد تفصيل لها في أىّ من وثائق السجل. لعل السبب الواضح في ذلك هو أنه لم تكن هناك حاجة لتحديدها، خاصة أنه هو ومعاصروه كانوا يعرفونها جيداً. وباستطاعتنا اليوم أن نستنتج بشكل عام أن مثل هؤلاء النساك كانوا يعتقدون عادة أنهم يتمتعون بعناية خاصة من إله المعبد الذي ينتمون إليه، وأنه كان يتحدث، بين أشياء أخرى، على ألسنتهم بأمور الغيب والنبوءات والمعجزات. إننا لا نعرف

ما إذا كان بطوليمايوس ذاته يقوم بأىّ من هذه الأمور، فالسجل لا يذكر شيئاً فيما يتعلق بها. وعلى الرغم من ذلك فإننا نعرف أن حياة النسك، التى كانت تفرض عليه أن يتحرك في دائرة الساحة المقدسة للسيرابيون، سمحت له أن يخرج من "الأسْرِ" في مناسبة خاصة، مثل زواج أخيه سارابيون. كذلك لم يكن مطلوباً منه أن يتوقف تماماً عن التعاملات المادية أو أن يقطع صلاته بالكامل مع العالم الدنيوىّ. أيضاً كان بطوليمايوس يتراسل بحرية مع إخوته ومع موظفى الإدارة الحكومية في العالم الخارجىّ، وكان لهؤلاء الموظفين سلطة تفوق امتياز الاستقلال الذاتىّ للمعبد. وعلى الرغم من أن المعبد كان يدفع له منحة شهرية قدرها مائة دراخمه وحصة من القمح والزيت، فإنها كانت تتأخر باستمرار، كما نعرف من السجلات، وكان يعتمد على إخوته في تزويده ببعض ضروريات الحياة، مثل الخبز وبعض الأطعمة الأخرى. ويبدو أيضاً أن هذه المساعدة الأخوية التى شكلت ولا شك نصيبه من محصول الضيعة الموروثة عن أبيهم، بالإضافة إلى منحة المعبد، جعلت موقفه المالىّ ميسراً، إن لم يكن على درجة كبيرة من الرخاء.

كان بطوليمايوس، بوصفه أكبر إخوته، على صلة وثيقة جداً بأصغرهم، أبوللونيوس، الذي كان عمره لا يزيد عن ثمانية أو تسعة أعوام عندما تُوفى والدهم. ومنذ ذلك الوقت أصبح بطوليمايوس الذي كان يقترب عندئذ من منتصف العمر تقريباً، من مكان إقامته بالسيرابيون، فى منزلة الأب *in loco parentis* في حياة أخيه الأصغر. لقد كان أبوللونيس هو الذي يحضر الطعام لأخيه بطوليمايوس من القرية. كذلك أخذ بطوليمايوس يعتمد على مهارة الغلام في الكتابة وهى المهارة التى أبداها في مرحلة مبكرة من العمر، بل ويمكننا بسهولة أن نتعرف على خط أبوللونيوس فيما يقرب من نصف الوثائق التى يتضمنها السجل. ومع ذلك، فإن مهارة أبوللونيوس الكتابية الوحيدة تتلخص في أنه كان باستطاعته الكتابة بسرعة، وفيما عدا ذلك فإن خطه كان غير منتظم ولا يجذب الانتباه من حيث الشكل، أما هجاؤه فكان أسوأ من هجاء أخيه الأكبر، وكانت معرفته بالقواعد لا تتعدى الأساسيات ولا تخلو من كثير من

الأخطاء.

على الرغم من ذلك كان لدى أبوللونيوس الاستعداد والقدرة على المثابرة، كما سنرى بعد قليل، وكان لا يعرف التعب ولا يكل في وقت الضرورة. وقبل أن يصل إلى مرحلة البلوغ أعطاه بطوليمايوس شيئاً يقارب سلطة تمثيله في كافة الشؤون والتعاملات خارج الساحة المقدسة. وعندما بلغ أبوللونيوس خمسة أو ستة عشر عاماً أو بعد ذلك بقليل، عاش حياة النسك في معبد عشتروت نفسه في السيرابيون، مثل أخيه بطوليمايوس، إلا أنه تركها بعد شهور قليلة، كما سيتضح بعد قليل بتفاصيل أكثر. حقيقة إن بطوليمايوس قد تعلم عبر الأربعة عشر عاماً التى عاشها في المعبد أن يتلاءم مع مشاعر العداوة ضد اليونانيين ومع أفعال ساكنى المعبد، وغالبيتهم من المصريين، إلا أنه حينما شملت هذه العداوة وأعمال العنف أبوللونيوس، اتخذ بطوليمايوس قراره بأن يُجنب أخاه حياة محفوفة بالمخاطر، وسعى بسرعة ملحوظة إلى العثور على ملجأ أكثر أمناً للغلام. وعندما عرف أن الملك والملكة سيزوران منف ومعابدها أعدّ التماسين يشكو في أحدهما من حادث اعتداء عليه بواسطة مصريين من بينهم كهنة وسدنة، وهى الشكوى الثالثة على الأقل التى نسمع عنها في خلال سبعة أعوام. أما الالتماس الآخر فقد طلب فيه من الملك أن يعين أبوللونيوس، لكونه ابن أحد الضباط، في الوحدة العسكرية اليونانية- المقدونية المقيمة في منف. لقد كان من شأن هذه الخطوة توفير فرصة عمل ثابتة لأبوللونيوس، إلا أنها كانت أيضاً ستزود الأسرة بفرصة الحصول على راتب جندى، بالإضافة إلى مزاياها الأخرى التى تجعل بطوليمايوس يضمن وجود بعض المعارف القوية خارج المعبد لمساعدته بصفة رسمية في نزاعاته مع المصريين المقيمين داخله. ولحسن الحظ فإن إحدى الوثائق الموجودة بالأرشيف تشتمل على نسخة من الالتماس احتفظ بها أبوللونيوس بخط يده، وتروى ما تبع تقديم هذا الالتماس من أحداث:

في العام الرابع والعشرين وفى الثانى من توت [الثالث من أكتوبر عام ١٥٨ ق.م.] قدمت الالتماس إلى الملك والملكة:

إلى الملك بطلميوس والملكة كليوباترا أخته، الإلهين فيلوميتوريس (Philomētores) [المحبين لأمهما]، بعد التحية من بطوليمايوس بن جلاوكياس المقدونيّ الأصل، من إقليم هيراكليوبوليس. كان والد جلاوكياس المذكور يحمل لقب "ابن عم الملك"، وهو أحد المستوطنين لإقليم هيراكليوبوليس، وفقد حياته وقت الأزمات،[٦] وقد توفى تاركاً إياى وأخى الأصغر أبوللونيوس. وبالنظر إلى أننى أعيش حياة النسك في السيرابيون الكبير منذ خمسة عشر عاماً، وليس لدى أطفال، فإننى بحاجة إلى أن أوفر لأخى الصغير وظيفة عسكرية بحيث يمكننى الحصول على مساعدته والعيش في أمان، ومواصلة حياة النسك. لهذا أرجو منكما يا عظماء الآلهة فيلوميتوريس أن تنظرا بعين الاعتبار إلى هذه الأعوام [الخمسة عشر] التى ذكرت وإلى مقدار حاجتى الشديدة إلى الحصول على هذه الوظيفة العسكرية لأخى بواسطة الجوء إليكما يا عظماء الآلهة ، ويا من تساعدون المحتاجين، خاصة أنه ليس لدي غيرها مما يزودنى بضروريات الحياة. وإذا تراءى لكما أن تعطونى أنا أيضاً قدراً من المساعدة التى تمنحونها كافة رجال الدين وخدامه فمُروا بإرسال التعليمات إلى الضباط المعنيين لكى يسجلوا أخى المذكور أبوللونيوس تحت قيادة ديكسيلاوس (Dexilaos) في الوحدة المقيمة في منف، بحيث يحصل على نفس الأجر وحصة المؤن التى يحصل عليها رجاله، حتى يمكننى العيش في يسر، وحتى أتمكن من تقديم القرابين لكما ولأبنائكما [وأن أدعو] أن تحكموا دائماً كافة الأراضى التى تطلع عليها الشمس. وإذا حدث ذلك سأكون قد حصلت بواسطتكم على ما يقيم أودى ما تبقى لى من عمر، والسلام.

[أمر ملكى:] ليكن ذلك وليتضمن السجل إشارة إلى التكاليف.

[أيضاً من الملك] إلى ديمتريوس [عليك بتسجيل] أبوللونيوس المقدونيّ تحت قيادة ديكسيلاؤس في الفرقة المقيمة في منف على أن يحصل على ما يتلقاه الآخرون، أىّ مائة وخمسين دراخمه، وثلاثة أرادب من القمح، على أن يحصل على أردب عيناً، وعن الأردبين الآخرين على مائة دراخمه. [التاريخ الرابع من فبراير عام ١٥٧ ق.م.]

تلى ذلك تعليمات صادرة من ديمتريوس [حذفناها لأجل الإيجاز] تتضمن خلاصة الوثائق السابقة، وموجهة إلى قائد حامية منف، ومعها نسخ موجهة إلى ثلاثة من كبار المسؤولين. بعد ذلك يُنهى أبوللونيوس السجل بكتابة ملخص للموضوع:

[في أكتوبر عام ١٥٨ ق.م.] سلمت الالتماس إلى الملك والملكة وتسلمته منه [هكذا!]، وسلمته مختوماً ومغلقاً إلى ديمتريوس، ثم أخذته منه ثانية، وأحضرته إلى أريستون وإلى ديوسكوريديس (Dioskourides) وإلى خايريمون (Chairemōn)، ومن خايريمون إلى أبوللودوروس الذي عرضه على جلسة [في الخامس والعشرين من

يناير عام ١٥٧ ق.م.]، وتسلمت أمرين ملكيين صادرين بناء على هذا العرض؛ أحدهما موجه إلى ديمتريوس والآخر إلى ديوسكوريديس. بعد ذلك تسلمت من ديمتريوس ورئيس الحرس ورئيس التعيينات أربع خطابات، أحدها موجه إلى بوسيدونيوس حاكم الإقليم، والثانى إلى أمّونيوس كبير الصرافين، والثالث إلى كالليستراتوس (Kallistratos) السكرتير، والأخير إلى ديوسكوريديس "صديق الملك" ووزير المالية. وقد سلمت الأوامر والخطابات، وعُرضت على وزير المالية الذي تلقيت من سكرتيره بطوليمايوس الأمر مرة أخرى بينما تلقيت الخطاب من إبيمينيس (Epimenēs) [رئيس مكتب المراسلات]، وأحضرتهم إلى إيزودوروس (Isodoros) المراجع الحر [؟]، وبعده أخذتهم إلى فيلوكسينوس (Philoxenos)، ثم إلى أرتيمون (Artemon)، ومنه إلى ليكوس (Lykos)، الذي احتفظ لنفسه بنسخة [من كل منها]، ثم أخذتهم إلى سارابيون بمكتب المراسلات، ثم إلى يوبيوس (Eubios)، ومنه إلى دوريون (Doriōn) الذي احتفظ بنسخة، ثم عدت ثانية إلى سارابيون، ثم عرضوا ثانية على وزير المالية، ثم تسلمتهم من إبيمينيس، وأحضرتهم إلى سارابيون الذي كتب إلى نيكانور (Nikanōr) الذي أصدر خطابين، أحدهما إلى موظف الخزانة دوريون، والآخر إلى بوسيدونيوس حاكم إقليم منف.[٧]

مهما بلغت معرفة القارئ الحديث بالبيروقراطية المعاصرة بما فيها من صعوبة ولا مبالاة، لا بد أن يُصدم بعدد الأوراق والتوقيعات التى اضطر أبوللونويس إلى الحصول عليها، وبعدد الموظفين الذين اضطر للتعامل معهم في الوقت الفاصل بين تقديم الالتماس والحصول على الوظيفة في نهاية الأمر. وعلى الرغم من ذلك فإن الصورة لا تبدو قاتمة تماماً كما قد يبدو لأول وهلة. إن وظيفة أبوللونيوس، كما هو واضح، كان لا بد من عرضها وتسجيلها بواسطة فرعين مهمين من الإدارة الحكومية، هما: الإدارة المالية من أجل دفع الراتب، والإدارة العسكرية. أيضاً لا ينبغى أن نفهم من عرض الموضوع ثانية على وزير المالية أنه مجرد زيادة في العمل المكتبيّ أو مضاعفة للمجهود، بل لوجود خطأ من نوع ما نجم في أثناء هذه الخطوات عن حذف شئ أو إضافة شئ آخر. بعد ذلك عُرضت الأوراق مرة ثانية بعد عمل التصحيحات الضرورية، وحصل أبوللونيوس في نهاية الأمر على ما كان يريد، بعد كل هذا السعى هنا وهناك. وبطبيعة الحال كان أبوللونيوس يرى أن الوظيفة تستحق، بما لها من مميزات اجتماعية وراتب وعلاوات، كل هذا المجهود المبذول في سبيل الحصول عليها.

إننا نقابل أبوللونيوس كثيراً في الأعوام التالية وهو يقوم برحلات لزيارة بسيخيس، محضراً إمدادات الطعام من القرية لأخيه بطوليمايوس، أو وهو يحضر لمجرد زيارة أخيه في المعبد. هذه الزيارات "الودية" كانت بلا شك إحدى علاوات منزلته العسكرية. إن هناك بعض الوثائق القليلة في السجل التى توضح، عند قراءتنا لما بين السطور، أن أبوللونيوس كان يقوم بهذه الزيارات لأخيه الناسك بصفته الرسمية عن طريق السعى لتعيين نفسه لمساعدة مركز الشرطة في المعبد في مهمة الإمساك بالمجرمين ومثيرى القلاقل. وعلى الرغم من ذلك علينا أن نتحدث أولاً عن ثاويس (Thauēs) وتاووس (Taous) قبل الخوض في الموضوع المتعلق بالشرطة.

التوأم:

من بين العادات المصرية القديمة الموجودة في منف عادة تقضى بأن يُعين، عند وفاة أحد العجول المقدسة للإله أبيس، توأم من الإناث ترمزان إلى إيزيس ونفتيس للقيام بواجب الحداد لمدة السبعين يوماً المحددة. هاتان الفتاتان كانتا تمكثان بعد ذلك في السيرابيون لتأدية الشعائر الدينية للعجل الجديد، وتستمران على ذلك حتى وفاته، وبالتالى يتم اختيار غيرهما لتولى شؤون العمل الجديد. وهكذا كانت تدور الدوائر.

وكما لاحظنا من قبل، كانت المؤسسة الكهنوتية المصرية في العصر البطلمىّ تلعب دور القيادة السياسية والاجتماعية، بالإضافة إلى قيادتها الدينية لأهل البلاد المصريين. ومن أجل الحصول على تأييد الكهنة الأقوياء النفوذ، أو على الأقل محاولة استرضائهم، اهتم البطالمة منذ بداية الأسرة اهتماماً خاصاً بالاشتراك في أهم المناسبات الدينية المصرية العامة، وقلدهم في ذلك عديد من السكان اليونانيين–المقدونيين. وهكذا، على سبيل المثال، احتفل الملوك البطالمة بأعياد إيزيس، وكانوا يحضرون في غالب الأحيان الطقوس الجنائزية لدفن العجل أبيس، وتلك المتعلقة باختيار خليفته. كذلك احتفظ الملوك

البطالمة بعلاقات طيبة وقوية مع الأسرة التى توارثت المناصب الكهنوتية العليا في منف. وابتداءً من عهد بطلميوس الخامس، على الأقل، كان كل ملك جديد من ملوك الأسرة يتوج في منف بواسطة كبير كهنة الإله بتاح الذي يُعبد في معبده أيضاً الإله أبيس.[٨]

وفى خلال السنوات السبع الأولى من إقامة بطوليمايوس في السيرابيون أو بعدها بقليل، عُين توأم جديد من أجل عبادة أبيس، أسماؤهما هى ثاويس وتاوس. ويظهر هذا التوأم في حوالى خمسين وثيقة تُشكل ما يقرب من نصف السجل. وبالنظر إلى أن بطوليمايوس كان وثيق الصلة بوالدهما قبل تعيينهما في عبادة أبيس، فقد تولى رعايتهما، وأصبح بعد ذلك ممثلاً لهما في الاتصالات والمراسلات التى تجرى مع الجهات الرسمية. وعلى الرغم من أن الفتاتين كانتا تعرفان اللغة المصرية وتكتبانها، إلا أنهما كانتا لا تعرفان الكتابة باليونانية. لهذا فإننا لا نعرف ما إذا كان بطوليمايوس يحادثهما بلغتهما المصرية أم أنهما كانتا تتحدثان اليونانية، ولا يساعدنا السجل على الفصل في هذا الموضوع.

وقد وصلت إلينا قصة لجوء الفتاتين إلى بطوليمايوس طالبتين مساعدته، مسجلة في التماس كتبه لهما هو وأخوه أبوللونيوس، ولمّا يمر على قدومهما للسيرابيون وقت طويل. وتوجد ثلاث روايات لهذا الالتماس تتميز أولاها بالقصر، وثانيتهنّ بأنها أطول نوعاً ما وتحتوى على تفاصيل أكثر، أما الأخيرة فمنمقة وتشكل الرواية النهائية التى سلمت بالفعل نسخة منها. ويمكننا أن نتعرف على الخطوط الرئيسة للقصة من الرواية الأولى، بالإضافة إلى جزء مكمل من الرواية الثانية، وفيها نلحظ بشكل خاص أن أم الفتاتين المصرية تركت زوجها المصرىّ لتعيش مع جندىّ يونانيّ. كذلك نلحظ أن مكانة الجندىّ اليونانىّ الأرقى جعلت الأم، بالتأكيد، تعامل ابنتيها المصريتين بنوع من الغطرسة والغرور، أو على الأقل كانت هذه المكانة هى السبب الأقوى وراء هذه المعاملة:

إلى الملك بطلميوس والملكية كليوباترا أخته، الإلهين فيلوميتوريس، بعد التحية من

ثاويس وتاوس، التوأم اللتان تؤديان طقوس العبادة في السيرابيون الكبير في منف، وتصبان القرابين لأوزيرابيس من أجل خيركم وخير أبنائكم. إننا نلجأ إلى حكماكم راجين الحصول على حقنا بعد أن ظلمتنا أمنا نيفوريس (Nephoris) وابنها باخراتيس (Pakhratēs) [أخونا غير الشقيق] مُن أكثر من وجه. لقد تركت أمنا أبانا وانتقلت للعيش مع فيليبوس بن سوجينيس (Sōgenes) الجنديّ في فرقة ....، وأخذت تحث فيليبوس على قتل والدنا حتى أنه ذهب إليه مستلاً سيفه. وقد هرب والدنا، وقفز في النهر الواقع إلى جوار منزلنا مباشرة، وعام تحت الماء حتى وصل إلى جزيرة في النهر، وهناك انتشله أحد القوارب، وذهب به إلى هيراكليوبوليس التى أقام بها حتى أدركه الموت من الحزن. وقد ذهب إخوته لإحضار جثته وأودعوها الجبانة حيث ما يزال يرقد جثمانه هناك دون دفن [بمعنى أنه لم يتلق بعد الشعائر الجنائزية اللائقة على يد زوجته نيفوريس]. وعلى الرغم من ذلك وضعت أمنا يدها على كل ممتلكاته التى تحصل منها على إيجار شهريّ قدره ألف وأربعمائة دراخمه نحاسية، كما أنها طردتنا [من منزلنا]، ولجأنا تحت وطأة الجوع إلى السيرابيون إلى بطوليمايوس، أحد النساك المقيمين بالمعبد. وقد أحسن بطوليمايوس الذي كان صديقاً لوالدنا استقبالنا، وتولى إطعامنا. وعندما أتى وقت الحداد [على أبيس] أنزلنا [الكهنة إلى السرداب] للتعديد على الإله. وقد أقنعنا بعض معارف نيفوريس أن نأخذ ابنها باخراتيس لمساعدتنا ... وفى مقابل ذلك سرق كل ما يوجد لدينا في السيرابيون وكل ما أحضروه لنا من التعيينات الملكية، أىّ ميتريتيس (*metretes*) من الزيت، وذهب بها إلى والدته. ولكن الناسك بطوليمايوس الذي يقيم في المعبد المذكور استقبلنا، امتثالاً لأوامر الإله....

إن أول مسودة للالتماس تنتهى عند هذا الحد، ولم تحدث أية محاولة لاستكمالها. أما الرواية الثانية فتنتهى بالطلب التقليدىّ، الذي شاهدناه مراراً في الفصل الرابع، بأن تصدر الأوامر لحاكم الإقليم لكى يأمر المسؤولين المحليين ليستعيدوا الأشياء المسروقة، و"ليجبروها، إذا كانت تحتفظ دون وجه حق بميراثنا عن والدنا، أن تعيده إلينا؛ حتى نكون قد حصلنا بذلك على مساعدتك وعونك."[٩]

إن معظم الوثائق الأخرى التى تظهر فيها الأختان تشكل طلبات أو حسابات لكميات من الزيت والمواد التموينية الأخرى. وبالمقارنة بهذه الأمور الدينية تتفاوت تفاوتاً شديداً الأحلام المسجلة على ثلاث برديات يونانية وفى نصّين بالخط الديموطيقىّ، أحدهما على ورقة بردى والآخر على "أوستراكون" (*ostrakon*) ، أىّ قطعة فخار. وفى واحد من هذه الأحلام نجد أن الرؤيا

لإحدى الفتاتين، بينما شاهد بطوليمايوس الرؤى الأخرى التي تظهر فيها الفتاتان أيضاً:[١٠]

١. الرؤيا التى رأتها الفتاة ثاويس، إحدى التوأم، في السابع عشر من بشنس: لقد رأيت في منامى أننى أسير في الطريق، وأنا أعد تسعة منازل. بعد ذلك أردت أن أعود وقلت "كل هذه المنازل عددها تسعة على أكثر تقدير." ثم قال بعض الناس: "حسن، باستطاعتك أن تذهبى الآن،" فقلت: "إن الوقت متأخر جداً الآن."

٢. الرؤيا التى رآها بطوليمايوس ليلة عيد القمر في الخامس والعشرين من بشنس: يتراءى لى أننى رأيت ثاويس وهى تغنى بصوت عال ورخيم جداً، وهى في حالة انشراح، كما رأيت أيضاً تاوس وهى تضحك وقدمها كبيرة ونظيفة.

٣. في التاسع والعشرين: [رأيت] رجلين يعملان في الشرفة. كانت تاوس جالسة على درجات السلم، وتمزح معهما، وعندما سمعت صوت خينتوسنى (Khentosney) عادت في الحال. وقال الرجلان إنهما سوف يعلمانها .... [باقى البردية مفقود].

٤. رؤيا بطوليمايوس في الخامس عشر من بشنس: أتى رجلان إلى وقالا لى: "بطوليمايوس، خذ العملات النحاسية لأجل الدم." ثم عدّا مائة دراخمه نحاسية لى ولثاويس، الفتاة التوأم، أعطيا حافظة نقود مليئة بقطع نحاسية من فئة الأربع دراخمات، ثم قالا لها: "انظرى، العملات النحاسية لأجل الدم." بعد ذلك قلت لهما: "إن معها عملات نحاسية أكثر منى".

٥. الرؤيا التى رأيتها في العشرين من بشنس: لقد رأيت نفسى وأنا أعد [أيام الشهر]، قائلاً: "الأول من توت العام العشرين، [الثانى من توت، وهكذا]، حتى وصلت إلى العشرين.

٦. الرابع من بشنس، العام ٢٣: رأيت في منامى أننى أنادى كثيراً على الإله العظيم جداً آمون أن يظهر لى من الشمال في ثالوثه، وأتى الإله في نهاية الأمر. وقد رأيت أن هناك بقرة في المكان وأنها تنوء بحملها الصغير وقد أمسك الإله بالبقرة وأرقدها على الأرض. بعد ذلك أدخل يده في بطنها الممتلئ وأخرج منها عجلاً.

٧. ما رأيته في منامى أرجو أن يجلب لى الخير. الثالث والعشرون من بشنس، يوم مولدى.

– من بطوليمايوس إلى داموكسينوس (Damoxenos)، بعد التحية. في العام الثالث والعشرين في الليلة الواقعة بين اليومين الثانى عشر والثالث عشر من شهر طوبة، رأيت [في منامى] أننى أسير في منف من الغرب إلى الشرق، وأتيت على كومة من التبن في الوقت الذي أتى فيه أيضاً رجل من الغرب إلى الكومة نفسها. لقد كانت عيناى نصف مغمضتين تقريباً، وفجأة فتحتهما لأجد أمامى الفتاتين التوأم في مدرسة

توثيس (Tothēs)، واللتان نادتا عليّ. ورددت عليهما: "حاولا ألا يكون قلبكما ضعيفاً. لقد تعبت توثيس في سبيل العثور عليّ لأنني عكست وضع سريري." ثم سمعت توثيس تقول: "اذهب، لماذا تقول ذلك؟ إنني سأحضر التوأم لك." ثم رأيتك وأنت تحضرهما بنفسك، وسعيت أنا إلى مقابلتهما، حتى وصلت إليهما، وسرت معهما في الطريق، ثم قلت لهما: "إن أمامي وقت قصير في هذا المكان العلويّ، وما هو أنا سوف يختفي في صباح الغد." وفي الحال شاهدت إحداهما وهي تذهب إلى مكان مظلم في بيت أحد الناس، ثم تجلس وتُعد بعض الماء. كما شاهدت الأخرى وهي جالسة جانباً. ثم قلت لهيرمائيس (Hermaïs) أن يدعه يأتي."

– كذلك رأيت أكثر من ذلك، ودعوت مرة ثانية سيرابيس وإيزيس قائلاً: "هلمي إلى إلهة الآلهة، وكوني رحيمة بي، واستجيبي لدعواتي. ارحمي التوأم، فأنت التي جعلت منهما توأماً. حرريني، واعطفي علي من أجل لحيتي البيضاء. إنني أعرف أنني سأموت في خلال وقت قصير، ولكنهما ستكونان امرأتين، وإذا حدث وأصابهما دنس فإنهما لن تتطهرا بعد ذلك أبداً.

– في الرابع والعشرين رأيت أنني على قمة برج كبير في الإسكندرية، وكان وجهي جميلاً حتى أنني لم أجعل أحداً يشاهده، لأنه كان جميلاً جداً. كذلك كانت هناك امرأة عجوز جالسة إلى جواري، بينما تجمع حشد من الناس حولي من الشرق وإلى الشمال، وهم يصيحون أن رجلاً قد احترق حتى تفحم. ثم قالت لي المرأة: "انتظر لحظة وسوف آخذك إلى الإله كنيفيس (Knephis) حتى تركع أمامه وتتعبد له."

– وشاهدت أنني أقول لرجل كبير السن: "أبي، ألا ترى هذه الرؤى التي رأيتُها؟" وأخبرته عنها بالتفصيل. ثم أعطاني قطعتين من نبات الغاب نظرت فيهما ورأيت كنيفيس. ابتهجوا يا إخواني، فإنني سأحصل سريعاً على خلاصي. لقد شاهدت رؤى أخرى ولكن هذه الرؤى هي أكثرها جمالاً. إنكم تعرفون أن همّي الأول هو أن أؤمن حياة التوأم، فإنني لست قلقاً على أيّ شئ آخر. لهذا، اطلب من الفتاتين أن تحضرا إليك، وأخبرهما أنني راحل. لقد أتى إلى أموزيس، وأعطاني إذناً بالرحيل، وسأغادر خلوتي.

– [الرؤيا] الأولى: رأيت أنني أسير في رواق سيرابيس مع سيدة تدعى تاوي (Tawē) وهي عذراء. ثم سألتها: "هل قلبك في حيرة يا تاوي؟" فأجابت: "إن أختي تاووس ستغضب مني."

– الثانية: رأيت أنني أسمع شخصاً يخاطب رجلاً، قائلاً له: "ناد بصوت عال: "أبوللونيوس، أنت يونانيّ، أما ....، فمصريّ."

– الثالثة: أنا في منزلي مع أخي الأكبر، وهو يبكي.

– الرابعة: عثرت على رجل من أولئك المقيمين في المكان دون وجه حق.

- الخامسة: .... سيدة .... [البقية مفقودة].

- [الرؤيا] الأولى: رأت الفتاة أنها في منف، وقد أخبروها أن والدتها في خطر بسبب الفيضان المرتفع. بعد ذلك أخذت الفتاة تسبح حتى وصلت إليها وأنقذتها في معبد أنوبيس (Anubis).

- [رؤيا] أخرى: إننى في منزل ...... ، وشخص يقول إن حوروس الكاتب سيتزوج أختى. يجب أن أتحدث إليها لأسأل ما إذا كان يحبها. ثم قلت له: "احبب أختى." إذا كان يحبها فسوف تحبه..... [باقى البردية مفقود].

اليوم الخامس من برمهات من العام الثانى والعشرين: الرؤى التى رأتها نيكتيمبيس (Nektembes)، والتى تتعلق بالتوأم وبى:

- الرؤيا الأولى: رأيت أبوللونيوس مقبلاً على وهو يقول: "تحية طيبة لك يا نيكتيمبيس."

- الرؤيا الثانية: فافيرى سى إنريئيكس *phaphere si enreëx* في بوباستيس خمينى *khmenni* في منزل آمون بيل ليل خاسون خانى *pel let khason khani*.

- الثالثة: رأيت بطوليمايوس ممسكاً بسكين في يده، وهو يسير في الطريق، ثم طرق أحد الأبواب، ثم فتح الباب. ثم تشاجر بطوليمايوس وحاول ضرب الرجل الآخر، فقلت: "لا تفعل وإلا قضيت على عبدك. إن السيد لا يقضى على عبيده."

- الرابعة: رأيت سيدة جالسة على وسادة يجلس عليها معها طفل، بينما يجلس طفل آخر على وسادة مواجهة لها. وقلت لها: "إن وسادتك تخرج خضروات وكرنباً." ظلت المرأة ساكنة ولم تتحرك.

في الرابع والعشرين من برمهات: الرؤى التى رأتها نيكتيمبيس عن العناية الإلهية بى وبالتوأم، وأن منزلى يَحل به الحظ الطيب:

- الرؤيا الأولى: رجل جالس يقول لى: "أعطنى الجلد الذي بقدمك، وسأعطيك أنا ما بقدمى،" فرددت عليه قائلاً: "إننى لا أريد ذلك."

- الثانية: رأيت أن شخصاً ينظف منزلاً ويكنسه حتى جعله نظيفاً.

- الثالثة: رأيت أن يمامة طارت من يدى وأننى جريت وراءها وأنا أقول لنفسى: "بالتأكيد لن أتركها تهرب،" ثم أمسكت بها، ووضعتها في يدى اليسرى وأحطتها بسعفة نخيل حتى لا تهرب.

- الرابعة: رأيت امرأتين جالستين مع رجل، وهما تتضاحكان معه، وتُقسمان قائلتين: "وإيزيس المقدسة."

[قائمة أحلام]

عن أخي وعن بطوليمايوس وعن ثاويس وعن سارابيون وعن المكان الذي سيذهب إليه.

في الرؤيا عن ثاويس وهاربائيسيس (Harpaēsis) وكلمات: "بطوليمايوس إلى المحرقة."

"... على الرغم من أنني يونانيّ":

كان الإله سيرابيس الذى يجمع بين صفات يونانية ومصرية يتمتع، كما لاحظنا من قبل، بشعبية كبيرة عند المنتمين إلى هاتين الثقافتين. كذلك تقبل كل منهما بسهولة عملية الامتزاج بين آلهتهم الأخرى وآلهة الثقافة المقابلة، كما فى حالة إيزيس وديميتر (Demeter)، وإيمحتب وأسكليبيوس، وحتحور (Hathor) وأفروديتى، وهكذا؛ وإن كانت بعض الأماكن فضلت المزج بين الآلهة بصورة أخرى. ومع ذلك فإن القبول السهل للآلهة ذاتها لم يزد العلاقات قوة بين أتباعها. لقد كان معظم العاملين في معبد السيرابيون الكبير في منف، سواءً أكانوا كهنة أم عمالاً عاديين، على ما يبدو، من المصريين. إن العلاقة الطيبة بين الفتاتين المصريتين وبطوليمايوس المقدونيّ الأصل، الذي تولى رعايتهما، ربما تعكس الأوضاع العامة للتعاملات اليومية الموجودة في ساحة المعبد. ومع ذلك، فإذا كان هذا الوفاق والتسامح المتبادل هو الأساس، فإن كثيراً من المصريين كانوا يشعرون بمشاعر السخط تجاه وجود بعض الأفراد، وتجاهمكانتهم الاجتماعية، من أمثال بطوليمايوس، الذين ينتمون إلى الطبقة الحاكمة الناطقة باليونانية، والذين نظر إليهم المصريون على أنهم متطفلون على الطقوس الدينية المصرية. إن جذور هذه العداوة لم تُقتلع أبداً، ولم يخفف من حدتها مرور الوقت، بل على النقيض من ذلك، كان الوقت يزيد منها. لقد استمرت هذه العداوة مظهراً من مظاهر سخط المصريين القوى تجاه امتيازات اليونانيين، وهو سُخط كان يوجد في المناطق المحلية وتزداد حدته فيها. ولم يكن هذا السخط يستقر بعيداً عن سطح الحياة اليومية، وكما شاهدنا في الفصلين

الأول والرابع، كانت أبسط حوادث الاستفزاز كافية لجعله يتحول إلى أعمال حقودة وعنيفة. وقعت إحدى هذه الحوادث في السيرابيون، كما نعرف، عام ١٦٣ ق.م. وفيما يلي وصف بطوليمايوس للواقعة:

إلى ديونيسيوس "صديق الملك" وحاكم الإقليم، من بطوليمايوس بن جلاوكياس، المقدونيّ الأصل، والناسك في السيرابيون منذ عشرة أعوام. لقد أساء إلى الذين يتناوبون الخدمة في المعبد المذكور ويقومون بعمل الخبز فيه.... ففى [الثانى عشر من نوفمبر] أتى هؤلاء إلى معبد عشتروت الصغير حيث أقيم لتأدية الشعائر الدينية واقتحموا المكان، وهم يريدون إخراجي وطردى منه، كما حاولوا من قبل في السنوات الماضية، في أثناء حركة التمرد، هذا على الرغم من أننى يونانيّ. وعندما أدركت أنهم فقدوا صوابهم، أغلقت على نفسي المكان، ولكنهم وجدوا مساعدى هيرمائيس (Hermaïs) في الممر فأوسعوه ضرباً بأدواتهم البرونزية. لهذا، فإننى أرجو منك أن تصدر أوامرك إلى مينيديموس (Menedēmos) قائد الشرطة في المركز الموجود في ساحة معبد أنوبيس في المنطقة لكى يعطونى حقوقى، وإذا لم يلتزموا [بهذه الأوامر] أن يرسلهم إليك حتى تحكم في أمرهم، أنت يا من تكره الأذى، والسلام.

[من حاكم الإقليم] إلى مينيديموس. اهتم بأن يحصل على حقوقه.

كما يقول بطوليمايوس لم يكن هذا الاعتداء هو الأول من نوعه، مثلما أنه لم يكن الأخير. وبعد عامين من هذا التاريخ قدم بطوليمايوس الالتماس التالى إثر حادث اعتداء عليه:

إلى ديونيسيوس "صديق الملك" وحاكم الإقليم من بطوليمايوس بن جلاوكياس، المقدونيّ الأصل والناسك في معبد السيرابيون الكبير منذ اثنى عشر عاماً. لأننى قد أوذيت أذى شديداً وتعرضت حياتى للخطر عدة مرات على يد العاملين في نظافة المعبد، التالية أسماؤهم. [لهذا] فإننى ألجأ إلى حمايتك طالباً العون، ومعتقداً أننى سأحصل على حقوقى بلجوئى إليك. في [التاسع من نوفمبر عام ١٦١ ق.م.] أتى هؤلاء إلى محراب عشتروت في ساحة المعبد التى أقيم فيها الأعوام المذكورة منذ أن تنسكت في خدمة الإله، وحاولوا اقتحام المكان علىّ وبعضهم يمسك بالحجارة والبعض ممسك بالعصىّ؛ لكى ينهبوا المعبد، وقد دفعتهم حتى أخرجتهم وأغلقت الباب، وطلبت منهم بأعلى صوتى أن يعودوا في سلام إلا أنهم لم يرحلوا. وعندما أعلن ديفيلوس (Diphilos)، أحد العاملين المجاورين في خدمة سيرابيس، استنكاره لصنيعهم هذا في مثل تلك الساحة المقدسة، دفعوه وأساءوا معاملته، وأوسعوه ضرباً بفظاعة حتى أن أعمالهم العنيفة والمحرمة كانت ظاهرة للعيان. هؤلاء الأفراد عاملونى بالطريقة نفسها [في نوفمبر عام ١٦٣ ق.م.] وقدمت إليك التماساً في ذلك الوقت ولكننى لم أجد

من يجعلهم يلتزمون [بقرارك] بهذا الالتماس، مما نجم عنه أنهم لم يرتدعوا، بل ازدادوا في غيهم واحتقارهم. لهذا، فإننى أطلب منك، إذا رأيت ذلك مناسباً، أن تأمرهم لكي يحضروا إليك حتى يلقوا ما يستحقونه، والسلام.

[المتهمون هم:] ميس (Mys) بائع الثياب، وبسوسناوس (Psosnaus) الحمال، وإيموثيس (Imouthes) الخباز، وهاريمباسنيس (Harembasnis) بائع الحبوب، وستوتوئيتيس (Stotoëtis) الحمال، ومعهم آخرون لا أعرف أسماءهم.

تلت هذه الواقعة حادثة أخرى بعد ثلاث سنوات، ثم تلاها اعتداء آخر بعد عامين، وهو الاعتداء الذي وجه بعده بطوليمايوس التماساً إلى الملك والملكة، وقال فيه: "إن العاملين بالمعبد أناس شريرون، وإنهم يحاصروننى "على الرغم من أننى يونانيّ"... إن بعضاً منهم يضايقوننى، ويلقون على الحجارة من نافذتى." هذا الاعتداء هو الأخير من نوعه الذي نجده في السجل الذي وصل إلينا، وعلى الرغم من ذلك لا يوجد ما يدعو إلى افتراض أن الاعتداءات لم تتكرر من حين لآخر طوال المدة المتبقية التى قضاها بطوليمايوس في السيرابيون.[11]

إننا نصل بذلك إلى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد، وقد لاحظنا للتو موقفاً، على الأقل، يدل على أن بعض العناصر السكانية المصرية كانت أقل هدوءاً واستكانة وأكثر عدوانية مما رأينا في القرن الماضى. لم يكن هذا التحول التاريخى ظاهرة عارضة، مثلما لم يكن ظاهرة معزولة قاصرة على السيرابيون في منف. لقد كان هذا هو الوقت، كما رأينا وكما سنرى فيما بعد، الذي بدأ فيه النفوذ الملكيّ تحت تأثير التهديد الدائم من القوى الخارجية وتحت تأثير الوهن الناجم عن الحروب الأسرية المتكررة في الداخل، مرحلة انحدار لا عودة منها، وتختلف عن القرن الأول من الحكم البطلميّ بما له من سيادة ومَنعة. إن التداخل بين هذه العوامل والتطورات، وبعضها البعض، أمر واضح تماماً. إننا سوف نلاحظ في أثناء تجوالنا بين وثائق النصف الأخير من القرن الثانى وبين وثائق القرن الأول تأكيداً متزايداً على التقاليد والقيم المصرية، وهو التأكيد الذي يتضح بشكل خاص في المناطق التى تفتقر إلى وجود قوى وملحوظ لليونانيين، وإن لم يقتصر عليها.

الحواشى:

---

(١) لقد كانت كلمة سيرابيوم *Serapeum* التى تمثل الهجاء اللاتينى للاسم هى المستخدمة عادة في السابق. وبالنسبة للتقليد الحديث العهد الذي يميل إلى الاحتفاظ بالصيغة اليونانية الأصلية للأسماء، راجع التمهيد الموجود في أول هذا الكتاب.

(٢) انظر: *UPZ* 106

(٣) انظر: M. J. Price and B. L. Trell, *Coins and Their Cities,* London, and Detroit, 1977, 183

(٤) انظر: *P. Oxy.* 1381, lines 61-278

(٥) الاقتباس من "الإلياذة"، الكتاب الأول، البيت رقم ٦٣ .

(٦) سوف نناقش الأزمات التى فقد فيها جلاوكياس حياته في الفصل السادس.

(٧) انظر: *UPZ* 14

(٨) راجع: D. J. (Thompson) Crawford, *Studia Hellenistica,* 24, 1980, 5-42 من أجل مزيد من المعلومات التفصيلية عن هذه الأمور.

(٩) المسودتان اللتان ترجعان إلى عام ١٦٣ ق.م. هما: *UPZ* 18 and 19

(١٠) الأحلام مجموعة في: *UPZ* 77-80 إن الكلمات التى تحتها خط في القطعة الأخيرة ربما كانت كلاماً لا معنى له. إنها ليست باللغة اليونانية، وإذا كان المقصود منها أن تعنى شيئاً باللغة المصرية فإنها محرفة جداً إلى حد أنه لم ينجح أحد فى تفسيرها حتى الآن.

– لقد كان آمون بعد اقترانه بالإله زيوس في جانب من جوانب تجلياته هو أول الآلهة اليونانية التى انتشرت في مصر. ويرجع مركز النبوءة المشهور لهذا الإله، الموجود في واحة سيوة بالصحراء الغربية، إلى القرن السادس أو السابع قبل الميلاد، على الأقل. أما أنوبيس فكان إلهاً مصرياً للجبانة، ويصور على هيئة كلب أسود كبير.

(١١) إن البرديات المقبسة هى: *UPZ* 7, 8 and 15 أما التمرد المشار إليه في الوثيقة الأولى، والذى تم القضاء عليه قبل عام أو عامين من تاريخها، فهو التمرد الذي فقد فيه والد بطوليمايوس حياته؛ انظر الفصل السادس.

الفصل السادس

يونانىّ بين المصريين:
ضابط الخيالة دريتون وأسرته

الزمان: ترجع الوثائق المتعلقة بالموضوع بشكل مباشر إلى المدة الواقعة بين عام ١٥٠ و عام ٩٩ ق.م.، ولكنها تضم إشارات إلى أحداث تسبق عام ١٧٥/١٧٦ ق.م. وبينما يعتقد بعض الدارسين أن إحدى وثائق عام ١٧٤ ق.م. تنتمى إلى هذا السجل، فإن أحدى الوثائق التى ترجع إلى عام ١٦٢ ق.م. تسجل شراء أحد الأفراد لأرض باعها بعد عامينٍ إلى عمة [أو خالة: المترجم] زوجة دريتون (Dryton)، التى كانت تدعى أبوللونيا (Apollonia).

المكان: إقليم طيبة: المنطقة: المنطقة الواقعة بين مدينة بطلمية ومدينة باثيريس (Pathyris). (راجع: الخريطة رقم ٣).

الوثائق: يبلغ عدد الوثائق حوالى أربعين وثيقة تضم أربع قطع من الفخار، وحوالى عشر برديات بالخط الديموطيقىّ. وبينما توجد نصف الوثائق البردية في لندن، فإن بقيتها متناثرة بين مجموعات في برلين والقاهرة وشيكاغو وفريبورج (Fribourg) وجيسين (Giessen) وهايدلبرج (Heidelberg) ومايز (Mains) ومانشيستر (Manchester) ونيويورك وباريس واشتراسبورج (Strasbourg). ربما كانت هناك أيضاً بعض الوثائق التى لم تنشر بعد؛ إن البردية الديموطيقية التى تم شراؤها عام ١٩٢٠م، على سبيل المثال، والموجودة في شيكاغو، لم تفتح حتى عام ١٩٧٩م، ولم تنشر إلا عام ١٩٨٤م.

شجرة العائلة: راجع: الشكل رقم ١ والشكل رقم ٢، في نهاية الفصل.

ولد دريتون بن بامفيلوس (Pamphilos) حوالى عام ١٩٥ ق.م.، وكان مواطناً في بطلمية، المدينة اليونانية التى تقع في مصر العليا، وكان له أخ وربما أخَان، لا نعرف ما إذا كان يصغرهما أو يكبرهما سنّاً. وقد عاش

دريتون حتى توفى بين عامي ١١٣ و ١١٢ ق.م.، وهو الأمر الذي يجعله من المعمرين حسب متوسط الأعمار السائد في ذلك الوقت؛ إذ أنه عاش ضعف ذلك المتوسط. وتدلنا إحدى أوراق البردى التى ترجع إلى عام ١٧٤ ق.م. على أوصافه، وعلى أنه كان رجلاً طويل الشعر ويمشطه إلى الخلف، بينما كان وجهه يتسم بالطول، وكان معقوف الأنف. ويرى بعض الدارسين أن هذه الأوصاف هى لدريتون، إلا أنه ينبغى النظر إلى الأمر ببعض الشك؛ لأن الرجل يوصف أيضاً بأنه أبيض البشرة. أما دريتون ذاته، فقد ذكر في وصيته التى كتبها عندما قارب الخمسين، واصفاً نفسه، بأنه: "متوسط الطول، داكن البشرة، ولديه أثر جرح على حاجبه الأيمن، وأصلع الرأس." إن التحول من شخص طويل الشعر إلى أصلعه في منتصف العمر أمرٌ مألوف وشائع، ولكن تغير لون البشرة أمرٌ مختلف تماماً.[١]

لقد قضى دريتون حياته كلها بعد البلوغ يعمل جندياً في حامية عسكرية، ويؤدى مهام الشرطة في مراكز تقع إلى شمال مدينة ديوسبوليس الكبرى، أىّ مدينة الإله زيوس، وجنوبها، وهو الاسم الذي أطلق على طيبة في عهد البطالمة. وتدل وثائق السجل على أنه كان يستطيع القراءة والكتابة، وإن لم تشر إلى مستوى التعليم الذي وصل إليه. وكان دريتون ينتمى إلى بوليتيوما الكريتيين، وربما لا يعنى ذلك أكثر من مجرد توزيع إدارىّ، كما أوضحنا في نهاية الفصل الأول (ص ٦٠). على الرغم من ذلك فإن اسمه واسم ابنه، الذي حمل اسم جدّه لوالدته، يدلان على أنه كان من أصل دورىّ، وهو الأصل الذي ينتمى إليه سكان جزيرة كريت، مما يجعل المنطقة الدورية الموطن الأصلىّ لعائلة دريتون وعائلة زوجته سارابياس (Sarapias). ولا تبين الوثائق الوقت الذي هاجرت فيه هذه العائلات إلى مصر، وربما شهد أجدادهم تأسيس مدينة بطلمية، وربما أتوا في السنوات التى أعقبت هذا التأسيس. ومع ذلك فإن قصة حياة دريتون، بالكيفية التى نقرأ عنها في هذا الفصل، تبدو وكأنها قصة رجل عاشت أسرته في مصر لمدة تصل إلى أجيال عدة.

كانت سارابياس أيضاً من سكان مدينة بطلمية، تماماً مثل دريتون، إلا

، أمر كونها زوجته الأولى أو الثانية ما يزال لغزاً محيراً. هناك إشارة في
ىدى الوثائق إلى وصية أعدها دريتون قبل عام ١٧٥/١٧٦ ق.م.، ولأننا
رف أنه كتب وصية أخرى، وصلت إلينا ُمنها نسختان مهترئتان، متزامنة مع
وقت الذي حدث فيه زواجه الثانى، فإنه يفترض عادة أن الوصية الأولى كتبت
ي أثناء زواجه الأول، وأن الزوجة في هذه الحالة هى سارابياس. لقد كان
ريتون يبلغ عندئذ حوالى الثامنة عشرة أو العشرين من عمره، وهو سن
ناسب للزواج لأول مرة؛ وفى واقع الأمر لا يوجد شئ آخر يمكن أن يجعل
ثاباً مثله يكتب وصيته ويسجلها في مثل ذلك العمر. إن صعوبة التفسير تزداد
ند معرفتنا أن الابن الوحيد لسارابياس المذكور في السجلات، ويُدعى
ستلاداس (Esthladas)، ولد حوالى عام ١٥٨ ق.م. ولهذا، إذا كان دريتون قد
زوج سارابياس عام ١٧٦ ق.م.، فإن علينا أن نأخذ بأحد افتراضين لا يبدو أى
نهما مقنعاً تماماً. أول هذين الافتراضين هو أن تكون سارابياس قد مرت
فترة عقم استمرت الخمسة عشر عاماً الأولى من الزواج، أو أكثر، وهو وضع
بما يدفع دريتون إلى تطليقها قبل أن يولد إستلاداس بمدة طويلة. أما
لافتراض الآخر فهو أن تكون قد شهدت طوال هذه الأعوام حالات متكررة من
لإجهاض أو من وفاة الطفل في أثناء الولادة، أو حتى بعد فترة وجيزة من
ولادتهم وأثناء الطفولة. ومن الناحية الإحصائية يبدو من غير المعقول ألا
يعيش ولو واحد من هؤلاء الأطفال الذين ولدوا قبل إستلاداس، الذي أنجبته بعد
ن تخطت الثلاثين بمدة. من ناحية أخرى إذا كان إستلاداس قد ولد بشكل
طبيعى بعد زواج والدته من دريتون، فمن غير المحتمل أن يكون هذا هو
زواج الأول لدريتون الذي كان يقترب عندئذ من عامه الأربعين. وسواءً
كانت سارابياس الزوجة الأولى أم الزوجة الثانية لدريتون، فإنها تختفى تماماً
ن السجل بعد ولادتها لإستلاداس مباشرة. ربما انتهى زواجها بالطلاق، وإن
كان الاحتمال الأكبر أنها توفيت. وعلى أية حال فقد أتى الأب لابنه، قبل أن
يبلغ الأخير عامه العاشر، بزوجة أب، وانتقل به للإقامة في مكان جديد، في
باثيريس.[٢]

وقد انتقل دريتون إلى باثيريس في الظروف التالية. في النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد كان العرش المصرىّ يهتز بسبب الغزو الخارجىّ من سوريا وبسبب الثورات التى يقوم بها أهل البلاد في الداخل. وكانت طيبة هى المركز التقليدى لحركات التذمر والمقاومة؛ لأنها كانت مقر كهنة إله الشمس المصرى الذين يتمتعون بالغنى والقوة والمنزلة الرفيعة. وبالإضافة إلى ذلك كان الملك بطلميوس السادس وأخوه الذي يصغره والذى عاش بعده وخلفه في الحكم، والذى عاش أطول مدة حكمها ملك من ملوك الأسرة، قد بدءا صراعاً مسلحاً حول العرش منذ عام ١٦٧ ق.م.، وهو الأمر الذي أتاح الفرصة بسهولة لحركات تمرد أخرى. أيضاً لا شك في أن بطلميوس السادس، في أثناء استعداده للغزوة المضادة التى قام بها بعد عدة أعوام ضد سوريا، قد زاد من قوات الحراسة حول المراكز الرئيسة التى قد تسبب نوعاً من المشكلات، من قبيل الاحتياطات الأولية. ربما دفعت هذه الأحداث، أو بعضها، بطلميوس إلى تأسيس أو تقوية الحاميات الموجودة في باثيريس وكروكوديلوبوليس القريبة منها. وبهذه الطريقة عزلت طيبة بين فكى كماشة، إذ أن هاتين المدينتين تقعان إلى الجنوب من طيبة، بينما تقع إلى شمالها مدينة بطلمية ومدينة ديوسبوليس الصغرى.

لقد انتقل دريتون إلى باثيريس عام ١٥٢ ق.م.، وهناك تزوج بعد وقت قصير واستقر ما تبقى له من عمر. كذلك لم تؤثر رحلة أو رحلات العمل التى قام بها إلى كروكوديلوبوليس بأية حال على إيقاع حياته في باثيريس؛ إذ أن المكانين كانا قريبين من بعضهما البعض بدرجة كافية تسمح، كما تعرفنا الوثائق، بأن يكون لهما كاهن واحد. وفى مرة واحدة على الأقل نُقل دريتون حوالى عام ١٣٦ ق.م. مرة ثانية إلى ديوسبوليس الصغرى، التى تبعد حوالىّ مسيرة يوم، أىّ سبعين كيلومتراً تقريباً، عن مكان إقامته، إلا أن النقل لم يستمر طويلاً، على ما يبدو.

إن انتقال دريتون إلى باثيريس لم يكن مجرد تغيير في المكان فحسب؛ بل صاحبه أيضاً تحول ثقافىّ جعل من هذا الانتقال نقطة تحول حرجة في

حياته. وبدلا من الجو الهلليني الذي كان يعيش فيه في بطلمية وديوسبوليس الصغرى، وهو الجو الذي ولد فيه وقضى فيه النصف الأول من عمره، انتقل هو ورجال وحدة الخيالة التي ينتمي إليها إلى مدينة يكاد يكون معظم سكانها من المصريين. لقد كان سكان باثيريس يقومون بأداء شؤون حياتهم اليومية مستخدمين لغتهم الأصلية، وقليل منهم، في واقع الأمر، من أحس بأهمية اللغة اليونانية بحيث تصل معرفته بها، كما سنرى، على درجة الإتقان، أو وجدوا أن من الضروري أن يتقنوا اللغة بحيث يكون باستطاعتهم التعامل بها. ولهذا أصبح أسلوب حياة دريتون يبتعد رويداً رويداً عن الأسلوب اليوناني، ويميل بمرور الوقت إلى أن يصبح مصرياً. أولى العلامات الدالة على ذلك التغيير تتضح لنا في الزواج الذي عقده بعد عام أو عامين من انتقاله إلى باثيريس. إن نظرة سريعة إلى شجرة عائلة دريتون وزوجته الأولى سارابياس تدل على أنهما من عائلتين تحملان أسماء يونانية خالصة، بينما حمل أعضاء أسرة زوجته الجديدة أسماء مصرية، بالإضافة إلى أسمائهم اليونانية. ولهذا لا نفاجأ عندما نجد أن بعض الوثائق المتأخرة في أرشيف دريتون قد كتبت بالديموطيقية، وهو الاسم الذي يطلق الآن على خط الرقعة الذي كتبت به اللغة المصرية آنذاك.[٣]

كانت الفتاة التي تزوجها دريتون في باثيريس في مقتبل العمر، وكانت تصغره بحوالي خمسة وعشرين أو ثلاثين عاماً. كذلك كانت إحدى أربعة بنات، وربما أكبرهن، ونشأت في أسرة صغيرة لأب جندي، وكانت الأسرة مسجلة في بوليتيوما القورينيين. وبينما قد يدل ذلك على أن أحد أجدادها الأوائل كان من الجنود الذين جاءوا إلى مصر في القرن الثالث من مدينة قورينه، المستوطنة اليونانية في شمال أفريقيا، فإن الاحتمال الأكبر هو أن أجدادها ينتسبون إلى أسرة مصرية تمكنت من اكتساب القشرة اليونانية الخارجية من خلال الزواج المختلط. أما والدها فيعرف باسم يوناني هو بطوليمايوس، واسم مصري هو بامينوس (Pamenōs)، وكان مثل أبيه وعمه من قبل يعمل جندي مشاة في باثيريس. وقد تقابل والد الفتاة مع دريتون عندما

انتقلت فرقة الخيالة التى يعمل بها الأخير إلى باثيريس، ووُضعت تحت القيادة نفسها التى ترأس فرقة المشاة. وبالنسبة للزوجة المصرية اليونانية، وبالنسبة لأبيها وأخواتها أيضاً، كان الزواج بدريتون ضربة رائعة وخطوة كبيرة إلى أعلى السلم الاجتماعىّ، إذ أن زوجها لم يكن في المشاة التى يعمل بها كافة الجنود المصريون تقريباً، ولكن في الخيالة، أىّ في فرقة الصفوة من أبناء المجتمع. بالإضافة إلى ذلك لم يكن دريتون مجرد فرد عادىّ في الخيالة، بل كان ضابطاً وكان أجداده، وهو أهم شئ في الأمر، يونانيين خالصين، وليسوا مصريين–يونانيين. ربما لن يتيسر لنا أبداً معرفة مشاعر أبوللونيا/سينمونثيس (Senmonthis) إزاء زوجها الذي يكاد يكون في سن والدها، ولكنه كان ولا شك صيداً نادراً في المدينة التى كان غالبية سكانها من المصريين. كذلك لا بد وأن المكانة الاجتماعية المتميزة مادياً واجتماعياً، التى تمتعت بها بوصفها زوجته قد خففت ولا شك من أىّ حزن قد تشعر به إزاء سنه المتقدم. إننا نجد في واقع الأمر ما يدل على أنها استعذبت مكانتها الجديدة، بل وتفاخرت بها، واستغلتها بذكاء لتجعل من نفسها في السنوات التالية سيدة مرموقة لها مواردها الخاصة ولها وزنها الاجتماعىّ. إننا نلاحظ كذلك أنها أغفلت بقدر الإمكان ذكر اسمها واسم والدها المصريين، ولقبت نفسها ببساطة أبوللونيا القورينية، بنت بطوليمايوس.

وبالنسبة لدريتون فقد أتاحت له هذه المصاهرة مع أسرة مقيمة وكبيرة العدد الفرصة لدخول المجتمع الذي سيعيش فيه منذ ذلك الوقت. كذلك أتت له هذه الزيجة بدوطة كبيرة مع زوجة برهنت بسرعة على مهارتها الفائقة في إدارة شؤون المنزل، كما أثبتت قدرتها المتميزة على الإنجاب. لقد أنجبت له في مدة تزيد قليلاً عن العشرين عاماً خمس بنات، وربما كانت آخر اثنتين منهما توأماً، ولا نعرف ما إذا كانا قد أنجبا أيضاً أطفالاً لم يُقدر لهم العيش. وكانت أبوللونيا/سينمونثيس أكبر البنات اللائى ذكرن بعدها في شجرة العائلة حسب الترتيب المحتمل لولادتهنّ. وكما هو معتاد في أسرة والدتها المصرية–اليونانية، فإن كلاً منهما حملت اسماً يونانياً وآخر مصرياً. لقد كانت إخوة

أبوللونيا/سينمونثيس كلهنّ من الإناث، تماماً مثل بناتها، إذ لم تنجب هى ذاتها أياً من الأبناء الذكور. وتعكس هذه الحقائق أيضاً بعض القيم المصرية التى بدأ دريتون في التعود عليها في حياته الجديدة. إن اليونانيين لم يترددوا طوال عصورهم القديمة في أن يتخلصوا من حديثى الولادة غير المرغوب فيهم عن طريق تعريضهم وطرحهم في العراء. وكانت الإناث تلقى هذا المصير أكثر من الذكور لأنهنّ كنّ يشكلن، على الأقل، عبئاً مادياً إن لم يكن محسوساً في المستقبل القريب، فإنه مع ذلك موجود، ويتمثل في المهور التى يجب تزويدهنّ بها. إلا أن الديانة المصرية، مثل الديانة اليهودية، كانت تُحرّم قتل الأطفال. وهكذا كانت الأسر المصرية تحتفظ بأطفالها الذين قدر لهم العيش، ولم يذهب بهم المرض، وهكذا فعل أيضاً دريتون في الطور الأخير من حياته الذي يغلب عليه الطابع المصرىّ.[٤]

بالإضافة إلى ذلك لم يكن الأطفال يُشكلون عبئاً مادياً في حياة دريتون الذي كان لديه، بادئ ذى بدء، راتبه العسكرىّ. كذلك كان الرجل أيضاً من أصحاب الأملاك، حتى قبل انتقاله إلى باثيريس، فكان لديه بستان للكروم في الريف وبعض المبانى والمنازل في مدينة ديوسبوليس الكبرى. أما بعد انتقاله إلى باثيريس فقد زادت ممتلكاته بحصوله على مزرعة في المنطقة. كذلك كان لزوجته بعض الأملاك؛ ومثلما زادت ثروة دريتون من ثروتها، زادت ثروتها أيضاً بفضل إدارتها الحكيمة. وعندما بلغ إسثلاداس العشرين عاماً كان له بدوره بعض الممتلكات التى ربما حصل عليها هدية من والده، أو ورثها عن والدته، وكانت تمده ببعض الدخل.[٥]

ولذلك فإن أسرة دريتون كانت تعيش في حالة من اليسر، وكان باستطاعتها في حقيقة الأمر أيضاً الحصول على دخل كبير من فوائد القروض النقدية والعينية التى يخرجونها، والتى تُشكل مصدراً من مصادر الربح السريع لمن لديهم الموارد الكافية (انظر الصفحات السابقة رقم ٤٥،٤٤). كذلك لم تكن أبوللونيا، على الأقل، تتورع عن الحصول على فوائد ربوية باهظة، وعن اللجوء عند الضرورة إلى بعض الوسائل والحيل لتغطية مخالفاتها القانونية.

وفيما يلى نجد قرضا نقديا أخرجته أبوللونيا عام ١٢٧ ق.م. لمدة أربعة شهور ونصف:

[التاريخ] في باثيريس أمام أسكليبياديس مسجل الوثائق. لقد أقرضت أبوللونيا القوريبية بنت بطوليمايوس، مع زوجها دريتون بامفيلوس الكريتى [تلى ذلك ألقابه العسكرية الرنانة بأكملها] بوصفه ممثلها القانونىّ، إلى سولون (Solōn) المعروف أيضاً باسم اسليئيس (Slēis) بن هورروس وإلى هيرامئيس بن هورروس، الفارسيين الأصل، وإلى .... بنت فاجيريس (Phageris) الفارسية، مع اسليئيس المذكور، ابنها وممثلها القانونىّ، تالينتاً وأربعة آلاف دراخمه نحاسية، بفائدة قدرها ٥% [شهرياً]... من شهر بؤنه إلى الثلاثين من أمشير من العام الرابع والأربعين. وسوف يرد المقترضون هذا القرض إلى أبوللونيا في الثلاثين من أمشير، وإذا لم يدفعوه في الوقت المحدد فسوف يغرمون نصف القيمة بالإضافة إلى زيادة في الفائدة قدرها دراخمتان عن كل مائة دراخمه طوال مدة التأخير. كذلك فإن المقترضين مسؤولون بالتضامن فيما بينهم عن دفع قيمة الدين والوفاء بشروط التعاقد المذكورة. وسوف يكون لأبوللونيا الحق في التنفيذ على المقترضين مجتمعين، أو على أىّ منهم كما تشاء، وعلى كافة ممتلكاتهم على أساس ما تحكم به المحكمة. أنا آريوس (Areios) موظف أسكليبياديس سجلت ذلك.

إن الشروط القاسية المتعلقة بالتأخير أو عدم القدرة على سداد الدين تشكل مبدأً أساسياً في التعاقدات التى من هذا النوع. كذلك يتمثل الغموض الذي يحيط بهذا العقد في الكيفية التى تمكنت بها أبوللونيا من طلب فائدة مقدارها ٥% شهرياً في عقد مكتوب ومسجل عند المسجل العمومىّ، وهى فائدة تزيد مرتين ونصف عن أعلى قيمة مسموح بها، أىّ قيمة ٢% التى اشترطت إضافتها عند التأخير. ربما كانت الخلاصة التى يمكننا استنتاجها هى أن القيمة العالية كان مسموحاً بها في قرض قصير الأجل مثل القرض المذكور.[٦]

أما القرض التالى فقد أقرضته أبوللونيا قبل خمسة أعوام من القرض السابق، وكان لمدة ستة شهور:

إلى أبوللونيوس بن أبوللودوتوس المعروف أيضاً باسم بسينّيسيس (Psennesis) بن هارسيسيس (Harsiēsis)، الفارسيين الأصل، وزوجته هيرائيس (Heraïs) بنت بطوليمايوس المعروفة أيضاً باسم تيسريس (Tisris) بنت باووس (Paous)... خمسة وثلاثين أردباً من القمح بدون فوائد. وسوف يدفع المقترضون هذا المقدار إلى أبوللونيا [وقت الحصاد] في شهر بشنس في العام التاسع والثلاثين قمحاً جديداً

ونظيفا وغير مخلوط، وفى منزلها، على نفقتهم الخاصة.

تلى ذلك الشروط المعروفة والضمانات المعتادة. إن الإشارة التى تصف القرض بأنه بدون فوائد ليست في حد ذاتها علامة على أن أبوللونيا طيبة القلب ومحبة للغير. لقد أظهرت دراسة حديثة أن تعبير "بدون فوائد" المذكور في وثائق القروض هو تعبير يبعث على السخرية المُرَة، وحيلة تستخدم في هذه الوثائق لتخفى قيمة الفائدة الربوية التى تتضمنها القيمة المذكورة على أنها أصل الدين. في مثل هذه الحالات تكون القيمة الأصلية، أو القيمة المقترضة في الأساس، والتى يجب دفعها، أقل بكثير من القيمة المذكورة. ويعطينا هذا الأمر فكرة عن أبوللونيا، سيدة الأعمال، ومنها نعرف أنها كانت ذات قبضة قوية، وأنها كانت صعبة المراس إلى حد القسوة.[٧]

لعل ذلك يعطينا أيضاً فكرة أكبر عما إذا كانت المقترضة هيرائيس/تيسريس هى أخت أبوللونيا ذاتها. إن هذا الأمر يعتريه بعض الشك؛ لأن اسم الأب المذكور في الوثيقة هو بطوليمايوس/باوس، بينما نعرف أن والد الأختين كان يدعى بطوليمايوس/بامينوس (Pamenous). من ناحية أخرى توجد وثيقة مكتوبة بالديموطيقية تشير إلى قرض عينى من القمح أعطته أبوللونيا إلى شقيقتيها هيراكليا/ميناباثيس (Menapathis) و هيرائيس (Heraïs)/تيسريس. ولهذا فلعله من الأيسر أن نفترض أن الكاتب، في حالة القرض الذي أشرنا إليه في الفقرة السابقة، أخطأ في كتابة الاسم المصرى للأب، من أن نقبل صدفة أن تكون المقترضة امرأة أخرى تحمل نفس الاسم الأول للأب، والاسمين اللذين تحملهما أخت أبوللونيا الصغرى.[٨]

لقد استمتعت أبوللونيا ودريتون بحياة زوجية مستقرة دامت ما يزيد عن خمسة وثلاثين عاماً، حتى وفاة الزوج. أما بناتها فلم يحالفهنّ مثل هذا الحظ، أو على الأقل لم يحالف بعضهنّ. لقد تزوجنَ حينما حان وقت الزواج، وارتبطت إحداهنّ بفارس في فرقة الخيالة، بينما تزوجت اثنتان أخريان من جنديين. أما الفتاتان الباقيتان فلا بد وأنهما تزوجتا أيضاً، إذا أخذنا في الاعتبار مكانة أسرتهما الاجتماعية ومنزلتها المادية، وإن كنا لا نقابل أسماء أزواجهما

في أىّ من وثائق الأرشيف. إن أسماء أزواج الفتيات تقابلنا فى مناسبات لا تتعلق بالزواج، بل بإجراءات الطلاق الذي سُجل بالديموطيقية، وهو الأمر الجديد بالملاحظة. لقد طُلقت تاخراتيس (Takhratis)، وهو الاسم الذي ذُكرت به في الوثيقة الديموطيقية التى أغفلت ذكر الاسم اليونانىّ، من زوجها المذكور أيضاً باسمه المصرىّ فقط، بسينيسيس (Psennesis)، عام ١٢٣ ق.م. بعد زواج استمر أقل من ثلاثة أعوام، وربما كان زوجها الثانى. كذلك انتهى بالطلاق زواج ابنة أخرى لا نعرف اسمها، نظراً للحالة السيئة للبردية، بفارس خيالة كان يحمل اسماً مصرياً هو هيريئينوبيس (Herienoupis). وبينما نعمت أبوللونيا/سينمونثيس وزوجها كائيس (Kaies) على ما يبدو بزواج مستقر، فإن ثالث وثيقة طلاق في السجل هى وثيقة كتبت عام ٩٩ ق.م. وتسجل انفصال ابنتهما عن زوجها. وبالنظر إلى أن هذه الوثيقة الأخيرة هى أكمل وثيقة وصلت إلينا وبحالة جيدة، فإنه يحسن بنا اقتباسها لنعطى فكرة عن أسلوب الصياغة المصرىّ المتبع في مثل هذه الوثائق. وهنا أيضاً ذُكرت الأسماء المصرية فقط عند الإشارة إلى الأفراد المذكورين في الوثيقة:

> [التاريخ] بامينوس بن نيخوتيس (Nekhoutes) وأمه هى سينثوتيس (Senthotēs)، يقول للمرأة سينمونثيس الصغرى بنت كائيس وأمها هى سينمونثيس: "إننى أحلك من أن تكونى زوجة لى. إننى منفصل عنك باسم قانون الزوجية، وليس لى في الدنيا أىّ حق عليك باسم قانون الزوجية. أنا نفسى أقول لك اتخذى لك زوجاً. وإذا وجدتك مع أىّ رجل آخر في هذا العالم لن يمكننى أن أقول لك: "أنت زوجتى""
>
> [فقدت جملة أو جملتان في نهاية البردية].[٩]

لابد أن دريتون وزوجته وبناتهما أيضاً، على الأقل في أعوامهم الأولى، كانوا يفتخرون ويعتقدون أنهم يونانيون بحق. ومع ذلك فإنهم وجدوا أنفسهم يتقبلون، بشكل لا مفر منه وبدرجة تزداد مع مرور الوقت، عادات جيرانهم، خاصة وأنهم كانوا يعيشون في باثيريس بمعزل عن الحياة اليونانية وسط سكان يكاد يغلب عليهم جميعاً الطابع المصرىّ. وبمرور الأعوام أصبحت بنات دريتون وأبوللونيا يَملن إلى الاقتصار على استعمال أسمائهنّ

المصرية وسط البيئة المصرية التى يعشن فيها. إن الوثيقة التى اقتبسناها منذ لحظات تزودنا بمظهر تقليدىّ من مظاهر عملية التمصير التى غلبت على حياتهنّ، وسوف نقابل بعض العناصر والتأثيرات الأخرى قرب نهاية الفصل. قبل ذلك يجدر بنا أن نشير إلى إسثلاداس، ابن دريتون من زواجه الأول، الذي يبدو وأننا أهملناه في مجال الحديث عن البنات، ويجدر بنا أن نتساءل عما حدث له طوال هذه الأعوام التى كانت البنات تكبرن فيها، ثم تزوجن، وانفصل بعضهنّ فيها عن أزواجهنّ.

لم يمر وقت طويل على انتقال دريتون إلى باثيريس حتى تبعه الغلام إليها، ليجد زوجة أب مقيمة في منزله الجديد؛ إلا أنه لحسن الحظ أثبتت أبوللونيا/سينمونثيس، زوجة الأب الجديدة، أنها شئ مختلف عن زوجات الأب التقليديات اللائى يتسمن عادة بالشر. من ناحية أخرى كانت زوجة الأب لا تكبر إسثلاداس بأعوام كثيرة، إذ كانت بالتأكيد أقرب إليه عمراً منها إلى والده، وربما تسبب ذلك في إيجاد رابطة من نوع ما استمرت بينهما منذ اللحظة الأولى. وكما رأينا من قبل كانت أبوللونيا/سينمونثيس تنتمى إلى أسرة وإلى تقاليد ثقافية لمجتمع يرحب بالأطفال ويقدرهم. بالإضافة إلى ذلك يبدو وأنها استقبلت ببعض التفاهم والعطف الطفل اليتيم الذي عهد به إلى رعايتها، خاصة أنها كانت ما تزال عروساً بصدد بناء حياتها الجديدة في منزل جديد عليها. إن الدلائل تشير، على أية حال، إلى أن تنشئة إسثلاداس أتاحت الفرصة لإيجاد روابط قوية بينه وبين زوجة أبيه وبين أخواته غير الشقيقات. وعندما وصل إلى مرحلة البلوغ اتبع خطوات أبيه في دخول الحياة العسكرية. بعد ذلك تزوج إسثلاداس، وأسس منزلاً خاصاً به بالقرب من منزل والده على قطعة أرض أعطاها له والده، أو أعطتها له زوجة أبيه. وبينما لا توجد إشارات خاصة إلى زوجة الابن في الوثائق التى وصلت إلينا في الأرشيف، فإن الاحتمال الأكبر هو أنها كانت تدعى زوئيس (Zoïs) /أونخاسيس (Onkhasis). ويدل الاسم المزدوج على أنها من إحدى الأسر المحلية المصرية–اليونانية، وأنها على أغلب الفروض من إحدى الأسر التى يعمل عائلها بالقوات العسكرية في

المنطقة. إنها تظهر مرة واحدة في السجل ممثلة لإستلاداس في أثناء وجوده في مهمة عسكرية عام ١٣٠ ق.م. وكان لدى إستلاداس وزوجته طفل واحد ذُكر مرة واحدة في الأرشيف، الذي لا يحتوى على أية إشارات إلى أطفال احرين. وقد ذُكر هذا الطفل في المرة التى أشير إليه فيها باسمه المصرىّ فقط (راجع الشكل رقم ١)، على الرغم من أنه كان لا يحمل ولا شك اسماً يونانياً مع الاسم المصرىّ.[١٠]

لقد دفعت المؤامرات الأسرية التى حدثت في البيت الملكىّ إستلاداس إلى أن يشترك في العمليات العسكرية التى وقعت عندما تفجرت العداوة بين بطلميوس الثامن وأخته وزوجته الأولى كليوباترا الثانية في شكل حرب سافرة. وفى البداية كانت الغلبة لقوات كليوباترا في مصر السفلى، التى بلغ بها الأمر أن تعلن نفسها ملكة على البلاد بأكملها. في ذلك الوقت كانت فرقة إستلاداس مثل غيرها من الفرق العسكرية في مصر العليا تحارب في صف الملك. وفى الثالث والعشرين من كيهك [الموافق ١٥ يناير] أرسل إستلاداس الخطاب التالى ليطمئن على والده. وبينما يشير في أول الخطاب إلى زوجة أبيه من بين الذين يرسل إليهم تحيته، فإنه يوجه الحديث فيما تبقى منه إلى والده:

> من إستلاداس إلى والده ووالدته، بعد التحية والأمنيات بالصحة الطيبة. كما أكرر عليكم دائماً في خطاباتى أرجو أن تحتفظوا بروحكم المعنوية مرتفعة وأن تهتموا بأنفسكم جيداً إلى أن تستقر الأمور. هذه المرة أيضاً أرجو أن تطمئنوا وأن تطمئن الأسرة لأن الأخبار قد وصلت إلينا بأن باوس [القائد الموالى للملك في إقليم طيبة] سيبحر إلى الجنوب الشهر القادم مع قوات كافية لإخضاع الحشود التى في هيرمونثيس (Hermonthis) والتعامل معهم بوصفهم متمردين. أرجو أن تهتموا بأخواتى...، والسلام.[١١]

لقد كتب دريتون وصيته ثلاث مرات طوال عمره، ويفصل بين كل واحدة وأخرى ما يقرب من ربع قرن. وكتب أول وصية عام ١٧٥/١٧٦ ق.م.، وهى معروفة لنا فقط من الإشارات المتأخرة إليها. أما الوصيتان الثانية والثالثة فقد وصلت إلينا نسختان لكل منهما، إحداهما مهشمة. ربما وجدت أيضاً نسخ أخرى، بالإضافة إلى ذلك، وربما ضمت هذه النسخ، كما سنرى بعد

قليل، نسخة كتبت باللغتين اليونانية والمصرية، أو كتبت جميعها بالخط الديموطيقيّ.[١٢]

كتبت الوصية الثانية حوالى عام ١٥٠ ق.م.، عند زواج دريتون وأبوللونيا/سينمونثيس وقبل أن ينجبا أيّ أطفال. وبمقتضى هذه الوصية ترك دريتون منزله وسلاحه لابنه إسثلاداس، الذي كان ما يزال حدثاً آنذاك، وبقية أملاكه العينية والمنقولة لابنه وزوجته الجديدة بالمناصفة بينهما. ومن قبيل الاحتياط لوفاته قبل أن يصل ابنه سن البلوغ عيّن دريتون وصياً على الغلام، ووضع شرطاً مشابهاً "لأى أبناء يولدون بعد ذلك التاريخ من زوجته أبوللونيا." لم تُكتب هذه الوصية في باثيريس، بل في مكان آخر ربما كان كروكوديلوبوليس القريبة، وكالمعتاد شهد على صحتها ستة شهود. وبالنظر إلى حالة البردية المهترئة، وصلت إلينا أسماء الشهود وأسماء آبائهم غير كاملة. على الرغم من ذلك فقد تبقى ما يكفى لتوضيح أن بعض الشهود، إن لم يكونوا جميعهم، من الجنود. وعلى ما يبدو فإنه لم يكن هناك نقص في المكان الذي كتبت فيه الوصية في هؤلاء الرجال الذين باستطاعتهم الشهادة باليونانية، سواء أكتبت الوصية في كروكوديلوبوليس أم في أىّ مكان آخر.

لقد كان الوضع مختلفاً في مدينة باثيريس المصرية التى كتب فيها دريتون وصيته الثالثة في التاسع والعشرين من يونيو عام ١٢٦ ق.م.، وسجلها. لقد نُشرت شذرة من بردية لندن عام ١٨٦٩ م وأخرى في باريس عام ١٩٦٢م. وفى عام ١٩٧٦م أتى عالم هولندىّ ليبين أن هاتين الشذرتين تشكلان جزءاً من وثيقة أصلية هى نصّ الوصية الثالثة. هاتان القطعتان المكتوبتان باليونانية تحملان أسماء وأوصاف خمسة من الشهود الواجب توافرهم. أحد هؤلاء الشهود يبلغ عمره خمسة وثلاثين عاماً، وهو كاهن لأفروديتى وسوخوس (Soukhos)، إله التمساح المصرىّ، والثانى كاهن "والعضو الأساسىّ في معبد باثيريس،" وعمره خمسون عاماً. أما الثالث فهو "كاهن وعضو في المعبد نفسه،" والرابع جندىّ مشاة عمره أربعون عاماً. وبعد أن ذُكرت أسماء الشهود وأوصافهم الجسدية نجد العبارة التالية مكتوبة باليونانية: "هؤلاء الأربعة وقّعوا

بحروف لغتهم الأصلية [أيّ: الديموطيقية]؛ لأنه لا يوجد في المنطقة عدد مشابه من اليونانيين." أما الشاهد الخامس وعمره ثلاثون عاماً فهو جنديّ مؤقت سن الخيالة، وهى الخدمة العسكرية القاصرة على الصفوة التى كان المصريون مبعدين عنها في غالب الأحيان، وقد وقع باليونانية."[١٣]

وفيما يتعلق بالنسخة الثانية للوصية الثالثة فهى أفضل حالاً، وإن كانت تخلو من الإشارات إلى الشهود. هذه الحقيقة تدل على أنها إما مسودة أولية أو أنها نسخة من أصل، وهو الاحتمال الأرجح لأنه لا يوجد بها شئ من التغييرات أو المراجعات التى ترد عادة في المسودات. تقول هذه الوثيقة:

[التاريخ] في باثيريس في حضور أسكليبياديس مسجل الوثائق. فيما يلى ما تتضمنه وصية دريتون بن بامفيلوس الكريتيّ... إننى أمنّى النفس بأن أكون دائماً بصحة طيبة، وأن أتصرف بكامل حريتى في ممتلكاتى، ولكن إذا حدث لى شئ فإننى أترك ممتلكاتى العينية والمنقولة والمواشى وكل ما أملكه، وأوزعه بالكيفية التالية: إلى إستلاداس ابنى من سارابياس بنت إستلاداس بن ثيون (Theōn)، مواطن [من بطلمية] التى عشت معها عندئذ زوجة شرعية وطبقاً للوصية التى تركتها مع ديونيسيوس مسجل الوثائق في سجلات ديوسبوليس الصغرى في العام السادس من حكم [بطلميوس السادس] فيلوميتور [١٧٦/١٧٥ ق.م.] ... حصان الخدمة الخاص بى وكل عتادى واثنين من عبيد المنزل أسماؤهما هى ميرسينى (Myrsinē) و ....، أما الأمتان الأخريان وأسماؤهما أيرينى (Eirēnē) وأمبيليون (Ampelion) فتذهبان إلى أبوللونيا وأخواتها ومجموعهنّ خمس. [كما أترك له] بستان الكروم الخاص بى في .... في إقليم باثيريس، وآبار المياه المبطنة بالطوب المحروق، وكل الامتيازات الأخرى مع العربة بكل معداتها، وبرج الحمام والبرج الآخر الجارى العمل فيه، والفناء الذي حدوده كالتالى: من الجنوب مساحات فضاء تخص إستلاداس المذكور ومن الشرق حجرة مقببة السقف تخص أبوللونيا الصغرى ومن الشرق مساحة فضاء تخص بيتراس... بن إستلاداس ومن الغرب مساحة فضاء تخص إستلاداس وتمتد حتى الباب المواجه للغرب. أما الحجرات الأخرى والأثاث و .... ومساحة الفضاء بجوار برج الحمام أسفل باب إستلاداس وغرب الحجرة المقببة فإننى أتركها لأبوللونيا وأريستو (Aristo) وأفروديسيا (Aphrodisia) ونيكاريون (Nikarion) وأبوللونيا الصغرى، وهنّ بناتى الخمس، من أبوللونيا المعروفة أيضاً باسم سيمّونثيس (Semmonthis) [هكذا!] التى أعيش معها زوجة شرعية لى. كما أنهنّ يحصلن على الأمتين [السابق ذكرهما] والبقرة بالتساوى بينهنّ، وطبقاً للتقسيم الذي ذكرته. وعلى إستلاداس أن يترك الساحة الفضاء التى تخصه أمام داره وإلى الغرب مساحة أربعة أذرع مربعة لبناء فرن.

وبالنسبة للمباني الأخرى والساحات الفضاء الخاصة بي في ديوسبوليس الكبرى ....، يحصل إستلاداس على النصف، وأبوللونيا وأخواتها على النصف الآخر، كما يُقسم بينهما مناصفة كل ما يستحق لي من ديون عينية وكل الأثاث. وعلى إستلاداس وأبوللونيا، ممثلة لنفسها ونيابة عن أخواتها، أن يدفعوا نفقات مبنى برج الحمام في موقعه المحدد حتى يكتمل البناء. وإذا عاشت معهم أبوللونيا المعروفة أيضا باسم سيمونثيس في المنزل دون أيّ حرج فعليهم أن يعطوها وابنتيها من أجل الزاد كل شهر ولمدة أربعة أعوام أردبين ونصف من القمح، و ٠،٨٣ر٠ من زيت الخروع ومائتي دراخمه نحاسية. أما بعد الأعوام الأربعة فعليهم أن يعطوا متضامنين الكميات نفسها للابنتين لمدة أحد عشر عاماً. وعليهم أيضاً أن يُعطوا متضامنين [أفروديسيا المعروفة أيضاً باسم] تاخراتيس مهراً لها اثنى عشر تالينتاً نحاسياً من أموالهم بالتضامن... وكذلك تحتفظ سيمونثيس بملكيتها لكل ما لها من أملاك يتضح أنها حصلت عليها في أثناء زواجها من دريتون، وأيّ إجراء ضدها بشأن هذه الممتلكات [يعتبر لاغياً وباطلاً].[١٤]

تذكرنا هذه الجملة الأخيرة بشئ شاهدناه من قبل وهو مهارة أبوللونيا/سينمونثيس وقدرتها على توظيف المخزون الزائد من الطعام والفائض من الأموال في سبيل الحصول على فوائد باهظة. لقد عادت هذه الأنشطة التجارية "الجانبية" عليها، على ما يبدو، بمبالغ ليست بالقليلة، وتمكنت من استثمار بعضها في شراء أملاك عديدة. كذلك استطاع دريتون من الحصول على بعض الأملاك الجديدة في الخمسة عشر عاماً التى تلت كتابته للوصية، وسبقت وفاته. وأوضح مثال لتأكيد ذلك هو أنه يتكلم في هذه الوصية فقط عن الأرض التى يمتلكها في إقليم باثيريس ولا يشير إلى أرض إقليم بيرثيبيس (Perithebis) المجاور، التى كان يمتلكها أيضاً عند وفاته. وبينما تُقسم الوصية كثيراً من الممتلكات بين أبنائه، فإنها، على الرغم مما بها من خشونة التعبير في بعض المواضع، واضحة جداً بما لا يدع مجالاً للشك فيما يتعلق بكيفية التصرف في مزرعة الكروم وملحقاتها. لقد ترك دريتون هذا الجزء من الإرث بالكامل لإستلاداس، وكان الطفل الأول عادة يحصل على نصيب أكبر. ولما يمر وقت قصير على وفاة دريتون إلا وظهرت بناته الخمس في الوثيقة المقتبسة في الفقرة التالية، بوصفهنّ شريكات في الأراضى أيضاً. وليس من الصعب علينا أن نتخيل ما حدث. لقد أحس إستلاداس أن وصية أبيه لم تكن

عادلة بالنسبة لأخواته غير الشقيقات، وأنهنّ يجب أن يرثن معه بالتساوى، النصف في كل شئ، باستثناء بطبيعة الحال الأدوات العسكرية. وكان أن أعطاهنّ نصف ملكية الأرض بعد أن ورثها. ولن يتيسر لنا أن نعرف ما إذا كانت زوجة أبيه قد أثرت عليه، فاتخذ ذلك القرار أم لا. إن ما نعرفه عنها حتى الآن عن قدراتها وإرادتها الصلبة يجعل من الصعب علينا أن نتخيلها واقفة مكتوفة الأيدى، بينما تحصل بناتها على قدر صغير من الميراث. وعلى الرغم من ذلك فإن دورها في إحداث هذه النتيجة، سواء أكان إسثلاداس قد تصرف بشكل مفاجئ أم أنه كان مستجيباً لغيره، أم وهو في حالة من اللاوعى، فإن كرمه الحاتمىّ ومشاركته أخواته ملكية الأراضى ما تزال علامة على الصلة الطيبة التى نشأت بينه وبينهنّ فى الأعوام التى عاشوا فيها وكبروا معاً. لقد كان كرمه واضحاً أيضاً أكثر لمعاصريه الذين كان من الأمور المعتادة بالنسبة لهم أن يحصل هو بوصفه أكبر الأبناء والذكر الوحيد على جزء من الميراث أكبر من نصيب أخواته الأخريات، وأن يحتفظ به لنفسه. وبمعنى آخر كان دريتون يسير حسب التقاليد المعروفة حينما أعطى جزءاً أكبر من تركته لإسثلاداس.

إن مشاركة أخوات إسثلاداس البنات له مناصفة في ملكية الأرض تثبتها الوثيقة التالية التى يرجع تاريخها إلى ما بين عام ١١٣ و ١١١ ق.م.:

إلى فومووس (Phomous) "ابن عم الملك"، الإبيستراتيجوس وحاكم إقليم طيبة، من أبوللونيا المعروفة أيضاً باسم سينموثيس وأفروديسيا المعروفة باسم تاخراتيس، والاثنتان ابنتا دريتون ومقيمتان في باثيريس. إننا نمتلك نحن وأخواتنا، أريستو المعروفة أيضاً باسم سينمونثيس ونيكاريون المعروفة أيضاً باسم ثيرموثيس (Thermouthis) وأبوللونيا الصغرى المعروفة أيضاً باسم سينبيلايا (Senpelaia)، نصف العبيد الموجودين في المنزل ونصف أراضى والدنا المتوفى، في إقليمى بيرثيبيس وباثيريس. وتوجد بين الأراضى قطعة أرض مساحتها أرورتان ونصف في كوخلاكس (Kochlax) على الضفة العربية [أىّ الشرقية] في إقليم باثيريس، لنا فيها النصف، وهى تقريباً بستان للكروم، وإلى الشرق منها توجد حديقة خضروات وآبار مياه ومزرعة ومعصرة للخمر، وقطعة أرض جافة وقطعة أرض أخرى لا تُغل دخلاً، وكل الامتيازات والحقوق المرتبطة بهذه الممتلكات. لقد امتلك والدنا هذه الأشياء في أثناء حياته و[ورثناها] نحن بعد مماته. إلا أن أريستون (Aristōn) بن

أثينودونوس (Athenodotos) من ديوسبوليس الكبرى احتل بستان الكروم المشار اليه وكل ملحقاته، في وقت انقطاع الاتصال بين الضفتين، وهو يدعى لنفسه الآن دون وجه حق النصف الذي يخصنا، مستهينا بنا لأننا نساء، ولأننا نعيش في مكان اخر، ولسنا قادرات على الاهتمام بقطعة الأرض المذكورة بسهولة. ولهذا فإننا نلجأ إلى حماك ونطلب منك، إذا كانت هذه مشيئتك، أن تدعوه إليك وأن تستقصى الأمر. وإذا كان الوضع كما نقول، أن تجبره على أن يخلى النصف الذي يخصنا من بستان الكروم الذي وصفناه، والنباتات التى فيه وفى الأماكن المجاورة، وأن يعوضنا عن المحاصيل التى أزالها من مكانها، وأن تدينه بسبب العنف الذي ارتكبه، وأنت رجل تكره الأذى، حتى نحصل على حقنا بهذه الكيفية، والسلام.[١٥]

إن أسرة دريتون تختفى عن أنظارنا سريعاً بعد ذلك التاريخ. هناك وثيقة من عام ١٠٣ ق.م.، ضمن كتاب "العقود المكتوبة باللغة المصرية واللغة اليونانية،" تشير إلى قرض أعطاه إسثلاداس، ومنها يتضح أن الأسرة كانت ما تزال على درجة من اليسر وأن قدرتها على استثمار الأموال استمرت فى الجيل الثانى. فى ذلك الوقت كانت قد مرت على وفاة دريتون عشرة أعوام، وربما كانت أبوللونيا/سينمونثيس، بعيدة النظر، ما تزال حية ترزق؛ إذ أنها فى عام ١٠٣ ق.م. تكون قد بلغت من العمر أواخر الخمسينيات أو أوائل الستينيات. وتتضمن الوثائق التالية لذلك التاريخ شقفتين من الفخار مكتوبتين فى كروكوديلوبوليس فى الرابع عشر والثلاثين من مايو عام ١٠٠ ق.م.، وهما إيصالان ضريبيان مقدار كل منهما ألف دراخمه، دفعتهما أربع من بنات دريتون الخمس. وتزودنا هذه الإيصالات بدليل آخر على استمرار ثراء الأسرة. إن الشئ الذى يسترعى الانتباه أكثر من قيمة الإيصالات المرتفعة هو أن الإيصالات ذاتها قد كتبت باليونانية بينما ذكرت فقط الأسماء المصرية للبنات: سينموثيس وثيرموثيس وسينمونثيس وسينبيلايا. ومن الواضح أن هذه الأسماء هى التى كنّ يعرفن بها عادة، وينادين بها فى منطقتهنّ، وأنها الأسماء التى يستخدمنها هنّ وجيرانهنّ، فى منطقة يكاد يكون كل سكانها من أصل مصرىّ. أما بالنسبة لبنات دريتون فإن السبب الرئيس لاحتفاظهن بثقافة أبيهنّ اليونانية هو حاجتهنّ المُلحة إلى استخدام اللغة اليونانية فى تعاملاتهنّ مع ممثلى الإدارة الحكومية وهيئاتها. ربما أن لغتهنّ اليونانية تأثرت بمرور

الوقت بسبب قلة استعمالهنّ لها، إلا أن الوثائق تدل بوضوح على أنهن لم يفقدنها. وباستثناء هذه الجوانب عاشت الأسرة حياتها اليومية كما يعيش المصريون من حولهم، بل ويمكن القول عنهنّ، من ناحية المظاهر الخارجية جميعها، ما يقال عن المهاجرين الآن، بأنهنّ قد "تغيرن". وعلى الرغم من ذلك ظل هناك فارق جوهريّ بينهنّ وبين المصريين، وتمثل فى أنهنّ لم يفقدن أبداً مكانتهنّ القانونية المتميزة بوصفهنّ غير مصريات، وهى المكانة التى وصلن إليها بانتسابهنّ إلى أجداد دريتون وأبوللونيا اليونانيين.[١٦]

الحواشى:

(١) فيما يتعلق بمسألة متوسط الأعمار، راجع الدراسة الصادرة حديثاً: N. Lewis, *Life in Egypt under Roman Rule*, Oxford, 1983, 54

(٢) إن مشكلة الزواج مع سارابياس تمت مناقشتها في: N. Lewis, *Chronique d'Egypte*, 57 (1982), 317-318 إذا كانت سارابياس هى زوجة دريتون الثانية، وكان إسثلاداس قد ولد في الأعوام الأولى لزواجهما، فإن تاريخ الوصية المقصودة ربما كان ١٥٦/١٥٥ ق.م. وكتب على سبيل الخطأ ١٧٦/١٧٥ ق.م.؛ وبهذا يصبح الأمر مجرد زلة قلم *Lapsus calami* من الكاتب. إن الوثائق التى تحتوى على وصايا دريتون موجودة في الحاشية التالية رقم ١٢

(٣) إن كاهن باثيريس وكروكوديلوبوليس يظهر في: *P. Lond.* 889a التى ترجع إلى حوالى عام ١٣٧ ق.م. وسوف يُشار فيما بعد إلى عديد من الوثائق المكتوبة بالديموطيقية، كما سوف يتم اقتباس بعضاً منها في هذا الفصل.

(٤) عن مسألة تعريض حديثى الولادة بواسطة اليونانيين المهاجرين إلى مصر وبواسطة أحفادهم، راجع الكتاب المشار إليه في الحاشية الأولى من هذا الفصل.

(٥) انظر: *P. Lond.* 889a، وكذلك نهاية هذا الفصل فيما يتعلق بممتلكات إسثلاداس.

(٦) الوثيقة هى: *P. Grenf.* I 20 . وفى وقت هذا القرض كانت نسبة الدراخمات النحاسية إلى الفضية حوالى ٥٠٠ : ١

(٧) إن اكتشاف المعنى الحقيقى لعبارة "بدون فوائد" قد توصل إليه P. W. Pestman, *Journal of Juristic Papyrology*, 16-17 (1971), 7-29؛ أما القرض الذي تم اقتباس وثيقته فهو: *P. Grenf.* I 18

(٨) النظرية المناقضة لهذه، والتى تقول بأن هناك سيدتان مختلفتان تحملان اسم هيرانيس/تيسريس، موجودة فى: R. K. Ritner, *Grammatika Demotika* (*Festshrift für Erich Lüddeckens*). Würzburg, 1984, 178-179

(٩) انظر: *P. Bad. Dem.* VI

(١٠) عن زوجة إستلاداس، راجع: *Chronique d'Egypte*, 57 (1982), 320-321

(١١) راجع: *W. Chr.* 10 = *Select Papyri* 101

(١٢) الوصية الأولى معروفة فقط من إشارة إليها في الوصية الثالثة. أما الوصية الثانية فهى محفوظة في: *SB* 4637; *P. Grenf.* I 12؛ أما *P. Bad.* II 5 فهى شذرة صغيرة من نسخة أخرى. هناك نص كامل تقريباً للوصية الثالثة في: *P. Grenf.* I 21 = *M. Chr.* 302 = *Select Papyri* 83 وهو النص الذي يقابله القارئ بعد ثلاث فقرات من الآن. أما شذرات النسخة الثانية فهى: *P. Bour.* 9 = *P. Lugd. Bat.* XIX 4 وكذلك: *P. Grenf* I 44

(١٣) يتساءل بيستمان Pestman في: *P. Lugd. Bat.* XIX, p. 36, n. 16 عما إذا كان دريتون قد أجبر على اللجوء إلى شهود يوقعون بالديموطيقية لأنه وأسرته كانوا مقاطَعين بواسطة الأسر اليونانية الأخرى في باثيريس، انتقاماً منه لأجل أسلوبه في الحياة المتطبع بالأسلوب المصرىّ. إن الفكرة مثيرة للاهتمام ولكنها يجب ألا تتعدى مجرد الافتراض النظرى، بل ويمكن الشك فيها في ضوء طبيعة الأدلة التى وصلت إلينا. انظر أيضاً الحاشية التالية رقم ١٦

(١٤) انظر: *Select Papyri* 83 = *M. Chr.* 302 = *P. Grenf.* I 21، وراجع كذلك الحاشية السابقة رقم ٢

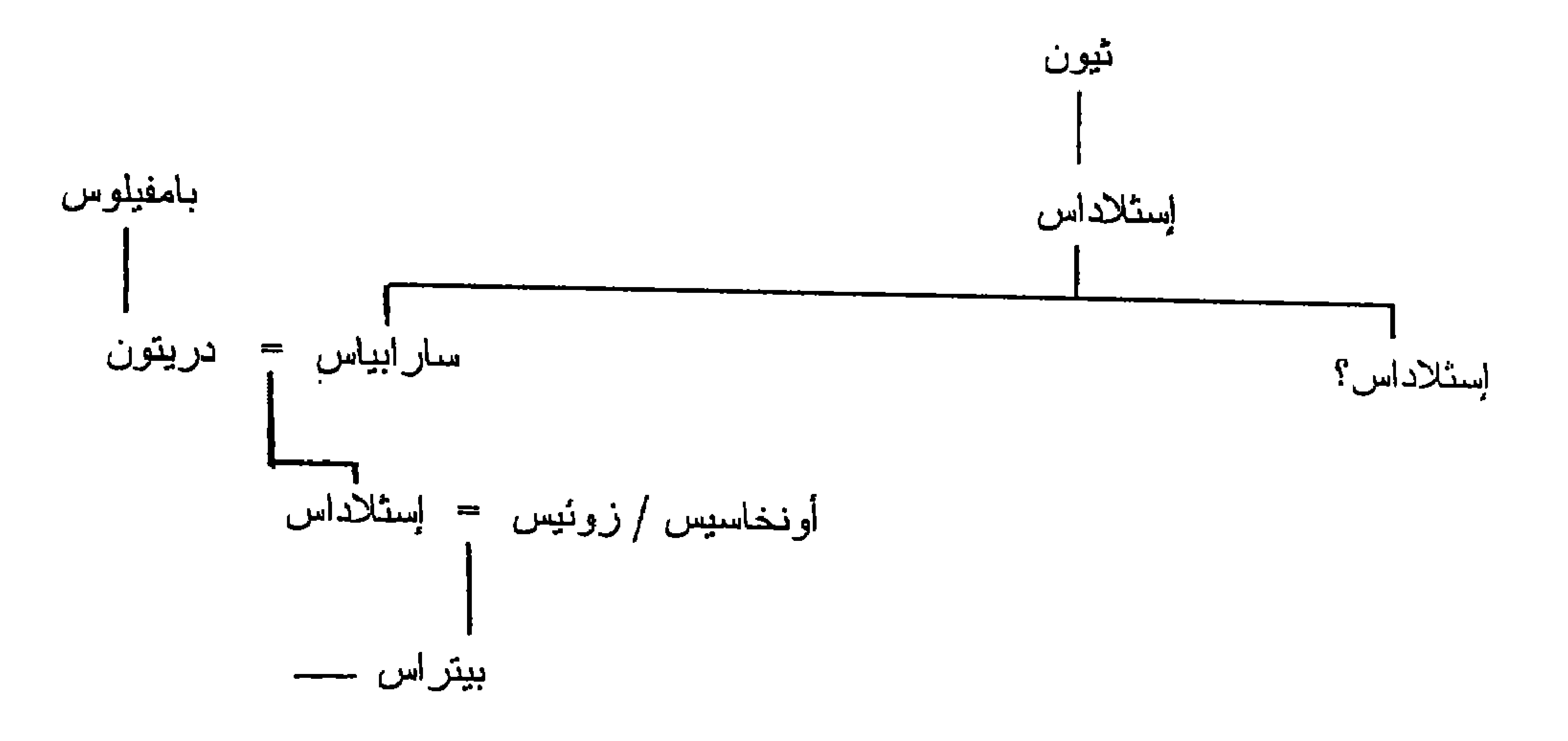
(١٥) راجع: *P. Lond.* 401 = *M. Chr.* 18

(١٦) الوثائق المشار إليها هى: *P. Grenf.* II 26 and *WO* 1617 and 1618 إن دراسات السكان المهاجرين في العصور الحديثة تكشف عن أن النساء عادة أسرع من الرجال في التكيف مع طرق وأساليب الحياة في مجتمعاتهنّ الجديدة.

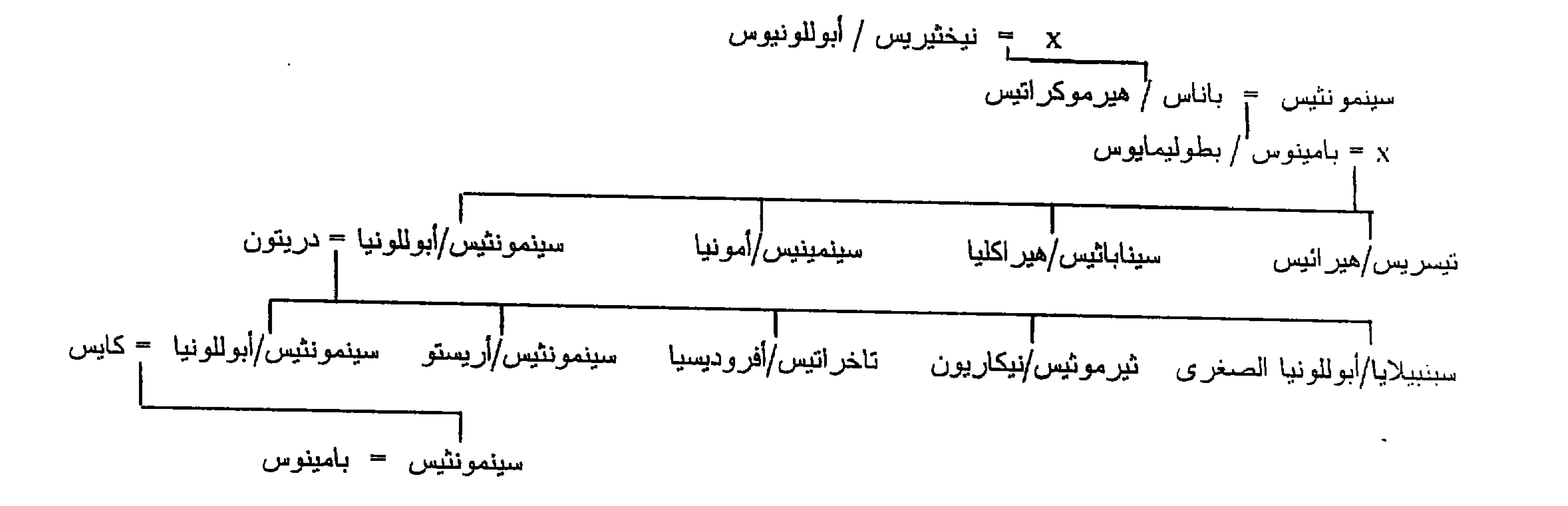
إن الخاتمة (راجع المصدر المشار إليه في الحاشية السابقة رقم ٢، ص ١٨٧) التى يوردها ريتنر Ritner في نهاية مجلده عن البرديات الديموطيقية الموجودة في جامعة شيكاغو تُشكل نهاية مناسبة للفصل الحالىّ. إنه يقول فيها:

إن برديات أسرة هيرموكراتيس ودريتون تزودنا برؤية فريدة عن حياة المستوطنين اليونانيين المتشبعين بالحياة المصرية في عهد البطالمة. إن مراجعة الأصول العرقية والأنساب التى أتاحها [هذا] البردى تدل على أن التقارب حدث في وقت مبكر، حيث إن أول جيل معروف من العائلة كان يحمل اسماً مزدوجاً

(أبوللونيوس/ناخاتور)... [أيضا] فإن العملية المعاكسة، أىّ تشبع المصريين بالحياة الهللينية، [ليست] موثقة [هنا]. وعلى العكس من ذلك فإن أوصاف ابوللونيا، وغيرها من النساء *et al.*، ودريتون بأنهما من قورينه وكريت، على الترتيب، ينبغى أخذها بجدية، كما أن استخدام الأسرة للوسائل القانونية الديموطيقية يبعث على كثير من الدهشة. إن المكانة الإقليمية لباثيريس، التى كانت تعانى من كثير من عدم الاستقرار السياسىّ، وتفتقر إلى المتحدثين باليونانية، لا بد وأنها السبب في ذلك إلى حد كبير.



شكل رقم (١): شجرة عائلة دريتون (الزواج الأول).



إن علامة / تفصل بين الاسم اليونانىّ الموجود على اليسار والاسم المصرىّ الموجود على اليمين للشخص نفسه، بنفس هجائه فى الوثائق اليونانية. إن صبغ الأسماء المصرية بالصبغة اليونانية كان يقتضى على الأقل أن تكون لها نفس النهايات الإعرابية اليونانية، بالإضافة إلى قدر من التغيير فى أصوات الحروف. وعلى سبيل المثال فإن اسم نيخثيريس المكتوب فى الوثائق اليونانية يظهر فى الوثائق الديموطيقية مكتوباً ناخاتور، كما أن با-- و تامينوس فى اليونانية يمثلان با--وتامينهو، وهكذا.

شكل رقم (٢): زواج دريتون الثانى (عائلته الصغيرة فقط).

الفصل السابع

الترقى في الخدمة المدنية:

مينخــيس، مــوظف القريــة

الزمان: المدة من حوالى عام ١٢٠ ق.م. إلى عام ١١٠ ق.م. بالنسبة لمينخيس (Menkhēs)، وحتى عام ٩٩ ق.م. بالنسبة للاثنين التالين له في مكتب القرية.

المكان: كيركيوزيريس، وهى قرية صغيرة بالقرب من تيبتونيس الكبرى الواقعة جنوب غرب إقليم أرسينوى (راجع: خريطة رقم ٢).

الوثائق: نُشرت الوثائق في مجموعة بردى تيبتونيس (Tebtunis)، المجلدين الأول والرابع. كذلك يضم السجل بردية ديموطيقية، وما يزيد عن ١٥٠ بردية يونانية تشتمل على حوالى ٤٠ لفافة بردى محفوظة كاملة أو تكاد. وبينما يزيد طول بعض اللفافات عن أربعة أمتار، يتضح من محتويات إحدى هذه البرديات التى يبلغ طولها ٢١ر٤ مترا (*P. Teb.* 61) أن ما وصل إلينا هو ثلثا البردية فقط. وتحتوى معظم البرديات الطويلة على أوراق رسمية، مثل قوائم ضريبية وتقارير عن المحاصيل، وتقارير عن مساحات الأراضى بالقرية. أما البردية الديموطيقية، والالتماسان المتعلقان بحادثة اعتداء (*P. Teb.* 128, 129) والمكتوبان باليونانية، وكذلك بعض شذرات تقارير مسح الأراضى والقوائم الضريبية، فما تزال غير منشورة حتى الآن.

– إن برديات هذا الأرشيف موجودة الآن في مكتبة جامعة كاليفورنيا في بيركيلى (Berkeley)، وكانت ظروف العثور عليها غير عادية بحيث تسمح لنا بإعادة ذكرها هنا. في شتاء عام ١٨٩٩/١٩٠٠ م بدأ جرينفيل B.P Grenfell وهَنت A.S. Hunt، وكانا عندئذ مدرسين في أوكسفورد قدر لهما بعد ذلك أن يكونا من أشهر علماء البردى، الحفر في موقع مدينة تيبتونيس القديمة بأموال قدمتها لهما سيدة غنية من كاليفورنيا. وعندما وجدا أن نتيجة الحفر في المدينة مخيبة للآمال، انتقلا إلى موقع الجبانة. أما ما حدث بعد ذلك فإن كلمات جرينفيل

تصوره أبلغ تصوير :

[إن إقليم أرسينوى] هو إقليم سوبك (Sobk) الإله التمساح الذي يعبد بأشكال وأسماء عديدة في كل قرية من قرى الإقليم يمكنها أن تتفاخر بأن بها معبد خاص. ولا بد أن التماسيح كانت تغشى المنطقة بأعداد كبيرة في مصر البطلمية، حتى بعد الاستصلاحات الواسعة النطاق لأراضى بحيرة موئيريس (Moeris). كذلك كانت البحيرات الصغيرة أو البرك التى تمتلئ بهذه الحيوانات المقدسة ولا شك علامة من علامات معابد الإله المحلية. ويعطينا استرابون (Strabon) وصفاً للتماسيح المقدسة التى وجدت في معبد سوبك الكبير في كروكوديلوبوليس عاصمة الإقليم الذي أتى لزيارته بعد الفتح الرومانيّ بقليل....

إن مقابر الجبانة الكبيرة الملاصقة للمدينة [تيبتونيس] أثبتت في أحيان كثيرة أنها لا تحتوى إلا على التماسيح. وفى السادس عشر من يناير عام ١٩٠٠ وجدنا ثلاثاً وعشرين مومياء من أوائل العصر البطلميّ ملفوفة بورق مقوى من ورق البردى. ويتميز هذا اليوم أيضاً بأن أحد العمال أصابه الإحباط لعثورنا على صف من مومياوات التماسيح في الوقت الذي كان يتوقع فيه توابيتاً، فأمسك بإحداها مغتاظاً وهشمها تماماً، ليكشف لنا عن مفاجأة أن الحيوانات كانت قد لفت في أوراق البردى. وكما هو متوقع حفرنا بعد ذلك كافة قبور التماسيح في المقبرة. وفى الأسابيع التالية كشفنا عن آلاف عديدة من هذه الحيوانات التى وجدنا أن نسبة صغيرة منها، حوالى ٢%، تحتوى على برديات. لقد كانت الحفر المدفونة فيها التماسيح قليلة العمق، ولا يزيد عمقها في النادر عن متر واحد، بينما كانت الحيوانات توضع فيها فرادى وفى أحيان أقل في مجموعات تضم خمسة أو عشرة وربما أكثر. وكانت رؤوسها جميعها تتجه إلى الشمال... لقد كان النظام المعتاد هو أن تحاط المومياء بالبوص ثم تغطى بعد ذلك بطبقة من النسيج... وعندما بدأ استخدام البردى كانت لفافات من هذه المادة توضع حول المومياء في طبقة أو عدة طبقات تحت القماش. وكان يوضع على الطبقة الأخيرة عادة بعض الصمغ، بينما تحشر لفافة أو لفافتان في غالبية الأحيان في حلق الحيوان أو أية تجويفات به.

إن أهم ما يميز أوراق البردى التى حصلنا عليها من مومياوات التماسيح هو طولها الواضح. لقد كانت الوثائق الصغيرة عديمة الفائدة في حالة التماسيح التى يزيد طولها عن ثلاثة أو أربعة أمتار، ومع ذلك كانت تستخدم أحياناً في الحشو. في هذه الحالة لم تكن هناك حاجة إلى إعادة بسطها، بل كانت تحشر مع غيرها في عجالة. أما الطبقات الخارجية فكانت تستخدم فيها لفافات البردى الطويلة بعد إعادة نشرها....[١]

وكما هو الحال مع الورق المقوى الذي زودنا بأرشيف ديوفانيس الذي درسناه في الفصل الرابع، اتضح أن كثيراً من البردى المستعمل في تغليف وحشو هذه التماسيح المقدسة، بعد قراءته والتعرف على محتوياته، هو وثائق رسمية من ملفات قرية كيركيوزيريس، وأنها ترجع إلى العقدين الأخيرين من القرن الثانى قبل الميلاد.

شجرة العائلة: راجع: الشكل رقم ٤ في نهاية الفصل.

إن نظرة سريعة إلى شجرة العائلة تبين أننا نتعامل مع أسرة تشبه أسرة دريتون من زواجه المتأخر (انظر الفصل السادس). لقد حمل كل أفراد هذه الأسرة جميعاً اسمين، أحدهما يونانىّ والآخر مصرىّ؛ وهو الأمر المحتمل أيضاً بالنسبة للاسم الذي ينتهى بـ: ينخيس؛ وإن كانوا عادة يستعملون اسماً واحداً ويتعاملون به، هو في غالب الأحيان الاسم المصرىّ. أما الاسمان معاً فقد كانا يذكران فقط في المواقف الخاصة التى يتطلبها التعامل الرسمىّ. إننا نجد في إحدى الوثائق ترجمة يونانية لأحد العقود المفقودة والمكتوبة بالديموطيقية، ونجد فيها وصفاً لمينخيس ولوالده بأنهما "يونانيان مولودان في هذه الأرض،" بمعنى أنهما من ساكنى مصر وأهلها الذين يمكنهم أن يذكروا بين أجدادهم على الأقل واحداً أو اثنين من اليونانيين الذين هاجروا إلى مصر البطلمية من مكان ما في العالم اليونانىّ. وكانت هذه الصفة تؤهل مينخيس وأشباهه لتولى منصب موظف القرية، وهو عمل يتطلب معرفة باليونانية، لغة الإدارة وغالبية الأنشطة التجارية والتعاملات، وباللغة المصرية، لغة التعامل والتفاهم مع غالبية السكان المحليين.

إننا نقابل مينخيس لأول مرة عام ١١٩ ق.م.، عندما قدم طلباً لإعادة تعيينه في "منصب [موظف القرية] كوموجرامّاتيوس (*komogrammateus*) الذي كنت أشغله من قبل." إن الأرشيف لا يعطى أية فكرة عن الوقت الذي ولد فيه مينخيس، ولعله يمكننا المخاطرة بالقول إن عمره عند شغله للمنصب لثانى مرة كان حوالى الثلاثين أو بعدها بقليل. إن الخطاب الذي يُصدق على إعادة تعيينه، والذى كتبه السكرتير الملكى للإقليم، وأرسله إلى الموظف الفرعىّ والرئيس المباشر لمينخيس، يستحق فى الوقت ذاته الإشارة إليه:

> من أسكليبياديس إلى مارّيس (Marrēs)، بعد التحية. لقد عُين مينخيس بواسطة وزير المالية في منصب موظف قرية كيركيوزيريس، شريطة أن يقوم على نفقته الخاصة بزراعة عشر أرورات من الأراضى غير المنتجة داخل حدود القرية، وبإيجار قدره خمسون أردباً [من القمح] عليه أن يقدمها إلى الخزانة كاملة كل عام، ابتداءً من العام الثانى والخمسين، وعليه أن يكمل النقص بوسائله الخاصة. أبلغه

بشهادة التعيين هذه، واهتم بتنفيذ الشروط الواردة بها، والسلام. الثالث من مسرى عام ٥١ [الموافق العشرون من أغسطس عام ١١٩ ق.م.][١]

هذا الخطاب الذي يتسم ظاهره بالبساطة له دلالات يتعدى مغزاها مجرد الموافقة على إعادة تعيين موظف قرية. إنه يوضح، بين أمور أخرى كثيرة *inter alia*، إحدى الوسائل التى لجأت إليها الإدارة الملكية لاستصلاح الأراضى المهجورة وقليلة الخصوبة وإعادة زراعتها. ولكى نتفهم ما يتضمنه الخطاب من دلالات علينا أن نعود إلى الوراء لمدة ربع قرن.

لقد ترك بطلميوس السادس الذي توفى عام ١٤٥ ق.م. ابناً ليخلفه على عرش البلاد. هذا الابن هو بطلميوس السابع الملقب يوباتور (Eupator)، الذي لم يقدر له أن يحكم أبداً إذ أنه اغتيل فجأة؛ وتلاه على العرش عمه، الأخ الأصغر لوالده، بطلميوس الثامن، الذي اتخذ لقب "يورجتيس" (Euergetēs) الثانى، أىّ: "الخيّر"، من قبيل المفارقة، وكان الناس جميعهم يسمونه "فيسكون،" (Physkon)، أىّ: "صاحب البطن الممتلئ." بعد ذلك نشبت النزاعات بين بطلميوس الثامن وكليوباترا الثانية، أخته وزوجته الأولى، وحاول كل منهما التخلص من الآخر، ووصل الأمر إلى حد المواجهة المسلحة المتقطعة بينهما، والتى استُدْعِي إسثلاداس للاشتراك في إحداها، كما رأينا في الفصل السادس. وبالنظر إلى أن كليوباترا كانت تحصل على تأييد أهل الإسكندرية والدلتا، يهوداً ويونانيين، فقد سعى بطلميوس إلى الحصول على تأييد وعون جنود وسكان مصر العليا الذين أصبحوا أكثر المؤيدين له. وفى إحدى مراحل تفجر العداوة ثأر بطلميوس لنفسه من السكندريين عن طريق إبعاد الباحثين في متحف المدينة الشهير، وأعد أول حملة اضطهاد مسجلة ضد يهود المدينة، أو كما هو محتمل على الأقل.

وفى الأعوام القليلة التى سبقت عام ١١٩ ق.م. وصلت الصراعات بين الجانبين ذروة جديدة من حيث الشدة، وتسببت الأوضاع الناجمة في جعل أعداد كبيرة من المزارعين يشعرون بعدم الأمان، ويفرون طالبين السلامة، وتاركين وراءهم الأراضى التى يزرعونها. وفى العام التالى، نظراً للإحباط الذي

أصابهما، اتفق الجانبان على عقد معاهدة وحاولا استعادة الاستقرار بإصدار مجموعة القرارات التى تمنح عفواً عاماً وبعض التنازلات. أحد هذه التنازلات يتمثل في التأجيل التالى:

وقد قرروا أن زراع بساتين الكروم أو البساتين في الداخل، إذا زرعت بساتينهم بين العامين السابع والخمسين والثالث والخمسين [١١٨-١١٣ ق.م.] في الأراضى التى يغطيها الفيضان أو أصبحت جافة، لن يدفعوا ضرائب لمدة خمسة أعوام ابتداءً من وقت زراعتها. وابتداءً من العام السادس عليهم أن يدفعوا أقل من القيمة المعتادة [للضريبة] وأن يدفعوا القيمة في العام الرابع. وابتداءً من العام التاسع عليهم أن يدفعوا الضرائب نفسها التى يدفعها الملاك الآخرون عن الأراضى المنتجة. وبالنسبة لمزارعى منطقة الإسكندرية فإنهم يحصلون على مدة تأجيل إضافية قدرها ثلاث سنوات.

ويتضمن أحد القرارات الأخرى الأمر التالى:

لا يحق لأىّ من حكام الأقاليم ولا [لأىّ] موظف آخر في منصب عمومىّ أو مرؤوسيهم أو لأىّ فرد آخر أياً كان أن يبعد دون وجه حق مزارعى التاج عن الأراضى المنتجة، أو أن يعيد تخصيصها لزراعتها بأنفسهم.[٣]

وقد حققت هذه الإجراءات الإدارية المنشطة لحركة استصلاح الأراضى وزراعتها قدراً يسيراً من النجاح في منطقة كروكوديلوبوليس. إن أوراق البردى التى وصلت إلينا من مكتب مينخيس تحتوى على وثائق تفصيلية عن المزروعات وعن إنتاجها على أراضى التاج عن خمسة أعوام تقع بين عامى ١٢١ و ١١٠ ق.م.، ومعلومات إجمالية عن خمسة أعوام أخرى. وتعرفنا هذه المعلومات أن مساحات الأراضى المزروعة وأن قيمة الإجراءات التى حصلت عليها الخزانة كانت تتناقص باستمرار من عام ١٢١ إلى عام ١١٧ ق.م.، ثم بدأت بعد ذلك في الارتفاع تدريجياً. لقد زُرِعَت مساحة: ٧٥ر١٣٠٨ أروره، منها: ٧٨ أروره مستصلحة، في عام ١٢١ ق.م.، وحُصِّل عنها إيجار إجمالىّ قدره: ٠٩ر٥٢٧٤ أردباً. هذه الإيجارات لم يتيسر الحصول عليها بعد ذلك في أىّ من الأعوام التى يتضمنها سجل وثائق مينخيس. وفى عام ١١٧ ق.م. انخفضت هذه الأرقام إلى: ١٣٩ر١ أروره، و: ٠٩ر٤٦٥٨ أردباً، وبعد ذلك تذبذبت الأرقام من عام لآخر حتى وصلت إلى:

٢٠٠ر١ أروره و: ٧٠٠ر٤ أردباً. أما أفضل إنتاج تحقق فقد كان في الأراضي المزروعة قمحاً وهو المحصول المطلوب أكثر من غيره، إذ ارتفعت مساحة الأراضي المزروعة منه من: ٦٠٠ أروره، منها ٤٣ مستصلحة، في عام ١١٧ ق.م. إلى: ٧٠٢ أروره في عام ١١٠ ق.م.، وفي الوقت ذاته ارتفعت قيمة إيجارها من: ٦٠٠ر٢ أردباً إلى: ٩٩١ر٢٠٧ر٢ أردباً.

وتدلنا هذه الأرقام على أن ما يزيد عن ثلث الأراضي المزروعة تم استصلاحه في أثناء الأعوام التي تلت العفو والتسهيلات الصادرة عام ١١٨ ق.م. وبالإضافة إلى ذلك كانت الخسارة الناجمة بسبب الأراضي غير المزروعة في كيركيوزيريس تفوق القيمة الناتجة عن الأراضي المزروعة، واستمر ذلك الوضع حتى عام ١١٢ ق.م. لقد بلغت مساحة الأراضي المصنفة على أنها غير منتجة عام ١١٧ ق.م. حوالي: ١٣ر١٠٠١ر١ أروره تبلغ قيمة إيجارها: ٠٠٥ر٥ أردباً من القمح. بعد أربعة أعوام من ذلك التاريخ انخفض معدل الخسارة إلى: ٥ر٩٣٦ أروره و: ٧٥ر٨٣٨ر٤ أردباً، وفاقت قيمة الإيجار المحصل بالفعل من أراضي التاج بكيركيوزيريس، ومقداره ما يقرب من: ٧٠٠ر٤ أردباً، مقدار الخسارة الناجمة بسبب الأراضي غير المزروعة في هذه الناحية.

ويتضح المغزى الكامل لخطاب إعادة تعيين مينخيس موظف القرية بعد معرفتنا لهذه الحقائق. إن ثاني المراسيم الملكية الذي اقتبسناه منذ قليل يأمر الموظفين ذاتهم بعدم استغلال وظائفهم في الحصول على الأراضي الجيدة من المزارعين الذين يزرعونها. إن الدلالة الأخرى التي يمكن إدراكها من هذا المرسوم، وهو الأمر الذي يتأكد في خطاب التصديق على تعيين مينخيس، هي أن الإدارة شجعت الموظفين، بل وطلبت منهم بالفعل في بعض الأحيان، أن يتولوا مسؤولية إعادة استغلال الأراضي المهجورة وغير المنتجة. بالإضافة إلى ذلك كانت قيمة الإيجار المطلوب دفعها من مينخيس، وهي خمسة أرادب عن كل أروره، أعلى قيمة إيجار تُدفع عن أراضي التاج، وهي قيمة تُحصّل عادة من أفضل الأراضي. وكما سنرى بعد قليل، كان يتم تشجيع الأفراد

العاديين على محاولة استصلاح الحقول التى أهملت لسنوات عدة عن طريق تخفيض القيمة الإيجارية لتصبح جزءاً صغيراً من القيمة الأصلية، أىّ: أردب عن كل أروره، وربما أقل. أما القيمة المرتفعة المفروضة على مينخيس وغيره من الموظفين فقد كانت ولا شك وسيلة لجعله يدفع للحصول على وظيفة تمكنه من الحصول على راتب، وتتيح له بالإضافة إلى ذلك الحصول على علاوات مربحة. لقد كان موظف القرية بحكم عمله، الذي يتضمن الاحتفاظ بسجلات القرية والإشراف على المراسلات بينها وبين الجهات الإدارية في موقع ذى أهمية خاصة، يُمكّنه من تأدية كثير من الخدمات لعديد من السكان المحليين أو إنكارها عليهم، إما عن طريق الإسراع بالإجراءات الروتينية أو تأجيلها، على سبيل المثال لا الحصر.

من ناحية أخرى كان مينخيس أيضاً مديناً بالفضل لرؤسائه. وهكذا نجده في أثناء محاولته الحصول على الوظيفة، وسعيه للمحافظة عليها لدورة أخرى يعرض أن يقدم، بالإضافة إلى الخمسين أردباً المفروضة عليه، سبع كميات أخرى من منتجات متعددة يبلغ مجموعها خمسون أردباً إضافية. هذه الإضافات "التطوعيّة" تبدو لنا وكأنها رشوة يعرف مينخيس جيداً عن تجربة أنها سوف تحددِ الفارق بين ردّ سريع بالموافقة وبين رفض محتمل لطلبه.[٤]

لقد كان المزارعون المصريون في القرن الثالث قبل الميلاد يتقدمون بمحض إرادتهم لاستئجار أراضى التاج، وفى بعض الأحيان يُقبلون عليها بشغف. أما التقليد الذي اتبعه الملوك البطالمة ويتمثل في توزيع أراضى التاج غير المزروعة، لزراعتها إجبارياً، فقد استُحدِث عام ١٦٤ ق.م. عندما واجهوا مشكلة نقص الإنتاج في المساحات الواسعة التى هجرها أهلها، في أثناء القلاقل والثورات في الأعوام القليلة السابقة. وبمجرد استحداث هذا النظام، أصبحت أعمال السخرة الزراعية أمراً تقليدياً، حتى أنه في الوقت الذي عاش فيه مينخيس، أىّ بعد حوالى نصف قرن من بداية هذا النظام، كانت بعض أعمال السخرة الزراعية قد أصبحت وراثية.[٥]

لم يكن الالتزام المفروض على مينخيس بزراعة عشر أرورات أمراً

صعباً، بل على العكس من ذلك، إذ يبدو أن له أعماله الزراعية الجانبية الناجحة، بالإضافة إلى عمله في منصب موظف القرية. وعلى سبيل المثال تشير وثيقة إلى قطعة أرض مهجورة مساحتها حوالى: ١٣ أروره تمكن مينخيس من استصلاح عشر أرورات منها عام ١١٣/١١٢ ق.م.، بعد أن ظلت مياه الفيضان تغمرها لمدة ست أو سبع سنوات. وفى العام نفسه أخذ مينخيس عشرين أروره أخرى من الأراضى المشبعة بالمياه و ثلاثاً وتسعين أروره من الأراضى غير المنتجة. هذا الرقم الأخير يشكل مجموع أربع قطع كان يمتلكها أربعة من أصحاب الإقطاعيات، وكان إيجارها محدداً بقيمة صورية هى أردب للأروره، بسبب المكانة المتميزة لأصحاب الإقطاعيات. لقد أخذ مينخيس على عاتقه زراعة الثلاث وتسعين أروره، متعهداً "أن أنتج الأردب المفروض عن هذا العام، وإلا دفعت الأردب من جيبى الخاص." ولأن مينخيس كان مستعداً لدفع خمسة أضعاف هذه القيمة عن أرض مسجلة بوصفها غير منتجة، من أجل الحصول على منصبه، يبدو أنه كان يتطلع إلى الحصول على ربح كبير من الثلاث وتسعين أروره. هناك أيضاً عقد من العام التالى استأجر مينخيس بمقتضاه من أحد أصحاب الإقطاعيات أرضاً مزروعة أعشاباً، ويبدو أن نيته كانت تتجه إلى إعادة تأجيرها لآخرين لكى يقوموا برعى الحيوانات فيها. وفى وثيقة ثالثة نقابل مينخيس بوصفه مسؤولاً عن قطعتين أرض ربما استأجرهما من التاج.[٦]

لا حاجة بنا إلى القول إن مينخيس لم يزرع كل هذه الحقول، أو أياً منها، بعرق جبينه. وبالإضافة إلى ذلك جعله منصبه، الذي يُطلعه على كافة وثائق القرية، في وضع أفضل من غيره لمعرفة المكان الذي يعثر فيه على العمالة الضرورية من بين القرويين، وبطبيعة الحال، كان باستطاعته أيضاً أن يجبرهم على العمل لحسابه إذا لم يتمكن من إقناعهم بلطف. إن هناك ما يدعونا إلى افتراض أن رجلاً مثل مينخيس، تولى منصب موظف القرية لسنوات عدة، كان على درجة من الذكاء والتدبير تجعله لا يزج بنفسه في هذه المشروعات إلا بعد أن يتأكد من حصوله من ورائها على ربح مجز ومنتظم.

وفى عام ١١٠ ق.م. تبع مينخيس في منصب موظف القرية أخوه بوليمون (Polemon). ولأننا لا نعرف من الوثائق سبباً أو دافعاً للتغيير فإن الاحتمال التقليدىّ هو أن يكون مينخيس قد توفى، أو أنه تقاعد بسبب تقدم السن أو عجزه عن مواصلة العمل. ولكن نظراً لأن معظم الوثائق التى أشرنا إليها عن نشاطه الزراعىّ، إن لم تكن كلها، ترجع إلى آخر عامين قضاهما في منصب موظف القرية، فمن الممكن أن نفترض أن مينخيس قد رتب أن يشتغل أخوه بهذا المنصب لكى يتفرغ هو للتركيز على مشروعاته الزراعية المثمرة.

كانت المهمة الأساسية لموظف القرية في النظام الإدارىّ للحكومة البطلمية هى جمع السجلات الأساسية للنشاط الاقتصادىّ الرئيس، الزراعة، والمحافظة عليها. وكانت الوثائق التى يحتفظ بها مينخيس تشتمل على أنواع عديدة، منها ما يتعلق بالأراضى والمحاصيل والسكان والإيجارات والضرائب. كذلك كانت أعدادها لا حصر لها، وقد وصل إلينا بعضها على لفافات وقطع البردى التى تتضمن مئات من أعمدة الكتابة، التى تقابل الصفحات في وقتنا هذا. وعلى الرغم من ذلك يشكل ما وصل إلينا جزءاً صغيراً من أكوام الأوراق التى كانت ولا شك تملأ مكتبه. إن وثائق مينخيس، كما تقول إحدى الدارسات الحديثات، "توضح بالتفصيل جانباً من جوانب الإدارة البطلمية بكل ما فيها من مواطن قصور وضعف. إن الطابع التجريبىّ لنظامها، بالإضافة إلى الازدواجية في توزيع المسؤولية الإدارية... واهتمام الإدارة الكبير بالشؤون المالية، كلها أمور تبدو شديدة الوضوح."[٧] ولننظر الآن إلى بعض هذه الوثائق.

لقد كان يجرى كل عام مسح للأراضى في أواخر الصيف وأوائل الخريف لمعرفة المساحات التى رواها فيضان النيل والتى يمكن زراعتها في الدورة الزراعية التالية. وكانت مجموعة الأفراد الذين يتولون هذه المهمة تضم مساحاً متخصصاً وموظف القرية وعدداً من المسؤولين الآخرين الذين يشهدون النتائج ويوثّقونها. وكانت الوثائق الناجمة تشكل سجل القرية الذي يتم على أساسه حساب المحاصيل والإيجارات والضرائب. وكان السجل، حسب عادة مصرية قديمة، يتضمن نتائج المسح مرتبة من الجنوب إلى الشمال، متتبعاً ولا

شك اتجاه فيضان النيل. إننا نرى أيضا من خلال أوراق مينخيس أن هذا المسح كان يتيح الفرصة لعمل إحصائيات وقوائم أخرى على أساسه. وبينما كان أبسط شكل للقوائم يتضمن قطع الأراضى الموجودة في المنطقة محددة حسب المساحة ونوعيتها وشخصية المالك، فإن أكمل أشكالها كان يضم بالنسبة لكل قطعة أرض اسم صاحبها ونسبة الضريبة أو الإيجار وأطوال أضلاعها الأربعة محددة بالذراع، والمساحة الإجمالية بالأرورات والمحصول المزروع عليها واسم المزارع. وفيما يلى اقتباس صغير من كل من هذين النوعين من القوائم:

بعد ذلك من جهة الجنوب وابتداءً من الشرق: بيتيسوخوس بن سارابيون، أراضى تابعة للتاج ٥ر٤ [أروره]؛ بعد ذلك إلى الغرب قناة رى ٢٥ر٠ [أروره]....

بعد ذلك إلى الغرب وابتداءً من الشمال: حصة أرض مساحتها سبع أرورات تخص كومون (Komōn) بن بخيسيس (Pekhysis) [جندى] من وحدة خومينيس (Khomenis)، ٥ر٦ [أروره]....

بعد ذلك إلى الغرب وابتداءً من الشمال: حصة أرض سبع أرورات تخص كوللوثيس (Kollouthes) [جندى] في وحدة خومينيس، [٥ر٦] أروره....

[بالإضافة إلى] أراضى التاج ٩٧ر٠ الإجمالى: ٤٧ر٧ [أروره].

وبحساب ٥ر٤ [أردباً لكل أروره] ١٩ر٠

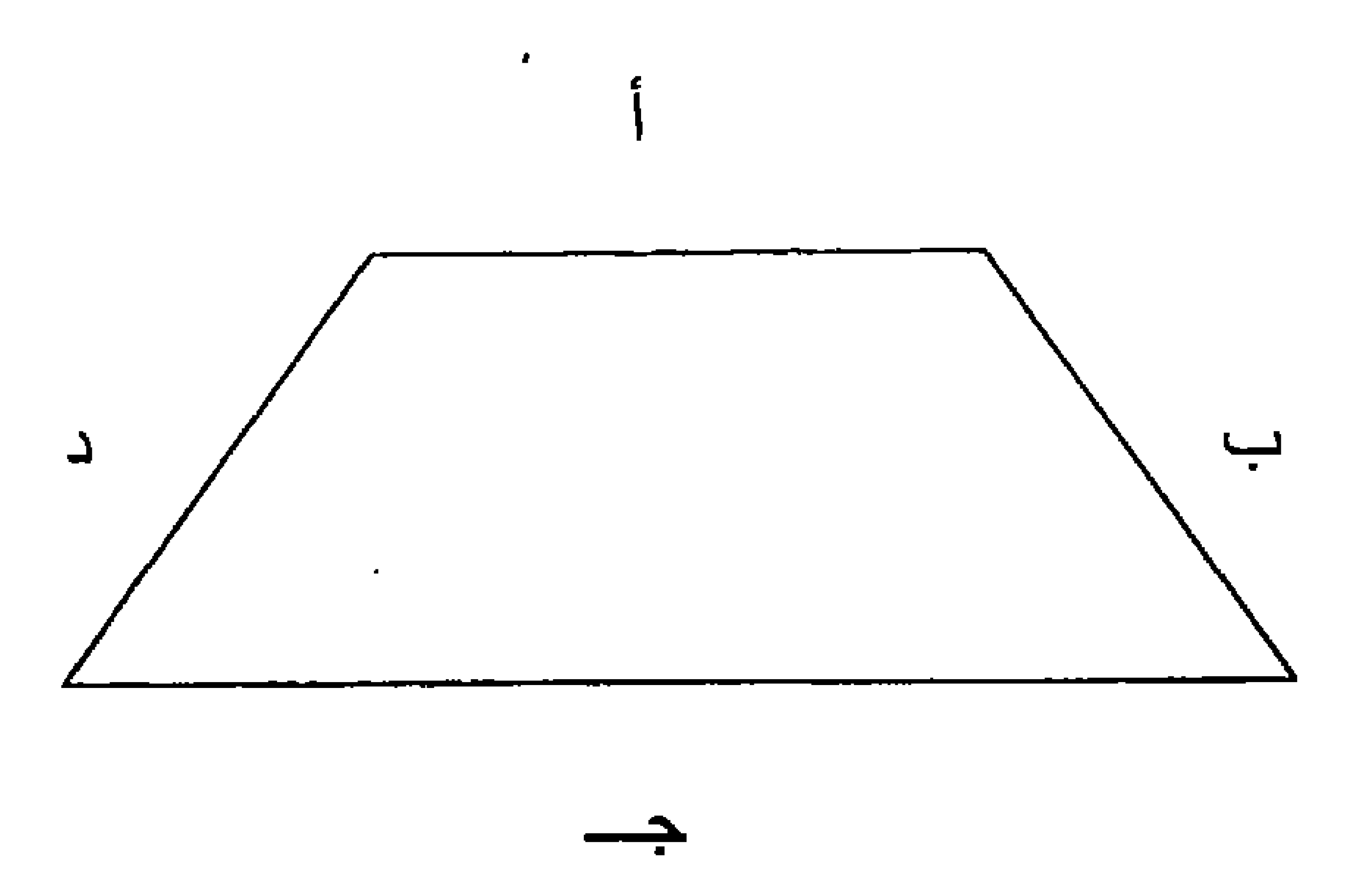
[مقاييس الأربعة جوانب بالذراع] ٧٢ر٦ ، ٢٢ر٦ = ٨ [أرورات].

مساحة زائدة: ٥٣ر٠ [أروره].

[المحصول] كمون أسود؛ المزارع: المالك نفسه.[٨]

إننا نعرف أيضاً من مثال آخر اقتبسناه كيفية حساب الشكل الرباعىّ في هذه الأيام، على الأقل فيما يتعلق بالناحية الإدارية، إن لم يكن من الناحية العلمية. لقد كان يُضاعف متوسط الجوانب المتقابلة، سواءً أكان المحيط لمتوازى أضلاع أم لا. وهكذا كانت مساحة قطعة الأرض الموجودة في الشكل التالى تحسب طبقاً للمعادلة التالية: (أ + ج ÷ ٢) × (ب + د ÷ ٢). إن النتيجة الطبيعية للحساب بهذه الكيفية هى أن المساحة الناجمة قد تزيد غالباً عن المساحة التى يتوصلون إليها بالمقاييس الفعلية في أثناء عملية المسح، كما في

الحالة التى اقتبسناها والتى يصل مقدار الزيادة فيها إلى ما يزيد عن نصف أروره بقليل.



شكل رقم (٣): كيفية حساب مساحة الشكل الرباعيّ.

إن عمل مينخيس في مسح الأراضى لا ينتهى بانتهائه من جمع هذه السجلات ومن تصنيفها؛ إذ كان عليه أيضاً أن يجهز أنواعاً عديدة من القوائم الإضافية. وكان يسجل في أحد أنواع هذه القوائم الأرض حسب فئتها وأسماء الحاصلين على أراضى المعابد أو الإقطاعيات وعدد الأرورات في كل قطعة أرض. وفى قائمة أخرى كان يكتب قائمة مشابهة للذين يزرعون أراضى التاج، توضح مساحة الأرض التى يزرعها كل منهم بنفسه أو بالمشاركة مع غيره، وقيمة الإيجار المفروضة والقيمة المدفوعة بالفعل. أما القائمة الثالثة فكانت تتضمن مساحات أراضى التاج التى لم تُزرع، كما في المثال التالى:

العام الرابع [١١٣ ق.م.]. من مينخيس موظف قرية كيركيوزيريس. تقرير عن الأراضى غير المزروعة... مرسل إلى وزير المالية بعد رمى بذور العام الرابع، وأيضاً عن الأراضى التى يمكن تأجيرها في العام الخامس بإيجار منخفض:

- الأراضى التى أصبحت غير منتجة في الأعوام التالية للعام الأربعين [١٣١ ق.م.]: ١٩ر٣٤٠ [أروره كانت تعطى إيجاراً قدره] ٤١ر٧٧٥ر١ أردباً.
- الأراضى التى أصبحت غير منتجة في الأعوام التالية للعام التاسع والثلاثين: ٤٣ر٥٩٦ر٣٩ [وكان إيجارها] ٥٦ر٠٦٣ر٣ أردباً.

مجموع مساحة الأراضى غير المزروعة: ٥ر٩٣٦ [وكان إيجارها] ٧٥ر٨٣٨ر٤ أردباً....

مطروح منها: أراض غير مزروعة يمكن أن تؤجر في العام الخامس بإيجار مخفض من أجل الحشائش والأعشاب، من الأراضى التى أصبحت غير منتجة من العام الأربعين وقدرها ثلاثون أروره كانت تعطى سابقا ٥٦ر١٤١ أردبا بإيجار قدره ربع أردب لمدة خمسة أعوام، ثم نصف أردب لمدة خمسة أعوام تالية، وبعدها بإيجار قدره أردب. تفصيل هذه الثلاثين أروره:

[أراض] غطتها مياه الفيضان عام ٥١ [١٢٠ ق.م.]

٦٨ر١١ [أروره تنتج] ٧٥ر٢٨ أردباً.

[أراض] جافة منذ عام ٤٠ : ٠٦ر١١ [أروره تنتج] ٤٥ [أردباً].

[أراض] غير مزروعة وبور: ٢٥ر١٣ [أروره تنتج] ٧٥ر٦٧ أردباً.

المجموع: ٣٠ أروره كانت تغل سابقاً ٥٨ر١٤١ أردباً.[٩]

بعد تسجيل بيانات الأراضى بهذه الكيفية على أساس المسح الذي يجرى كل عام، كان مينخيس يتابع أمر المحاصيل فيما تبقى من الوقت. وهنا أيضاً نجد أن سجلاته متعددة الأنواع وتتفاوت بين سجلات تضم معلومات مختصرة وأخرى تضم معلومات تفصيلية. وعلى سبيل المثال أعد مينخيس التقرير التالى بصفة مؤقتة، ربما لعرضه على السكرتير الملكىّ للإقليم في التاسع من نوفمبر عام ١١٤ ق.م.، وهو وقت يكون فيه فيضان النيل قد انحسر وتراجع غالباً إلى مجراه، وبدأ موسم رمى البذور. إن تاريخ التقرير الذي يرجع إلى اليوم العشرين من الشهر المصرىّ يوحى أن على موظفى القرية أن يسلموا تقارير من هذا النوع كل عشرة أيام، تشبه كل منها الأسبوع، الذي تُقسم أيام الشهر الثلاثين على أساسه في بعض الأحيان:

العام الرابع [١١٣ ق.م.] من مينخيس موظف قرية كيركيوزيريس:

تقرير عن الأراضى المروية والمبذورة حتى العشرين من بؤنه:

في العام الثالث زرعت ٧٥ر١٩٣ر١ أروره، وأعطت إيجاراً قدره ٤٢ر٦٦٥ر٤ أردباً، وحتى هذا التاريخ روت المياه ٥٢ر١٢٢ر١ أروره [تعطى إيجاراً قدره] ٤٢ر٣١٣ر٤ أردباً. الفارق الذي ما تزال المياه تغطيه حتى الآن هو ٥ر٧١ أروره [تعطى إيجاراً قدره] ٥ر٣٥١ أردباً.

المحصول	أروره	الإيجار/أردب
عدس	٩	٢٥ر٤٤
حمص	٣٥	٢٥ر١٦٧
عشب	٦٠	٦٠

ما نبقى من الأرض المنتظر بذره: ٢٥ر١٨٠ر١ [أروره، تعطى] ١٧ر٤٢٠ر٤ اردبا.[١٠]

وعلى ما يبدو فقد كان الوقت ما يزال مبكراً في هذا التوقيت بالنسبة لزراعة الغلال التى تُزرع بها معظم الأراضى الموجودة في المنطقة. ولا شك في أن مينخيس كان يُسلم تقارير مشابهة ومفصلة عن سير العمل الزراعىّ كل مدة، ربما عشرة أيام، كما افترضتُ سابقاً، حتى انتهاء موسم البذر. بعد ذلك كان يقوم بتجهيز قوائم مشابهة عن المحاصيل المختلفة تبين الإيجارات التى تم تحصيلها بالفعل، بالمقارنة بتلك التى ينتظر الحصول عليها. هذه التقارير كانت تملأ كافة أوراق البردى التى عُثر عليها في جبانة التماسيح المقدسة في مدينة تيبتونيس، وهى أطول من أن نحاول اقتباسها بالتفصيل، بالإضافة إلى أنها يغلب عليها طابع التكرار الممل. وفيما يلى أحد التقارير القصيرة التى كتبها مينخيس عن المحاصيل، ويبلغ طوله ثمانية وتسعين سطراً مقسمة على خمسة أعمدة. كُتب هذا التقرير بعد أن بُذرت البذور وبدأت نباتات القمح والشعير في الظهور، ولما يزل هناك وقت طويل حتى يأتى الحصاد، ويلاحظ أنه يوجد تفاوت بينه وبين أحد التقارير التى سنشير إليها فيما بعد:

العام ٥٣، من مينخيس موظف قرية كيركيوزيريس:

مجمل محاصيل العام المذكور: في العام ٥٢ كان مجموع الأراضى المزورعة بما فيها أراضى الأعشاب ٢٥ر١٣٩ر١ أروره [حصلت إيجاراً قدره] ٥ر٦٤٢ر٤ [أردباً] وحسب التوزيع المتوقع في العام التالى: القمح ٦٧ر٦٤٤ر١ ؛ ومن الشعير ما يعادل ٢٥ر٨٧٧ر٢ قمحاً؛ ومن الأوليرا [نوع من الشعير] ما يوازى ٧٥ر٩١ قمحاً؛ ومن الأعشاب ما يعادل ٤٢ر٣٩ قمحاً. المجموع بعد معادلته بالقمح: ٠٨ر٦٤٢ر٤ أردباً.

بالنسبة للعام ٥٣ تمت زراعة:

من القمح: ٩ر٥٧٦ أروره تعطى إيجاراً قدره ٣٣ر٥٦٧ر٢ أردباً [تلى ذلك بيانات تفصيلية بأعداد الأرورات الموجودة في كل الأقسام السبعة التى يتفاوت فيها الإيجار من ٥ر٢ إلى ٥ أرادب عن كل أروره].

من الشعير: ٤ر١٧٨ أروره تعطى إيجاراً قدره ما يوازى ٣٣ر٧٨٧ أردباً من القمح [يلى ذلك تفصيل لخمسة أنواع من الأراضى يتفاوت إيجارها ما بين ٣ و ٠٨ر٤ أردباً عن الأروره] المجموع ٣٣ر٣١٢ر١ أردباً من الشعير.

من العدس: ٢١١ أروره تعطى إيجاراً قدره ما يوازى ٤٢ر٩٣٢ أردباً من القمح،

منها ١٥١ أروره بإيجار قدره ٩٢ر٤ [أردبا] = ٩٢ر٧٤١؛ و ٢٢ أروره بإيجار ٤ = ٨٨؛ و ١٥ أروره بإيجار ٣ = ٤٥؛ و ٢٣ أروره بإيجار ٥ر٢ = ٥ر٥٧؛ ويطرح من ذلك ٤٢ر٤٣٢ أردبا أضيفت من قبل مع الأرض المزروعة قمحا، بحيث يصبح المتبقى من العدس ٥٠٠ أردبا.

مجموع المحاصيل السابقة بحساب القمح ٢٥ر٩٦٦ أروره، ٦٧ر٦١٨ر٤ أردبا.

[تلى ذلك معلومات تفصيلية مشابهة عن النباتات الخضراء وعن الحمص والأعشاب ونباتات العلف المقطوعة والقائمة].

المجموع بما فيه الأراضى المزروعة غلالاً: ٢٥ر١٢٢ر١ أروره تعطى ٦٥٨ر٤ أردباً [مفصلة كما سبق، العام ٥٣].

هذه الكمية يمكن تحصيلها على الوجه التالى: ٣٣ر٣٣١ر٣ أردباً قمحاً، و ٣٣ر٣١٢ر١ شعيراً (ما يوازى ٣٣ر٧٨٧ قمحاً) و ٥٠٠ عدساً، وأعشاباً ما يوازى ٤٢ر٣٩ قمحاً. المجموع بحساب القمح: ٥ر٦٥٨ر٤ أردباً.

أيضاً يمكن تحصيل إيجارات عن الأراضى المروية التى تُركت دون بذور نتيجة إهمال المزارعين التالية أسماؤهم: [تلي ذلك أسماء خمسة أو أكثر من المزارعين]، المجموع ١٧ أروره.... ٧٥ر٨٣ أردباً بحساب القمح.

أيضاً توجد الأراضى المزروعة في إطار القرية بعد أن تم استصلاحها تحت إشراف بطوليمايوس بن فيلينوس ومساحتها ٥ر١٦ أروره والمؤجره دون الحصول على قرض من البذور إلى [ثلاثة أسماء] بإيجار قدره أردب عن كل أروره = ٥ر١٦ أردباً مقسمة كالتالى: من القمح ١٠ أرادب، شعير [يُسلم قمحاً] ٢؛ حلبة [تُسلم قمحاً] ٥ر٤ [11].

كان مينخيس يُسجل أيضاً تقارير منفصلة عن القيمة الإيجارية على أساس أنواع الأراضى أو الممتلكات (وكونها أراضى معابد أو إقطاعيات أو تابعة للتاج أو غير منتجة أو مستصلحة)، وفى بعض أنواع هذه التقارير كانت الأرقام الإجمالية تُناقش بعد ذلك بالتفصيل لتوضيح أوضاع قطع الأراضى، كلاً على حدة.

ومجمل القول إن مينخيس كان مسؤولاً عن مراقبة كافة مراحل العمل الزراعىّ وملاحظة كيفية تطوره في قريته. وبالإضافة إلى إعداد وتجميع وتسليم التقارير السنوية العديدة والتقارير الدورية، التى اقتبسنا بعضاً منها، كان عليه أن يتعامل مع الأحداث والمواقف التى قد تطرأ. وهناك وثيقة من عام ١١٤/١١٣ ق.م. طلب فيها أحد كبار الموظفين من موظفى القرية المساعدة في اختيار بعض الرجال "المعروفين بأمانتهم وحزمهم،" لكى يتولوا مهمة حراسة

المحاصيل والحفاظ عليها لخزانة الدولة. وفى إحدى الوثائق الأخرى من العام نفسه سجل مينخيس في تقريره أن مزارعى التاج قد أضربوا ولجأوا إلى المعبد، وكانت مراسيم العفو السابق ذكرها والصادرة عام ١١٨ ق.م. قد كررت التأكيد على حق اللجوء إلى المعابد، قائلة: "وقد قرروا أنه لا يجوز أخذ أحد من أماكن اللجوء الموجودة تحت أية دعوى كانت."[١٢]

وعلى الرغم من أن النشاط الزراعىّ في القرية، بكل ما فيه من تشعب ومشاغل، كان يحتل جزءاً كبيراً من وقت مينخيس، فلم يكن هذا النشاط يشكل الجانب الوحيد من مسؤولياته بوصفه موظف القرية. ولننظر الآن إلى بعض مشاغله ونشاطاته الأخرى.

من بين الواجبات العديدة التى جعلت حياة موظف القرية مليئة بالمشاغل المراسلات التى لا نهاية لها والتى يجب عليه القيام بها، وكذلك الانتقالات المتكررة من أجل الأعمال الرسمية المتمثلة في رحلات تفتيش متعددة الأغراض داخل قريته، ورحلات دورية، ربما شهرية، إلى عاصمة الإقليم التى تبعد حوالى ثلاثين كيلومتراً من مكان إقامته. كذلك كان يسافر في أحيان نادرة إلى الإسكندرية. وكان عليه أيضاً أن يوفر بعضاً من وقته لكافة الحوادث المفاجئة التى قد تطرأ في أثناء ممارسة شؤون الحياة العادية بين الناس الذين يعيشون معاً في المنطقة نفسها. إن هناك حادثة من هذا النوع كان مينخيس ضالعاً فيها، وتستدعى أن نذكرها هنا. هذه الواقعة تناولها مينخيس في الالتماس التالى الذي كتبه باسمه ونيابة عن أخيه بوليمون، وقدمه إلى الملك والملكة، اللذين تصادف وجودهما في المنطقة:

> في اليوم السابع عشر من هاتور من العام الحالى ٥٣، عندما وصلت الأخبار أن أسكليبياديس، من موظفى أمينياس (Aminias) وقائد الشرطة العسكرية فى الإقليم، بصدد زيارة القرية خرجنا لاستقباله طبقاً للعادة المتبعة، آخذين معنا شيخ القرية وبعض كبار المزارعين المستأجرين وديمتريوس القائم بأعمال قائد الشرطة في القرية، وغيرهم. وعندما بدأناه بالتحية قام بالقبض علينا [مينخيس وبوليمون] وكذلك على ديمتريوس وأحد المزارعين، ويُدعى ماريّس (Marrēs) بن بيتوس (Petōs)، قائلاً إن هناك شكوى ضدنا وضد مارون (Marōn) بن ديودوروس وبيتيسوخوس بن .... وسيمون (Simōn) بن .... وكلهم من ساكنى القرية المذكورة،

وأيضا ضد أرنيميدوروس موظف قرية إيبيون (Ibion)، قرية الكليروحوى من فئة أصحاب العشرين أروره. وكان هاريوتيس (Haryotēs) بن هارسينيسيس (Harsiēsis) من كروكوديلوبوليس قد قدم شكوى يقول فيها إنهم حاولوا التخلص منه بدس السم له في أثناء تناولهم العشاء مجتمعين في حان بالقرية. وقد عرضنا جميعا بواسطة أسكليبياديس على أمينياس في اليوم التاسع عشر من الشهر المذكور وكانت نتيجة التحقيق، الذي حضره أيضاً أمينيوس (Ammeneus) السكرتير الملكيّ [للإقليم]، إخلاء سبيلنا لأن الطرف الآخر لم يحضر. ولهذا، من أجل القضاء على محاولات التحرش بنا بتكرار هذه التهم.... أو محاولات توجيه اتهامات زائفة وابتزازنا بسبب المعلومات الموجودة في تقاريرنا والمتعلقة بمصالحكم، فإننا مضطرون إلى اللجوء إليكم طلباً لحمايتكم، ونرجوكم، يا عظماء الآلهة ومن لكم النصر، أن تهبونا أيضاً جانباً من رعايتكم التى تمنحونها الجميع. وحيث إنه قد تبينت براءتنا بعد التحقيق الرسميّ الذي حضره أيضاً السكرتير الملكيّ للإقليم، أرجو، إذا تراءى لكم، أن تأمروا بإرسال التماسنا إلى أبوللونيوس "ابن عم الملك" وحاكم الإقليم، لينفذ مشيئتك ألا يتهمنا أحد بدافع من الوشاية والابتزاز. فبهذه الكيفية لن يتيسر لأحد بعد ذلك أن يتحرش بنا بالتهديد بالتهم نفسها، أو أن يُزعجنا لسبب آخر أياً كان. وبهذه الكيفية سيتمكن مينخيس من ممارسة مهام عمله في خدمته لكم دون عوائق، ونكون قد حصلنا على تأييدكم لنا ما تبقى لنا من عمر، والسلام.

[من السكرتارية الملكية] إلى أبوللونيوس. إذا كان الموضوع كما يؤكد، اهتم بألا يتحرش بهم أحد أو يزعجهم.[١٣]

ما الذي يمكن فهمه من هذه الحادثة؟ قبل الإجابة على هذا السؤال علينا أن نذكر بشكل عابر أن أحد المتهمين، وهو سيمون، يحمل اسماً يهودياً. كذلك تدلنا وثيقة بردية من الوقت نفسه على وجود صومعة يهودية "سيناجوج" في كروكوديلوبوليس، عاصمة الإقليم. هذه المعلومات ليست جديدة بالنسبة لنا؛ إذ أننا نعرف أنه كانت توجد مجتمعات يهودية في المدن والمراكز الرئيسة في مصر قبل ذلك التاريخ بوقت طويل. وعلى الرغم من ذلك توحى الإشارة إلى سيمون في الوثيقة المقتبسة بوجود مجتمعات يهودية كبيرة حتى في بعض القرى الصغرى في الريف، إذ يفترض أن مجموع سكان كيركيوزيريس يبلغ حوالى ٥٠٠ر١ نسمة في أثناء الأعوام التى شغل فيها مينخيس منصب موظف القرية.[١٤]

وإذا عدنا إلى الاتهام الغريب بدس السم والنهاية المفاجئة للقضية، فإنه

تجب الإشارة، بادئ ذي بدء، إلى أن مثل هذه الاتهامات في مصر البطلمية لم تكن تُفضي بشكل تلقائي إلى سجن المتهم قبل المحاكمة. إن بردية أخرى من أرشيف مينخيس تعرفنا، على سبيل المثال، أن أحد ساكني قرية كيركيوزيريس سُمح له أن يعيش في منزله حتى تم إخطاره بضرورة الحضور إلى عاصمة الإقليم، وأُعطى مهلة ثلاثة أيام لتنفيذ الأمر، على الرغم من كونه "متهماً في جريمة قتل وبعض الجرائم الأخرى."[١٥] أما فيما يتعلق بالحالة الضالع فيها مينخيس، فلا بد أن هناك كثيراً من الأمور المتخفية وراء كلمات الالتماس الذي سلمه، والذى انتقى كلماته وعباراته بعناية. لقد قُبض على المتهمين في السابع عشر، وأخذوا إلى عاصمة الإقليم، وظلوا في السجن يوم الثامن عشر، ثم عرضوا على المحكمة في اليوم التاسع عشر، وهنا لم يظهر المدعى في المحكمة. هل يعنى ذلك أن المدعى قد عوفى في أثناء ذلك الوقت من الاضطرابات المعوية، واستقر رأيه في نهاية الأمر على أن أحداً لم يحاول دس السم له؟ في هذه الحالة لماذا لم يسحب شكواه؟ هل كان متحيراً وخائفاً من الظهور في ساحة عامة أو خائفاً من أن يُعاقب على توجيهه اتهاماً زائفاً؟ إن الشكوك والأسئلة التى لا إجابة لها تتضاعف، حتى ونحن نفترض أن الاتهام كان صادق النية *bona fide*. إن الأمر الأكثر احتمالاً، لهذه الأسباب، أن أمامنا حالة تحرش لها دوافعها الخارجية، وتتخذ من موظف القرية هدفاً خاصاً لها. لاحظ على سبيل المثال إشارات مينخيس المتكررة إلى الابتزاز، ولاحظ أيضاً أنه بعد أن أعطى قائمة بأسماء المقبوض عليهم يقول إنهم كانوا في حفل العشاء الذي يُفترض أن واقعة التسمم قد حدثت فيه، والذى لم يحضره هو وأخوه. إذا كانت هذه هى الحقيقة بعينها، وهو ما نطمئن إليه، خاصة لأن مينخيس لن يضعف موقفه بعرض وقائع مختلفة يمكن التحقق منها بسهولة، فسيتضح عندئذ أن موظف القرية وأخاه قد زجّ بهما في الاتهام بتدبير سئ النية. وعلى أية حال فإن الرواية بأكملها دليل على الحقيقة القائلة إن منصب موظف القرية كان يجلب لشاغله صداقة البعض، وعداوة البعض الآخر.

يؤكد هذا الانطباع تقرير عن حادثة أخرى وقعت بعد عدة شهور من

ذلك التاريخ. في هذه الحادثة وجهت إلى بعض الأفراد المقيمين في أماكن مختلفة في الإقليم تهمة الفساد والاختلاس. وطُلب من موظفي القرى التي ينتمون إليها أن يعدوا جرداً بممتلكات كل من هؤلاء المتهمين، وأن يسلموه إلى السلطات. وعلى الرغم من أن أوراق البردى مهترئة بدرجة واضحة، فقد تبقى من النص جزء يكفي للدلالة على أن مينخيس قد أعد تقريره بدقة واضحة، متغلباً على العوائق التي "حاول" بعض هؤلاء الأفراد وضعها في طريقه.[16]

وبالنظر إلى أنه لم تكن لدى موظف القرية أية صلاحيات من صلاحيات الشرطة، التي كان يقوم بدورها بعض الأفراد المحليين بمعاونة وحدة عسكرية أو شبه عسكرية تقع في مكان ما في الإقليم، فإن القرويين كانوا يوجهون شكاواهم عادة "لعرضها على السلطات المختصة." هذه الشكاوى والالتماسات التي وجدناها في أرشيف مينخيس تعطينا لمحات قيمة عن الحياة اليومية في قرية مصرية قرب نهاية القرن الثاني قبل الميلاد. وفي بعض الصفحات التالية من هذا الفصل سنقتبس بعضاً من الأمثلة، وسوف نلخص البعض الآخر لتوضيح ذلك.

إن أحد الالتماسات المقدمة عام ١١٣ ق.م. يفصح عن محتواه، بينما تدل وثيقة بردية أخرى في الأرشيف على أن أبوللودوروس، مقدم الالتماس، أتيحت له فرصة مشابهة لتقديم التماس قبل بضعة شهور من هذا التاريخ. لقد كان يحدث عندئذ ما يتكرر في وقتنا الحاليّ من أن كثيراً من الناس يلجأون إلى وسائل "مراوغة النظام" عندما يُجبرون على شراء منتجات بأسعار احتكارية مرتفعة دون داع. وفي الحالة الأولى ذهب أبوللودوروس لتقصي الأمر دون أن يصطحب معه قوة شرطة، فاعتدى عليه المتهم وألقى به خارج المنزل. وبعد سبعة أيام من هذه الحادثة يقول أبوللودوروس:

> عندما قابلت سيسوئيس (Sisoïs) عند معبد زيوس، وأردت القبض عليه لأن إينيلووس (Ineilous) الحارس المسلح وتريخامبوس (Trychambos) [ممثل الموظف الماليّ للإقليم] كانا موجودين، ألقى أخوه باوزيريس الحمال هو وبيلليس وديماس (Demas) ومارون (Marōn) بن تاكونوس (Takonnōs) وغيرهم ممن لا أعرف أسماءهم بأنفسهم علينا، وتغلبوا علينا بكثرتهم، وكالوا لنا اللكمات

والضربات بهراوانهم، فجرحوا ذراع زوجتى الأيمن، وذراعى الأيمن. إن الخسارة المتعلقة بالعقد الخاص بى تصل إلى عشرة تالينتات نحاسية.

وفيما يلى الوثيقة التالية التى سُلمت بعد مرور يوم أو يومين على الحوادث المذكورة فيها:

[من أبوللودوروس الحاصل على امتياز بيع الزيت وعلى جمع الضرائب الخاصة بالزيت في القرية في العام الرابع. لقد أصبح المشروع الذي أعمل فيه بلا فائدة بسبب بعض الأفراد الذين يُهربون بالمخالفة للقوانين زيت الزيتون وزيت الخروع إلى القرية بغرض بيعه في السوق السوداء. لقد أبلغنى أحد الأفراد في الحادى والعشرين من أمشير أن رجلاً تراقىّ الأصل يقيم في [قرية] كيركيسيفيس (Kerkesēphis)، لا أعرف أسمه، قد هرب زيتاً إلى المنزل الذي يقيم فيه صانع الأحذية بيتيسوخوس وأنه يبيعه هنا بالمخالفة للقوانين إلى ثايسيس (Thaēsis) الذي يقيم في المنزل نفسه، وإلى مربى الأوز ....يوس، وإلى ابنته المقيمة في القرية نفسها. وبالنظر إلى أنك لم تكن موجوداً في ذلك الوقت فقد اتصلت في الحال بقائد الشرطة، وأخذته مع أحد أفراد الشرطة إلى منزل صانع الأحذية المذكور. وهناك وجدت الرجل التراقىّ في الداخل، ولكن البضائع المهربة تم إخفاؤها. وبعد أن بحثنا عنها وجدنا بعضها .... مخبأ تحت الجلد والفرو الذي يخص صانع الأحذية. [وبينما نحن مشغولون بذلك] فرّ الرجل التراقىّ [واستولينا نحن على كمية زيت مهربة قيمتها .... دراخمه فقط]. وكان نتيجة ذلك أن خسارتى بلغت خمسة عشر تالينتاً نحاسياً. ولهذا أسلم إليك هذا البيان حتى توقعه وترسله إلى المسؤولين المختصين.

كان الإجراء العادىّ الذي يقوم به مينخيس عندئذ في مثل هذه الحالات هو أن يحتفظ بالأصل المُسلم إليه، ثم يرسل إلى السكرتير الملكىّ بالإقليم نسخة حرفية يتقدمها خطاب منه بتحويل الموضوع.[١٧]

ويمثل ما يزيد عن عشرة وثائق من التى وصلت إلينا من مكتب مينخيس شكاوى تتعلق باقتحام منازل ودخولها عنوة، وبحوادث اعتداء وسرقة وإيذاء بدنىّ. لقد اقتبسنا في الفقرة السابقة حادثة الاعتداء على أبوللودوروس، أما الوثيقة الأخرى في هذا الصدد فقد وُجدت أيضاً ضمن أوراق مينخيس على الرغم من أنها كانت موجهة لقائد الشرطة. هذه الوثيقة تتعلق ببعض المستندات المسروقة وتتضمن، على ما يبدو، طلباً بالبحث عنها واستعادتها؛ إذ أن البردية قد فقد الجزء الأخير منها ولا نعرف بالتالى نصّ الكلمات التى تتضمن الغرض

الأصليّ من الالتماس. ولم يكن لموظف القرية، كما ذكرنا، أية صلاحيات للضبط والإحضار، وكان دوره الأساسيّ فيما يتعلق بالالتماسات المشابهة لهذه هو إرسال نسخة إلى السلطات المعنية. ومع ذلك كان من سلطته القيام ببعض التحريات، وفى بعض الأحيان، كان يُطلب منه تحديداً بواسطة موظفين أعلى درجة منه، كما رأينا من قبل، أن يقوم بمثل هذه التحريات. كذلك كان يُنتظر منه بالتأكيد أن يفصل في بعض النزاعات المحلية بنفسه، كما في الحالة التالية:

> إلى مينخيس موظف قرية كيركيوزيريس من أبوللوفانيس (Apollophanēs) بن ديونيسودوروس (Dionysiodōros)، مزارع أرض التاج في القرية المذكورة. في اليوم العشرين من بؤنه من العام الخامس فتح نيكون (Nikōn) بن أمينيوس من القرية المذكورة الماء على أرضه، وأغرق أرورتين ونصف من أراضى التاج التى أنا مسؤول عنها. ولأن ذلك حدث أثناء الوقت الذي كانت تحرث فيه [الأرض] فإن خسارتى تقدر بعشرين أردباً من القمح. لهذا، فإننى أسلم [هذا الالتماس] إليك حتى يعرض عليك المتهم، وتجبره على أن يعوضنى عن الخسارة، وإذا رفض [فإننى أطلب] أن ترسل نسخة من هذا الالتماس إلى الموظفين المسؤولين حتى يتم تسجيله وحتى لا يلحق بالخزانة أية خسارة، والسلام.[١٨]

وكما لاحظنا من قبل في الفصلين الأول والرابع، تسبب وجود أصحاب الإقطاعيات اليونانيين والمصريين إلى جوار بعضهم البعض فى القرى نفسها في خلق مشكلات من نوع خاص يمكن أن تتصاعد لأبسط الأسباب. وفى بعض الأحيان لم تكن هناك حاجة إلى القشة لينقصم ظهر البعير، كما يقولون، لأن الكليروخوى، أو على الأقل بعضاً منهم، كانوا يرون في المزارعين لقمة سائغة يفعلون بها ما يشاءون. لقد وجهت إلى مينخيس خمس شكاوى في يوم واحد عام ١١٣ ق.م.، وقدمها خمسة مزارعين مصريين ضد أحد رجال الخيالة الذي أساء معاملتهم، وقالوا في شكاواهم إنه حطم أبواب منازلهم بمصاحبة مجموعة من الرجال المسلحين، وعاث فيها فساداً، حاملاً منها ما طاب له. وفيما يلى إحدى هذه الشكاوى الخمس:

> إلى مينخيس موظف قرية كيركيوزيريس من هارميسيس (Harmiysis) بن سارابيون، مزارع أرض التاج في القرية المذكورة. في الثامن من مسرى العام الرابع اقتحم منزلى بيرّيخوس (Pyrrhichos) بن ديونيسيوس، أحد المستوطنين من فرقة الخيالة، وهيراكليوس بن بوسيديبّوس (Poseidippos) من القرية المذكورة، مع

جمع من الرجال وهم مسلحون بالسيوف، وقد اقتحموا المنزل، وكسروا مزلاج باب حجرة والدتى، وحملوا معهم الأشياء المذكورة فى نهاية الالتماس، على الرغم من أننى لم أفعل شيئا يضايقهم بأية حال. ولهذا، فإننى أسلم [هذا الالتماس] إليك طالبا أن توقع عليه بشأن التفصيلات [؟] وأن تبعث بنسخةً من الشكوى إلى السلطات المختصة حتى يتيسر لى استرداد ممتلكاتى، وحتى ينالوا ما يستحقون من عقوبة، والسلام.

عباءة سيدة	تالينت وأربعة آلاف دراخمه.
فستان سيدة بأكمام	أربعة آلاف دراخمه.
جرّة تحتوى على ...	ألف وستمائة دراخمه نحاسية.[١٩]

إن مما يستلفت النظر في الالتماس السابق، بوجه خاص، العبارة القائلة: "على الرغم من أننى لم أفعل شيئاً يضايقهم بأية حال،" وهى عبارة تجعلنا نرى المجتمع المصرىّ في حياة القرية وقد انطوى على نفسه إلى حد كبير، متجنباً المجتمع الإغريقىّ، خاصة الجنود، خوفاً من أىّ خطأ قد ينجم عنه سوء المعاملة والعقاب. كذلك كان للمشكلات التى من هذا النوع والتى تحدث داخل القرية ما يناظرها بين القرى وبعضها. ومن النزاعات المتكررة باستمرار، على سبيل المثال، النزاع الذي كان موجوداً بين قرية كيركيوزيريس وساكنى المستوطنة القريبة التى تسمى بيرينيكيس ثيسموفورو (Berenikis Thesmophorou). لقد كان ساكنو القرية الأخيرة يُتهمون عادة في وثائق السجل بأنهم يتدخلون في نظام عمل قنوات الرىّ، مما يؤدى إلى إلحاق الضرر بمزارعى كيركيوزيريس. أيضاً توجد لدينا الشكوى التالية عن حادثة سرقة ماشية، وهى ترجع إلى عام ١١٠ ق.م.، أىّ العام الذي انتقلت فيه وظيفة موظف القرية من مينخيس إلى أخيه، الذي وجه إليه الالتماس. وعلى الرغم من أن الالتماس كتب باليونانية إلا أنه وجه إلى أخى مينخيس باسمه المصرىّ، كما كان الحال مع الأخير:

إلى بيتيسوخوس موظف قرية كيركيوزيريس من هوروس بن كونّوس (Konnōs) المزارع في أرض التاج في القرية المذكورة. في العشرين من توت من العام الثامن بينما كنت أرعى أربعين رأساً من الأغنام المقدسة في الأراضى القريبة من كيركيوزيريس، وهى تخص مزارعى القرية المذكورة، هجم على بيتيرموثيس (Petermouthis) بن كاؤوتيس (Kaoutis)، وهو من ذوى العشرين أروره وأخوه

ببتبسوحوس من ذوى السبع أرورات [وثلاثة أسماء أخرى] مع غيرهم من [سكان] قربة سرينبكبس ثبسموفورو. وكما بفعل قطاع الطرق أخذوا القطيع المختلط الذى كان يضم أربعين رأسا منها اثنتا عشرة أنثى حبلى. ولهذا فإننى أطلب منك إرسال نسخة من هذا الالتماس إلى الجهات المختصة حتى يتم البحث عن الجناة، وتعود الحيوانات إلىّ، وينال المعتدون الجزاء المناسب، وقبل كل شئ حتى ترهن أراضيهم بواسطة الخزانة، والسلام.[٢٠]

إذا كانت أوراق كليون الذي قابلناه في الفصل الثانى تشير إلى موضوعات تتعلق كلها بأسرته وحياته الشخصية ونشاطه المكتبىّ وإلى طبيعة عمله، فإن مينخيس لا يكاد يبدو لنا إلا بصفته الرسمية. إن شجرة العائلة المذكورة في هذا الفصل أمكن تحديدها فقط لأن أسلوب التسمية المتبع في تحديد هوية الأفراد في العالم اليونانىّ كان يقضى باستعمال الاسم الأول واسم الأب، وفى بعض الأحيان كان يُضاف اسم الأم، أو اسم الجد للأب. وهكذا على سبيل المثال نجد أن والد مينخيس أشير إليه مرة واحدة في السجل، وبالإضافة إلى أخيه، فإنهما وحدهما اللذان نتعرف عليهما بصفة شخصية في السجلات. وكما ذكرنا من قبل، يمكننا فقط أن نُخمن عمر مينخيس في أثناء الأعوام التى قضاها في منصبه. ربما يمكننا افتراض أنه تزوج وأنجب أطفالاً، كما فعل كثيرون غيره، ولكن أوراق السجل لا تشير إلى أىّ منهم. لقد كان الرجل من أصحاب الأملاك ومن كبار أصحاب الأعمال، كما رأينا، ولكن ماذا عن مستوى تعليمه وثقافته بعد ذلك كله. ربما تمكننا شذرة صغيرة، تشكل دليلاً غير مباشر، من التوصل إلى إجابة ولو مبتورة عن هذا السؤال.

في عام ١١٠ ق.م. تلا بوليمون أخاه بيتيسوخوس في منصب موظف القرية، وظل في هذا المكان ثلاثة أعوام أعقبه فيها رجل لا نعرف اسمه. وقد درس مؤخراً أحد الباحثين طريقة الكتابة والخط في الوثيقتين الأولى والثانية من مجموعة بردى تيبتونيس (*Tebtunis Papyri*)؛ اللتين تضمان مختارات من الشعر اليونانىّ عن الحب والطبيعة كتبها هذا الموظف المجهول الهوية. ولأن البرديتين أدبيتان فقد كُتبتا بخط منمق بحيث إن الحروف كتبت منفردة غير متصلة مع بعض التأثيرات الجمالية وبانتظام. لقد كان الكاتب بارعاً، كما

يتضح من الشكل النهائيّ للبردية، الذي كان جميلاً ومنتظماً.[٢١]

ولكن ما دلالة هذه المعلومات بالنسبة لمينخيس؟ لقد تحول منصب موظف القرية في القرون المتأخرة، عندما أصبحت مصر ولاية رومانية، إلى نوع من أعمال الخدمة العامة الإجبارية غير مدفوعة الأجر، ولدينا من الأدلة ما يؤكد أن بعض الذين شغلوا هذا المنصب آنذاك كانوا يعرفون بالكاد كيف يوقعون أسماءهم. لقد كان العمل الكتابيّ الأساسيّ، حتى بالنسبة لشاغلي المناصب المتعلمين، يقوم به في ذلك الوقت كتبة أو عمال يستأجرهم شاغل المنصب. أما في العصر البطلميّ فإن الأوضاع والظروف كانت مختلفة تماماً. لقد جعل الراتب والمنزلة الاجتماعية والسلطة المصاحبة لموظف القرية من منصبه منصباً مرموقاً يسعى إليه الكثيرون. لقد تقدم مينخيس، كما رأينا في بداية الفصل، بعطاء كبير من أجل إعادة تعيينه. في ظل هذه الأوضاع لم تكن هناك حاجة لدى الإدارة لأن تبحث عن أفراد تنقصهم الأهلية والقدرة على شغل هذا المنصب. ولذلك فمن المحتمل جداً أن بعض الأوراق الموجودة في سجل مينخيس كتبها الرجل بنفسه، على الرغم من أنه لم يتمكن أحد حتى الآن من تحديد هذه الوثائق وسط الأعداد الكبيرة من البرديات التي يتضمنها السجل.

على الرغم من أن هذا الدليل الذي ذكرناه يعتبر دليلاً ظرفياً غير مباشر، فإنه يسهم بدوره، ولو بقيد أنملة، في تقوية الافتراض المنطقيّ أن مينخيس وزملاءه كانوا يعرفون القراءة والكتابة وعلى قدر من التعليم. ربما أمكن لقلة قليلة منهم أن تكتب بالشكل الجميل الذي نقابله على البرديتين اللتين أشرنا إليهما، ولكن جميع الموظفين كانوا يعرفون القراءة والكتابة. بالإضافة إلى ذلك كان لدى معظم هؤلاء الموظفين، إن لم يكن لدى جميعهم، القدرة المتوفرة لعدد صغير من السكان، على أن يقرأوا وأن يكتبوا باللغتين اليونانية والمصرية، خاصة لأنهم كانوا ينتسبون إلى عائلات مصرية-يونانية غنية وذات مكانة. وإذا كان مينخيس أحد هؤلاء الأفراد فإن ديونيسيوس الذي ننتقل للحديث عنه الآن هو شخصية أخرى.

الحواشي:

---

(١) انظر: The Tebtunis Papyri, I. v-vii

(٢) راجع: P. Teb. 10 = Select Papyri 339

(٣) القرارات المقتبسة توجد في: P. Teb. 5 = Select Papyri 210 = C. Ord. Ptol. 53, lines 93-98 and 161-167

(٤) عطاء مينخيس موجود في: P. Teb. 9

(٥) العقود المتوارثة مذكورة في إحدى قرارات عام ١١٨ ق.م.، انظر البردية المشار إليها في الحاشية السابقة رقم ٣، السطور ١٠-١٣. لقد حدث في الأعوام الستة السابقة لعام ١٦٤ ق.م. أن غزا أنتيوخوس الرابع ملك سوريا مصر وأعلن نفسه ملكاً له، حتى أجبره التدخل الرومانيّ على أن يرحل بجيشه مرة ثانية إلى سوريا في انسحاب متخاذل. إن القصة التى كادت تقارب الأسطورة وأصبحت من الحكايات النادرة التى كثرت روايتها في العصور القديمة مقتبسة في الحاشية رقم ٣٥ فى الفصل الأول. وبعد أن أجبر أنتيوخوس على الانسحاب من مصر ظلت البلاد ممزقة أعواماً عدة بسبب التنازع على العرش بين بطلميوس السادس وأخيه الأصغر. استقر هذا النزاع أيضاً، على الأقل بشكل مؤقت، على يد الرومان، وقد عاش الأخ الأصغر بعد وفاة بطلميوس السادس، وتمكن بمهارة من أن يتولى العرش من بعده. راجع الصفحات الأولى من هذا الفصل.

(٦) قطعتا الأرض المشار إليهما موجودتان على الترتيب في: P. Teb. 75 (lines 30-31), 65 (lines 17-23) = 75 (lines 50-51), 75 (lines 13-14), 107 and 164 (line 12)

(٧) انظر: D. J. (Thompson) Crawford, *Kerkiosiris: an Egyptian Village in the Ptolemaic Period,* Cambridge, 1971, 4

(٨) الأمثلة هى: P. Teb. 84, lines 49-57, and 87, lines 49-51 إن مقدار الزيادة، وهو ٥٣ر٠ [أرورة] يمثل الفارق بين مساحة الثمان أرورات التى تم التوصل إليها حسابياً وال ٤٧ر٧ أرورات التى تم بالفعل قياسها في الموقع. إن الاسخوينيون (*Schoinion*) هو مقياس طولى يبلغ مائة كيوبيت، أى حوالى ٥ر٥٢ متراً.

(٩) الوثائق المشار إليها هى: P. Teb. 63 and 91 والمثال المقتبس هو: P. Teb. 74, lines 1-30 إن التدقيق في التفصيلات المذكورة في هذه الفقرة الأخيرة يوضح أن مينخيس كان يرتكب بعض الأخطاء البسيطة في جمعه للحدود العشرية والكسور، تتراوح بين ٠٢ر٠ و ٧٥ر٠ .

(١٠) انظر: P. Teb. 71

(١١) انظر: P. Teb. 76 إن نسبة القمح إلى الشعير هى ٣ : ٥، أما الأوليرا (Olyra) فهو نوع من الشعير عرفه القدماء. وهنا أيضا يوجد خطأ في الجمع الذي قام به مينخيس.

(١٢) راجع: P. Teb. 27, 26, and 5 (=Select Papyri 210 = C. Ord. Ptol. 53), lines 83-84 لقد سبقت الإشارة إلى الإضرابات وإلى اللجوء إلى المعابد، انظر صفحات ٨١، ٩٠، ٩٤

(١٣) انظر: P. Teb. 43

(١٤) إن تقدير مجموع السكان هو الذي توصلت إليه كروفورد (ص ١٢٤) في المرجع السابق الإشارة إليه في الحاشية السابقة رقم ٧، ص ١٢٤. وتعطينا بردية موجودة في فلورنسا ونشرت عام ١٩٨٣ دليلاً على وجود مجتمع يهودىّ في قرية فيلاديلفيا بإقليم أرسينوى. راجع: PSI XVII Congr. 22

(١٥) الوثيقة هى: P. Teb. 14 وهى ترجع إلى عام ١١٤ ق.م.

(١٦) الوثيقة هى: P. Teb. 24

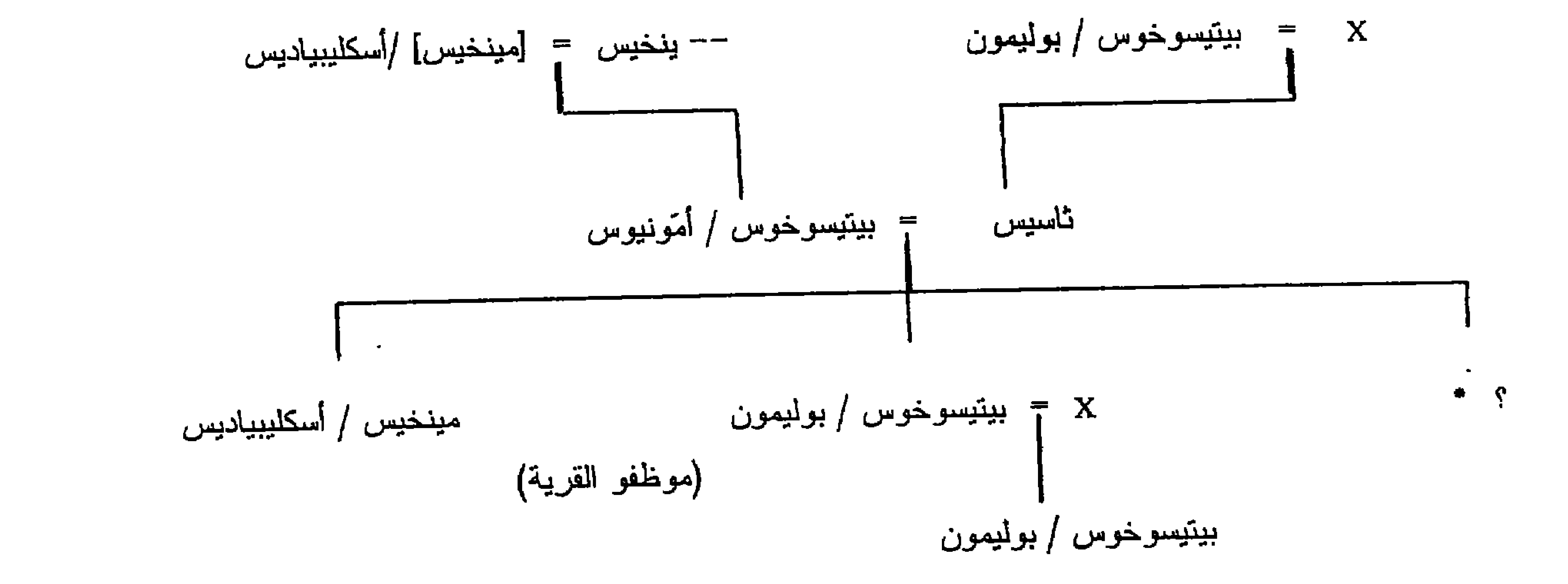
(١٧) راجع: P. Teb. 38 أما الشكوى السابقة فهى رقم ٣٩ في المجموعة نفسها. من الواضح أن إجراءات التحقيق في تلك الشكاوى قد تغيرت أو اتسعت عما كان عليه الحال في القرن السابق، كما رأينا في الفصل السابق (حيث كانت تسلم إلى حاكم الإقليم الذي يأمر قائد الشرطة في القرية بمعالجة الأمر).

(١٨) انظر: P. Teb. 49؛ ويوافق التاريخ المذكور في الجملة الثانية الثامن من نوفمبر عام ١١٣ ق.م.

(١٩) راجع: P. Teb. 46 إن الشكاوى الأربع الأخرى ضد الأشخاص المستغلين أنفسهم هى أرقام ٤٥ و ٤٧ و ١٢٦ و ١٢٧، وقد حدثت الاعتداءات في الثالث والعشرين من أغسطس عام ١١٣ ق.م.

(٢٠) انظر: P. Teb. 53 ويوافق تاريخ الحادثة التاسع من أكتوبر عام ١١٠ ق.م.

(٢١) إن اقتراح نسبة الخط في هذه الوثائق إلى الشخص الذي أتى بعد بوليمون نجده في: P. W. Pestman, *Festschrift ...Papyrus Erzherzog Rainer,* Vienna, 1983, 129



(*) يذكر السجل ثلاثة رجال هم: أمّونيوس وهيروديس وموسايوس، وربما كان أىّ واحد منهم أو هم جميعاً أبنـــاء بيتيسوخوس / أمونيوس وثاسيس، ويعنى ذلك أنهم ربما كانوا إخوة لموظفى القرية.

شكل رقم (٤): شجرة عائلة مينخيس.

الفصل الثامن

الترقى في الخدمة العسكرية:

١ – ديونيسيوس بن كيفالاس

الزمان: المدة من حوالى عام ١١٧ ق.م. إلى عام ١٠٣ ق.م. هناك وثيقة واحدة ترجع إلى عام ١٣٩ ق.م. وهى التماس قدمه والد ديونيسيوس (Dionysius). إن حفظ هذا الالتماس مع أوراق الابن يمكن تفسيره بحقيقة إن البردية أعيد استخدامها في وقت لاحق، ربما بواسطة ديونيسيوس، في كتابة قائمة لبعض الأشياء التى تخص الأخير.

المكان: أكوريس (Akōris) التى تسمى أيضاً تينيس (Tēnis)، وموقعها طهطا الحالية التى تقع في مصر الوسطى. كانت أكوريس تسمى أيضا في بعض الأحيان كروكوديلوبوليس نسبة إلى الحيوان المعبود في المدينة المحلية لمركز موخيتيس (Mōchites) في إقليم هيرموبوليس (Hermopolis). إن اسم تينيس هو المرادف اليونانىّ لكلمة مصرية تعنى تل أو هضبة، ويشير إلى التل المشرف على النيل في هذه المنطقة، ويُشكل برج مراقبة طبيعىّ لوادى النيل وحافة الصحراء الشرقية. لقد أفاد حكام مصر طوال معظم فترات التاريخ المصرىّ، من فراعنة وبطالمة ورومانيين، من هذا الموقع الاستراتيجىّ وجعلوا منه قلعة محصنة جيدا.

الوثائق: سبع وثائق مكتوبة بالديموطيقية وثلاث وثلاثون بردية باليونانية بالإضافة إلى قليل من الشذرات الصغيرة باليونانية والديموطيقية. لقد حصل رايناخ Theodore Reinach على السجل كاملاً تقريباً في شتاء عام ١٩٠١/١٩٠٢م، وهو موجود الآن في باريس ضمن مجموعة بردى السوربون. وبينما كانت المجموعة تضم وثيقتين غير كاملتين عندما حصل عليهما رايناخ، فقد عُثر على القطع المفقودة من هاتين الوثيقتين في وقت لاحق ضمن مجموعة هيرميتاج (Hermitage) في لينجراد (Leningrad). وقد أُعيد نشر السجل بالكامل في دراسة مستفيضة توجد في: E. Boswinkel and P. W. Pestman, *Papyrologica Lugduno-Batavorum,* XXII, Leiden, 1982 وهو

عمل سنشير إليه في الحواشي وعبر الجزء المتبقى من صفحات هذا الكتاب بالاختصار التالى: *PLB*

شجرة العائلة: راجع: الشكل رقم ٥ في نهاية الفصل.

عندما نقابل ديونيسيوس لأول مرة عام ١١٦ ق.م. فإننا نقابله وقد بلغ من العمر عامه الثامن عشر أو العشرين. في ذلك الوقت كان ديونيسيوس متزوجاً، وهى الحالة الاجتماعية التى نجده عليها بعد مرور ثمانية أعوام منذ ذلك التاريخ عندما تظهر زوجته في الوثائق لأول مرة. ربما كان لديه عندئذ بعض الأطفال ولكن طبيعة السجل، كما سيبدو لنا بعد قليل، لم تسمح لأحد منهم بالظهور ضمن وثائقه.

كان ديونيسيوس ينتمى إلى عائلة تشبه العائلات التى قابلناها من قبل في الفصلين السادس والسابع، وهى عائلات لها أصولها وأجدادها اليونانيون والمصريون، كما يتضح لنا من الأسماء المزدوجة التى يحملها أفرادها. كذلك تتشابه عائلتا دريتون (Drytōn) وديونيسيوس من حيث إن معظم أو كافة رجالهما كانوا من الجنود العاملين بالقوات العسكرية. لقد كان هؤلاء الجنود يختلفون عن أصحاب الإقطاعيات الذين حصلوا لأنفسهم ولأسرهم على قطع أراض من حيث إنهم كانوا يخدمون في وحدات عسكرية مقابل أجر مادىّ ومميزات أخرى. وكانت الحياة العسكرية تعطيهم منزلة اجتماعية رفيعة، ووقت فراغ وموارد مالية تمكنهم من الحصول على بعض الممتلكات المحلية، والدخول في بعض التعاملات التجارية الأخرى. وكان الجنود يقومون بهذه الأنشطة إما بأنفسهم أو بمساعدة بعض أفراد الأسرة الآخرين، كما رأينا في حالة دريتون، وكما سنرى في هذا الفصل في حالة ديونيسيوس. وعلى الرغم من ذلك كانت أسرة ديونيسيوس من حيث المكانة العسكرية، وبالتالى من حيث المكانة الاجتماعية، في منزلة أقل من أسرة دريتون وابنه إستلاداس اللذين خدما في فرقة الفرسان، وهى فرقة كان يُستبعد منها عادة أبناء البلاد المصريون، أو من هم من أصل مختلط. وبينما كان ديونيسيوس وأبوه من قبل يخدمان في

فرقة المشاة، فقد نجح أخوه بائيسيس (Paēsis) في الحصول على ترقية دخل بها فرقة الفرسان، وهو ما يدل على أن أحد العوائق القديمة أمام الترقية الاجتماعية قد بدأ في الزوال.

لقد أخذت أسرة دريتون تتشبه بمرور الوقت بالمجتمع المصرىّ الذي تعيش فيه، وكان ذلك في العقود الأخيرة من القرن الثانى قبل الميلاد. قبل ذلك الوقت بكثير كان العنصر المصرىّ هو العنصر الغالب على أسرة ديونيسيوس، وربما كان ذلك منذ بداية القرن ذاته. وعلى الرغم من ذلك لم تتخل الأسرة عن الأسماء اليونانية لأفرادها ولم تهمل اللغة اليونانية، بل حافظوا على هذه العلامات الدالة على مكانتهم المتميزة. وعلى الرغم من ذلك فقد كانوا جميعاً منغمسين تماماً في الوسط والبنية الثقافية المصرية، حتى أن ديونيسيوس، على سبيل المثال، حصل على منصب كهنوتىّ في عبادة الإله أبو منجل المحلىّ. كذلك كان أفراد هذه الأسرة يستخدمون عادة أسماءهم اليونانية في الأمور العسكرية والرسمية ومعظم التعاملات التجارية، وهى المجالات التى كانت تُستخدم فيها عادة لغة الطبقة الحاكمة، أو على الأقل ينبغى استخدامها. أما في المنزل وأيضاً في صلاتهم الاجتماعية الوثيقة فقد كانوا يتنادون بأسمائهم المصرية، ويتكلمون بلغة أهل البلاد. وفى بعض الأحيان كانوا يستخدمون أيضاً الديموطيقية في كتابة عقودهم، حتى مع بعض الأفراد الذين يحملون أسماءً يونانية أباً عن جدّ، مثل بعض رجال فرقة فرسان الوحدة المحلية. وعلى الرغم من ذلك ما تزال الأسباب التى جعلتهم يستخدمون الديموطيقية بدلاً من اليونانية في مثل هذه المواقف خافية علينا.

من الواضح أن تربية ديونيسيوس جعلت منه شخصاً قادراً على القراءة والكتابة بلغتين، كما يدلنا عديد من الوثائق في الأرشيف على أن باستطاعته الكتابة بمهارة وحذق مثل أىّ كاتب محترف. كذلك كان الرجل ماهراً في اللغة المصرية وفى كتابتها الديموطيقية، وهى المهارة التى اكتسبها إما في منزله أو في المعبد المصرىّ الذي كان يخدم فيه. لقد كانت هذه المهارة صفة تميز فئة من الفئات الدنيا في المجتمع، بحيث إن قليلين هُم من المتفاخرين بأصولهم

اليونانية الذين حاولوا اكتسابها، خاصة أنها كان تتطلب تدريباً طويلاً، ولم تكن تفتح الباب واسعاً أمام فرص كبيرة للترقية الاجتماعية.

كان ديونيسيوس وأخوه بائيسيس يتمتعان بحق العمل في الوظيفة نفسها، مثل والدهما، بوصفهما من أبناء العاملين في القوات العسكرية، وهو ما يجعلنا نقابلهما وهما يخدمان تحت نفس القيادة. ومع ذلك يبدو أن حامية أكوريس كانت كاملة العدد في تلك الأيام التى تلت المشكلات والأزمات الداخلية قريبة العهد، كما رأينا في الفصل السابق، فكان على الأعضاء الجدد مثل ديونيسيوس الانتظار حتى يخلو لهم مكان ليلتحقوا بالوحدة. وحتى تأتى هذه اللحظة كان ديونيسيوس ومن هم على شاكلته يحملون لقباً رسمياً هو "ابن جندى مرتزق،" على الأقل في الوثائق الديموطيقية. وتدل وثيقة من عام ١٠٩ ق.م. على أن الابن الأكبر بائيسيس كان في ذلك الوقت ملتحقاً فعلاً بالجيش، على الرغم من أننا لا نعرف المدة التى مضت منذ التحاقه. وبينما كانت الصفة العرقية لبائيسيس تنسبه إلى ليبيا، يُدهشنا أن أخاه موصوف بأنه يونانىّ في وثيقة ديموطيقية، وبأنه مقدونىّ في وثيقة يونانية. إن صفة واحدة من هذه الصفات الثلاث يمكن أن تُشير بحق إلى المكان الذي هاجر منه أجدادهم الأوائل إلى مصر، كما أنه ليس باستطاعتنا التأكيد على أن الصفتين الأخريين وجهان لعملة واحدة. أما الصفات العرقية الأخرى فلا بد أنه حصل عليها عقب التحاقه في الخدمة العسكرية، كما ذكرنا (انظر ص ٦٠)، ولا توجد لدينا لسوء الحظ أية إشارة من أىّ نوع، سواء في هذا السجل أو في مكان آخر، عن كيفية توزيع هذه الصفات.

وفيما يتعلق بحياة ديونيسيوس العملية في الأعوام التى سبقت التحاقه بالخدمة يمكننا القول إنه شغل منصب كاهن صغير كان يعمل به بعض الوقت، ويتزود منه ببعض المال. وفيما عدا ذلك كان معظم وقته يتركز في العمل في الأرض وفى العناية بمحاصيلها، وهى أعمال لم يتخل عنها أو عمّا يرتبط بها من مهام حتى بعد التحاقه بالقوات العسكرية. ويبدو أيضاً أنه كان يمتلك بعض قطع الأراضى لاستثمار أمواله، وكان يستأجر بعضاً من أراضى المعابد

وأراضى التاج. وعلى الرغم من ذلك لا يوجد لدينا شئ يدلنا أو يساعدنا على تحديد مساحة الأراضى التى كان يمتلكها أو يستأجرها، باستثناء إشارة إلى حقلين من أراضى المعابد تبلغ مساحتهما ثمانى عشرة أروره.

عندما استأجر ديونيسيوس بعضاً من أراضى التاج أصبح تلقائياً بفضل ذلك الوضع *ipso facto* "مزارعاً ملكياً،" ويجعلنا هذا الاصطلاح عادة نتخيل مزارعاً مصرياً يكافح من أجل الحصول على أدنى متطلبات الحياة. وعلى الرغم من ذلك يتضح من وثائق السجل أن ديونيسيوس لم يكن مزارعاً بسيطاً. فمثل كثيرين غيره من الجنود ومن الكليروخوى الذين يحصلون على دخلهم من الأرض، ومثل مينخيس الذي قابلناه في الفصل السابق، ترك ديونيسيوس أعمال الحقل التى تقصم الظهر لغيره، على الرغم من أنه استمر في امتلاك الأراضى واستئجارها. إن الوثائق تبين لنا أن دوره الفعلىّ كان يتطلب أدنى قدر من الجهد البدنىّ، وتغلب عليه الصفة الإدارية في المقام الأول. لقد كان الدور الأساسىّ الذي يقوم به يتمثل في مجرد التعاقد مع مزارعين ليحرثوا أرضاه، والإشراف على ما يقومون به من أعمال، ثم جمع الإيجار وتحصيله وقت الحصاد. ويبدو أن ديونيسيوس، مثل مينخيس، قد أثرى بفضل هذه الأعمال. بالإضافة إلى ذلك يبدو أن نشاط ديونيسيوس امتد إلى مجال القروض الزراعية، كما تدل الوثائق التالية.

إن سجل ديونيسيوس يشتمل على التماسات وعقود إيجار وعقود بيع وإيصالات وحسابات، ولكن ثلثى الوثائق يتعلقان بقروض حصل عليها على فترات متباعدة، عاماً تلو عام، وهى قروض يظهر فيها ديونيسيوس وحده أو بالمشاركة مع أمه، بالإضافة إلى زوجته أو بدونها أحياناً. إن كافة القروض المشار إليها هى قروض عينية لكميات من القمح تتراوح بين خمسة عشر و مائتين وخمسين أردباً. وفى كافة الحالات، باستثناء ثلاث منها، نجد أن القرض كان نقداً ويجب دفع قيمته من الغلال. وتستحق أربعة من عقود القروض بشكل خاص الإشارة إليها هنا. لقد وقع ديونيسيوس عقداً لقرض مقداره أربعة وعشرون أردباً. وفى اليوم التالى أقر بأنه هو وأمه وزوجته

مدينون للدائن نفسه بكميات مشابهة. إن التشابه بين القرضين بجعل من الصعب علينا أن ننظر إليهما على أنهما قرضان مختلفان. وعلى الرغم من ذلك، إذا كانت الإشارتان إلى قرض واحد شاركت المرأتان في التوقيع عليه، لماذا لم يُمزق عقد التاسع، أو على الأقل لماذا لم يُكتب عليه ما يفيد بطلانه؟ أما القرضان اللذان وقعا في السادس عشر من ديسمبر عام ١٠٨ ق.م. فهما أكثر غرابة. إن ديونيسيوس يقر في أحدهما، وهو عقد يونانيّ، بأنه مدين بخمسين أردباً، بينما طبقاً للعقد الآخر المكتوب بالديموطيقية، اقترضت زوجته في اليوم نفسه الكمية نفسها من الدائن. هل مجموع القرضين هو مائة أردب، أو هل هو خمسون فقط؟ ربما كانت الكمية مائة أردب، إلا أنه لا يمكننا أن نقطع بذلك تماماً. ولكن لماذا كُتب أحد العقدين بالديموطيقية؟ إن السبب بالتأكيد ليس جهل المرأتين باللغة اليونانية واقتصار معرفتهما على اللغة المصرية؛ إذ أنهما تظهران في عديد من العقود المكتوبة باليونانية. وهنا أيضاً لا تزودنا الوثائق بإجابة عن هذا السؤال. ولكن ربما وُجدت الإجابة في بعض الإجراءات القانونية التى نتعرف عليها من مصدر آخر معاصر. لقد قابلنا في الفصل الرابع إشارات متعددة إلى "المحكمة المختصة،" وعرفنا أنه كان يوجد في مصر البطلمية قضاة ومحاكم منفصلة لأجل تطبيق القانون اليونانيّ وقانون أهل البلاد. إن القانون الذي يُحدد مسار القضية في أية حالة بعينها قد صدر ضمن القائمة الطويلة من القرارات الملكية عام ١١٨ ق.م.، التى أشرنا إليها على صفحات ١٦٨-١٦٩:

> لقد قررا أيضاً بشأن القضايا التى يتنازع فيها مصريون ويونانيون، أىّ التى يرفعها يونانيون ضد مصريين أو مصريون ضد يونانيين... أن المصريين الذين تعاقدوا مع يونانيين باللغة اليونانية يرفعون قضاياهم، وترفع ضدهم، أمام الخريماتيستاى (*chrēmatistai*) [قضاة الدائرة اليونانية]. أما الذين يتعاقدون باللغة المصرية، على الرغم من كونهم يتمتعون بالصفة اليونانية، فإنهم يتقاضون أمام اللاؤكريتاى (*laokritai*) [القضاة الأهليين] طبقاً لقانون البلاد. [١]

إن نصوص هذين العقدين، اليونانية والديموطيقية، سنشير إليها في نهاية هذا الحديث عن ديونيسيوس.[١]

ويبلغ مجموع القروض التى يضمها السجل ما يقرب من ثلاثين عقدا موزعة على حوالىّ عشر سنوات؛ وبالتأكيد فمن المحتمل أنه كانت هناك أيضاً أعداد من العقود التى لم تصل إلينا. وتمكننا هذه الأرقام، مجردة من بعض التفصيلات التى تحيط بها، أن نُخمن أن ديونيسيوس كان مزارعاً يعانى حقاً من شظف العيش ويخرج من ديْن ليدخل في آخر، في أثناء سعيه لتدبير شؤونه. ولكن نظرة أدق إلى التفصيلات تكشف عن أن الكميات المذكورة في هذه القروض تفوق بمراحل كثيرة ما قد يحتاجه ديونيسيوس ولو لإطعام أسرة كبيرة، بالإضافة إلى ما يحتاجه لبذر مساحات كبيرة من الأراضى. وإذا افترضنا أن أسرته كانت تضم خمسة أو ستة أفراد، وأنه يحتاج إلى إطعامهم بسخاء، وليس على حد الكفاف، فإن الكمية المستهلكة لن تزيد عن مائة أردب في العام. هذه الكمية كان يتلقى بعضها إيجاراً سنوياً من الثمان عشرة أروره التى استأجرها من المعبد، وأجّرها من الباطن إلى من يقوم بالفعل بزراعتها. أما حقوله فقد كان يحتاج إلى أردب واحد للأروره بذوراً لها. وعلى الرغم من ذلك، فإن الكمية التى اقترضها، من خلال ما نعرفه عن أفضل الأعوام التى وصلت إلينا معلومات عنها، كانت تبلغ ثلاثمائة أردب وربما أكثر من ذلك.

من المفيد أيضاً أن ننظر إلى المكانة الاجتماعية للدائنين الذين اقترض منهم ديونيسيوس. إن اثنين منهما يحملان أسماء مصرية ويونانية، مثل ديونيسيوس ذاته، أما الباقون فيحملون أسماء وألقاباً يونانية خالصة. وباستثناء ثلاثة أفراد لا يمكن تحديد طبيعة عملهم، وهو استثناء غير قوى، فإن كافة هؤلاء الأفراد كانوا يعملون بالفرق العسكرية، ومن الكليروخوى الموجودين بالمنطقة. هذه الحقيقة تساعدنا على ملء الفراغ الموجود في معلوماتنا عن طبيعة قروض ديونيسيوس. من الواضح أن دائنيه كانوا من الأغنياء الذين يتوفر لهم دائماً فائض من الغلال في مزارعهم، ويسرهم أن يُقرضوا هذا الفائض المخزون عندهم، وأن يحصلوا عليه عيناً في الموسم التالى وقد زاد بمقدار النصف، وهو معدل الفائدة على القروض العينية. ومن القروض المتكررة التى أعطاها هؤلاء الأفراد لديونيسيوس يمكننا أن نستخلص حقيقتين

شبه مؤكدتين: أولاهما، أن ديونيسيوس بانتمائه إلى الوسط العسكري الذي يعملون به كان يبدو لهم شخصاً موثوقاً به؛ وأخراهما. ترحيبهم بالتعامل معه بانتظام، لأن ذلك يوفر عليهم مشقة البحث عن مقترض اخر والتعامل مع بعض الغرباء مما قد يُشكل مجازفة من نوع ما.

إن صورة ديونيسيوس التى نخرج بها من هذا الحديث تدل على أنه لم يكن مزارعاً يعانى من قسوة الظروف ويُضطر للحصول على قرض تلو آخر في محاولة يائسة لأن يحتفظ بنفسه طافياً على سطح الماء، ولكنها صورة رجل يعمل بنجاح في مشروعات زراعية دون أن تتسخ يده بالعمل في الأرض. لقد كانت الحقول التى يمتلكها، أو يستأجرها، يزرعها لحسابه آخرون، وإن أكثر التفسيرات احتمالاً للقروض التى كان يحصل عليها هو أنه كان يأخذها عيناً أو نقداً، ليقوم بعد ذلك بإقراضها إلى المزارعين المحتاجين بفوائد باهظة حقاً، أو يبيعها في سوق الغلال بعد ذلك، مستغلاً تقلبات الأسعار وتفاوتها من فصل لآخر. هذه الفكرة التى تجعل من ديونيسيوس مضارباً ذكياً تؤكدها، بالإضافة إلى ذلك، ملاحظتنا لقدرته باستمرار على أن يؤخر دفع الأشياء التى اقترضها لمدة تتراوح بين شهر وخمسة شهور، دون أن يُضطر إلى دفع الغرامة المنصوص عليها في العقد. وفيما يلى حالة ذات دلالات كبيرة توضح هذا الأمر:[٢]

> إلى أسكليبياديس "ابن عم الملك،" وحاكم الإقليم، من ديونيسيوس بن كيفالاس (Kephalas)، أحد مزارعى أرض التاج فى قرية تينيس المعروفة أيضاً باسم أكوريس، من مركز موخيتيس. بالنظر إلى الأسباب التى سنذكرها فى أثناء عرض الموضوع قمت أنا وأمى سينابوللوس (Senabollous) بتسجيل عقد لقرض قدره مائة وخمسون أردباً من القمح فى العام التاسع [١٠٩/١٠٨ ق.م.] لحساب أدميتوس (Admētos) المعروف أيضاً باسم خيسثوتيس (Khesthōtēs)، من القرية نفسها. إننى لم أفعل ذلك فقط، بل إننى رهنت له، بكل أمانة وإخلاص، بعض قطع الأراضى الفراغ التى أمتلكها. إلا أن المتهم بمجرد أن أخذ العقود لم يف بالشروط المتفق عليها بينى وبينه، ونتيجة لذلك أصابنى ضرر ليس بالهين بسببه، كما أنه ما يزال يسبب لىّ ضرراً حتى هذه اللحظة. إنه أيضاً ما يزال يواصل مضايقتى ولا يدعنى ألتفت إلى مباشرة أعمالى الزراعية على الرغم من أنه يرى أننى مشغول بإلقاء البذور فى الأرض التى أزرعها، ويخالف بذلك المراسيم الملكية المتكررة، والمتعلقة بنا، نحن

مرارعو أرض الملك. ولهذه الأسباب، ولأنه توجد خطورة متمثلة فى ترك الأرض دون رعاية، ولأننى غير قادر بطبيعة الحال فى ظل الظروف الحالية على أخذه للمحكمة بخصوص العقد فإننى مضطر إلى اللجوء إلى حماك. أرجو منك، إذا كنت هذه مشيئتك، أن ترسل أولاً وقبل كل شئ أمراً إلى قائد الشرطة فى أكوريس حتى يمنع المتهم من التدخل فى شؤونى وشؤون والدتى وأن يعطينى ضمانات [بذلك] كتابة حتى أنتهى من عملية وضع البذور، وأستطيع تصفية الحسابات معه فى كافة الشؤون. إذا حدث هذا، لن يعود أىّ ضرر على الملك، وسوف تتوفر لى الحماية، والسلام.

[من الاستراتيجوس حاكم الإقليم إلى قائد الشرطة] إلى بياس (Bias). إذا كان من مزارعى أرض التاج فاهتم بألا يُزعجه أحد حتى ينتهى من زراعته. العام العاشر، الرابع والعشرون من توت [ويقابل ١٢ أكتوبر من عام ١٠٨ ق.م.].

وبعد مرور ثمانية عشر يوماً أخرى كتب ديونيسيوس إلى سكرتيرى الإقليم الملكيين مرة ثانية عن الموضوع نفسه، بينما كانت عملية إلقاء البذور وقتئذ فى ذروتها. هذه المرة أشار ديونيسيوس إلى الوثيقة السابقة وطلب منهما إيقاف تسليمه إلي الموظفين المختصين بالقبض على المدنيين المتخلفين عند الدفع. هذه الحماية المكفولة لمزارعى الملك كان يضمنها حينئذ أحد المراسيم الملكية لعام ١١٨ ق.م. الذي ينصّ على ذلك قائلاً: "وقد قررنا أن [الموظفين المختصين] لن يقبضوا تحت أية دعوى على مزارعى أرض التاج أو موظفى الإدارة [؟]، أو أىّ فرد معفى طبقاً لمراسيم سابقة من اقتياده للمحكمة. أما تحصيل الديون فى هذه الحالات فيتم من خلال ممتلكاتهم الأخرى، التى لا يشملها هذا القرار بالحماية."[٣]

لقد كانت الالتماسات، مثل الالتماس الذي اقتبسناه، تكتب بلغة التوسل والضراعة التى تتناسب مع الغرض منها. وفى هذه الحالة لجأ ديونيسيوس عن طريق اتهام دائنيه بإساءة معاملته، دون تحديد الكيفية، إلى ذر بعض الرماد في العيون حول موضوع تأخره في دفع دين كان مستحقاً في يونيو/يوليو، بينما نحن الآن في أكتوبر. ولأن أكتوبر كان موعد إلقاء البذور، فقد تمكن ديونيسيوس من تأخير الدفع أكثر من ذلك، مستغلاً التعليمات الملكية التى تحمى مزارعى أرض الملك من أن يعطلهم أحد عن القيام بدورهم الأساسىّ وهو زراعة حقولهم، أىّ حقول الملك، سواء بإجراءات قضائية أو بغيرها. ولا

يمكننا بطبيعة الحال إلا أن نؤكد أن ديونيسيوس كان ذا دراية وخبرة واسعتين، وأنه كان يعرف مواضع الثغرات وكيفية الاستفادة منها. إن وثيقة أخرى في الأرشيف نفسه تدل على أنه لم يدفع الكمية إلى أدميتوس حتى التاسع عشر من ديسمبر، وأنه لم يدفعها من جيبه الخاص، بل بتوفيرها من قرض آخر حصل عليه.

يوجد أيضاً مثال جيد آخر في السجل للدلالة على سرعة ديونيسيوس في اقتناص أية فرصة متاحة. إن أول القروض المسجلة التى حصل عليها تم في عام ٥٤ [١١٧/١١٦ ق.م.]. وفى الظروف العادية كان يجب السداد في وقت الحصاد من العام نفسه، أىّ في يونيو/يوليو ١١٦ ق.م. وعلى الرغم من ذلك اختفى الدائن قبل موعد السداد دون أن يترك وراءه أىّ أثر، ولا نعرف متى بدأت أرملته في المطالبة بتسديد القرض. وبالنظر إلى أنها لم يتيسر لها التحقق من وفاة الدائن، ولأنها على ما يبدو لم يكن باستطاعتها تقديم نسخة من وثيقة القرض، فإن ديونيسيوس الماكر تمكن بسهولة شديدة من تأجيل سداد القرض مرة تلو الأخرى. وعلى أية حال وبعد مرور ثلاثة وستين شهراً على موعد السداد وفى سبتمبر/أكتوبر عام ١١١ ق.م.، وافق ديونيسيوس أخيراً على تسديد القرض للسيدة، وحصل على إيصال بهذا المضمون يحتوى على صيغة محددة تؤكد أنه:

> لن يتقدم [الدائن] نفسه أو أىّ فرد بالنيابة عنه بدعوى ضد ديونيسيوس بشأن هذا الدين [المكتوب من نسختين] أو أىّ جزء منه تحت أية دعوى كانت. وإذا فعل أحد ذلك فإن القضية تصبح باطلة [بالنسبة للدائن و] لأى فرد يّدعى بالنيابة عنه، وعليه أن يدفع لديونيسيوس بسبب تقديم هذه الدعوى خمسة تالينتات نحاسية، بالإضافة إلى النفقات. وهذه الوثيقة ستظل مع ذلك ساريةُ المفعول، وصالحة في كافة الأماكن التى تُقدم فيها.[٤]

يمكننا أيضاً ملاحظة طبيعة الحياة الرغدة التى عاشتها أسرة ديونيسيوس في الشكوى التالية المقدمة بواسطة أخيه بائيسيس، كما يمكننا أن نتعجب ولو بشكل عابر لوجود هذه الشكوى بين أوراق ديونيسيوس. من المحتمل أن الإجابة على ذلك هى أن بائيسيس الذي كان يعمل بالخدمة

العسكرية آنذاك كان قد ترك نسخة مع أخيه الأصغر الذي يمكنه بصفته المدنية أن يتابع الموضوع لدى السلطات المدنية المختصة. يقول الالتماس:

> إلى نيكانور والعاملين الآخرين بالشرطة في [قرية] كيركا (Kirka)، من بائيسيس المعروف أيضاً باسم .....جيس بن كيفالاس من ساكنى أكوريس، الليبىّ، وأحد رجال فرقة الفرسان التى يرأسها ديمتريوس. في ليلة الرابع عشر من هاتور من العام التاسع اقتحم بعض الأفراد، كما يفعل اللصوص، المسكن الذي يخصنى بالقرب من القرية المذكورة، وأخذوا الملابس التى يرتديها الناس المقيمون فيه، وكذلك أخذوا الأدوات الزراعية وبقية الأشياء الموجودة. وتوجد قائمة مفصلة بهذه الأشياء في نهاية الالتماس. وبالنظر إلى أننى أشك في أن هذا السطو قام به كونّوس (Kōnnōs) وهو أصلاً من إقليم كينوبوليس (Kynopolis)، ولكنه يقيم الآن في قرية أيثون، ومعه بعض الأفراد الذين لا أعرف أسماءهم، فإننى أقدم هذه الشكوى لك لكى يتم البحث عن الجانى وإرساله إلى حاكم الإقليم حتى أسترد الأشياء المفقودة، وينال المذنب عقابه الذي يستحقه. وعندما يحدث ذلك فسوف .....، والسلام. العام التاسع، السادس عشر من هاتور [ويقابل الثالث من ديسمبر عام ١٠٩ ق.م.]
>
> قائمة بالأصناف:
>
> [ممتلكات] سوتيونخيس (Sotionkhis): قميص وعباءة وجوال.
>
> [ممتلكات] أخى بلينيس (Plēnis): قميص ومحراث ونير.
>
> [ممتلكات] بابتيتيس (Paptytis): قميص وجوال.
>
> [ممتلكات] ضيوف: عباءات.[٥]

إن الحياة السهلة، إن لم تكن الرغدة، التى عاشها ديونيسيوس وإخوته يبينها لنا أيضاً عدد من الوثائق الأخرى في السجل؛ ففى أحد العقود المكتوبة بالديموطيقية نجد ديونيسيوس مستأجراً لزوج من إناث الثيران وصغارها، من أجل استخدامهم في أعمال الحصاد التى ما يزال أمامها ما يقرب من ستة شهور. ومقابل استخدام الحيوانات وافق ديونيسيوس كتابة على أن يدفع عشرة أرادب من القمح وقت الحصاد. وتشكل هذه الكميةُ الكميةَ الضرورية التى يحتاجها الفرد في عام بأكمله. كذلك نجد ديونيسيوس في وثيقتين أخريين بالديموطيقية وهو يبتاع بقرتين دافعاً فيهما مبلغاً ليس بالهين، ويرجع تاريخ الوثيقتين إلى ما قبل التحاقه بالخدمة العسكرية. وعلى سبيل المثال يدل الرقم المذكور في ثانى هاتين الوثيقتين، من الناحية الزمنية، والشرط الجزائىّ فيها

على أن سعر الشراء، غير المذكور طبقا و لا شك لنظام المقايضة المتبع في مصر منذ أقدم العصور، يبلغ حوالى عشرة آلاف دراخمه نحاسية. وكان هذا المبلغ يكفى في ذلك الوقت لشراء خمسة عشر أردبا من القمح:

في العام الثانى عشر الذي يقابل العام التاسع في الشهر الثانى من فصل الفيضان، وفى عهد الملكة كليوباترا يورجيتيس وابنها بطلميوس المعروف باسم الإسكندر فيلوميتور، وفى عام الكاهن [الذي يسمى العام باسمه] في الإسكندرية.

تم الإعلان بواسطة قائد الشرطة في ....، بسينامونيس (Psenamounis) بن أبيكيس (Abykis) وأمه هى ثيرموثاس (Thermouthas) إلى اليونانىّ ديونيسيوس بن كيفالاس، أحد الجنود [العاملين تحت قيادة] ديمتريوس: "لقد أرضيت نفسى بنقود البقرة السوداء القائمة على أقدامها وذات العلامة على الرقبة، التى باستطاعتها أن تنام وتقوم، وليست بها إصابة من زلة أو عثرة. لقد أعطيتها لك مقابل نقود، وهى تخصك منذ اليوم وفى المستقبل... وإذا حدث واعترضك أحد بشأنها فعلىّ أن أتخذ إجراء يكفل إبعاده عنك وإلا أعطيتك ٧٥٠ [قطعة] من الفضة، ونصفها ٣٧٥، ومجموعها ثانية ٧٥٠ [مدفوعة في شكل] عملة نحاسية... غرامة مالية في الشهر ذاته دون تأخير عند الضرورة. بالإضافة إلى ذلك سوف أعمل على ألا يُزعجك أحد بشأنها [أىّ البقرة]، ولن يكون بمقدورى القول "إن هذه ليست البقرة المذكورة سابقاً التى أعطيتها لك مقابل نقود." وإن لك علىّ الامتياز فيما يتعلق بها فإنها أنثى، وسوف أعمل على أن تظل خالصة لك ضد [أية دعاوى]، طبقاً لما هو مكتوب هنا." كتبها بيبيس (Pebes) [؟] بن فيبيس (Phibis) ... كاتب الوثائق القانونية لكُتب تحوت المقدسة [؟]، [الإله] العظيم ثلاثاً ورب هيرموبوليس الإله الأكبر.

[باليونانية] العام الثانى عشر الموافق للعام التاسع، الخامس عشر من بابه [٢ نوفمبر عام ١٠٦ ق.م.]، في أمّونوبوليس (Ammonopolis) [سجلت] بواسطة هيرمياس (Hermias).[٦]

وبالنظر إلى أن الوثائق البردية التى يضمها سجل ديونيسيوس تدور أساساً حول أعمال تجارية فإنها لا تزودنا بمعلومات عن نواح أخرى عديدة نود التعرف عليها. إنها لا تخبرنا عن أفراد عائلة ديونيسيوس إلا بالنزر اليسير جداً، كما أننا لا نعرف سوى أسماء من نقابلهم من هؤلاء الأفراد، وسوى بعض المعلومات القليلة عنهم. وكما رأينا من قبل فقد سبق ديونيسيوس أخوه الأكبر في الالتحاق بالخدمة العسكرية وبفرقة الفرسان وكان يمتلك منزلاً سطا عليها بعض اللصوص. هذا عن أخيه الأكبر، أما عن أمه وزوجته فقد قابلناهما من

قبل في بعض وثائق القروض التى أخذها ديونيسيوس، والتى وقعنا عليها معه. وإذا كنا نعرف هذا القدر عن زوجته وأمه فإن الصمت يُطبق على سن تبقى، إذ أن الوثائق لا تحتوى على أية إشارات إلى الأطفال أو العبيد، هذا إن وجدوا.

يكاد الصمت يطبق أيضاً على منصب الكاهن الذي شغله ديونيسيوس والذى لا يزيد ما نعرفه عنه عن مجرد إشارة بسيطة فحسب. إن نقص المعلومات الموجودة في السجل عن هذا الموضوع تحديداً يسبب بعض الإحباط، خاصة لأن تفصيلات الدور الذي يقوم به بوصفه كاهناً، وكذلك مسؤولياته ومكانته، ستتيح الفرصة لمعرفة الكثير عن هذا العنصر المصرىّ في حياة أسرة عسكرية تعيش تقريباً في منتصف الطريق بين الإسكندرية وحدود مصر الجنوبية قرب نهاية القرن الثانى قبل الميلاد. هذه الأسرة، مثل كثير من الأسر الأخرى، بدأت حياتها بالخدمة في القوات العسكرية البطلمية مع هجرة أحد الأجداد اليونانيين أو المقدونيين في وقت ما من القرن الثالث قبل الميلاد.

لم يتوصل اليونانيون أبداً إلى تكوين طبقة كهنوتية في بلادهم في بحر إيجه وفى مدن اليونان في العصر الكلاسيكىّ. لقد كان "منصب الكاهن متاحاً لأىّ فرد،" كما يوضح الخطيب الأثينى إيسوكراتيس لملك قبرص. بالمقارنة بهذا الوضع يوجد منذ أقدم العصور التاريخية ما يدل على وجود طبقة رجال دين في مصر، وظهرت هذه الفئة ولا شك بسبب الحاجة إلى تنظيم عبادة الفرعون، الملك الإله. هذه الطبقة الكهنوتية التى كانت معابدها غنية بكنوزها وزخارفها وإقطاعيات الأراضى أصبحت تُشكل مراكز قوى في حد ذاتها، خاصة في المناطق المهمة مثل طيبة ومنف، بما لها من مبان ضخمة وساحات ممتدة. وهكذا أصبح لدى الكهنة على مدار التاريخ المصرىّ الممتد آلاف السنين استعداد دائم لمنازعة الملك سلطاته، والقضاء على نفوذه إذا أتيحت لهم الفرصة. وقد استمرت عداوة الكهنة الواضحة للملك في العصر البطلمىّ، وزاد منها أن الملوك كانوا عندئذ من الأجانب. إننا نعرف عن عشر ثورات حدثت في العصر البطلمىّ، وقامت إحدى هذه الثورات أصلاً بسبب نزاع أسرى في البلاط الملكىّ، وكانت محدودة في الإسكندرية. كذلك قامت ثورة أو اثنتان

مشابهتان. أما بقية الثورات فقد تسبب فيها التدهور الاقتصادىّ والأزمات الحكومية، وقام بها أهل البلاد ضد سلطان الملك، وكانت زعامة الكهنة سمة غالبة عليها.

وهكذا ظل الكهنة المصريون محتفظين بجذورهم القوية في تقاليد البلاد القديمة، وظلوا يؤكدون الفروق بينهم وبين التقاليد اليونانية، وأصبحوا بذلك العنصر الرئيس الوحيد في المجتمع الذي لم يتخلله التأثير اليونانىّ أو الأفراد اليونانيون طوال مراحل الحكم البطلمىّ إلا بأقل القليل، كما رأينا في الفصل الخامس. ومن بين كافة الكهنة والكاهنات المصريات، المختصون والمختصات بالعبادات المصرية المسجلة في الوثائق التى وصلت إلينا، وهى الوثائق التى كتبت أو نقشت في الغالب بالهيروغليفية، فإن عدد الذين يحملون أسماءً يونانية قليل جداً، وفى حالات كثيرة كان لهؤلاء الرجال والنساء أيضاً أسماء مصرية لم تظهر لنا في المصادر. من ناحية أخرى، وكما سنرى بالتفصيل بعد قليل، استُبعد المصريون تماماً من كافة المناصب الدينية اليونانية. وفيما يتعلق بمنصب الكاهن الذي شغله ديونيسيوس فإننا لا نعرف من الوثائق أكثر من أنه ذُكر في وثيقتين بالديموطيقية باسم مصرىّ هو بلينيس (Plēnis)، وباسم أو لقب مشتق من الإله أبو منجل الذي كان ديونيسيوس يقوم على خدمته؛ أما عن دوره في العبادة فلا توجد أية إشارات أو تفصيلات أكثر من ذلك. وبطبيعة الحال تتبادر إلى الذهن بعض الأسئلة عن الوقت الذي دخل فيه ديونيسيوس هذا المنصب الكهنوتى، وعن الوسيلة التى حصل بها عليه، وهل هى بالميراث أو بالزواج أو بالشراء أو بأية وسيلة أخرى. كذلك نود معرفة المؤهلات المطلوبة للمنصب والمزايا التى يحصل غليها صاحبه. كل هذه الأسئلة وغيرها لا نعرف إجابات لها، لأن الوثائق البردية التى وصلت إلينا تنصب أساساً على التعاملات التجارية للرجل، ولا تزودنا إلا بأقل القليل عن حياته الاجتماعية.

لقد أدخل العصر الهللينستىّ (المتأغرق)، وهو العصر الذي ساد فيه نظام الحكم الملكىّ بدلاً من نظام دويلة المدينة الذي كان سائداً في العصر الكلاسيكىّ، تعديلاً رئيساً واحداً على التقاليد الدينية عند اليونانيين. فعندما سار

الحكام الهللينستيون (المتأغرقون) على نهج الإسكندر الأكبر، وارتدوا العباءة المزركشة للملكية المؤلهة، ظهرت الحاجة إلى فئة جديدة من الكهنة للقيام على شؤون العبادة الملكية. ومع ذلك فلم يتطرق الفكر أبداً، كما هو الحال في التقاليد اليونانية، إلى جعل فئة الكهنة الهللينستية (المتأغرقة) هذه فئة متفرغة ذات مهنة متخصصة أو إلى جعل أصحابها طبقة دائمة متوارثة للمنصب ومغلقة على أصحابها (*cast*). لقد كان الكهنة والكاهنات يُعينون بواسطة الملك، ويحتفظون بمناصبهم تبعاً لمشيئته. كذلك كان المنصب تشريفياً وذا مغزى سياسىّ أولاً، ثم دينىّ بعد ذلك. لقد كان أهم مسؤول مدنىّ في أثينا هوالأرخون إبونيموس *archon eponymous* لأنه كان يعطى اسمه للعام الذي يخدم فيه، [بمعنى أن العام كان يؤرخ باسمه: المترجم]. أما في مصر البطلمية، كما رأينا في العديد من الوثائق، فإن الأعوام كانت تحدد طبقاً لسنىّ حكم كل ملك. إلا أنه في بعض وثائق هذا العصر كان يتم تحديد العام بوسيلة أخرى أيضاً، أىّ بإضافة أسماء الكهنة والكاهنات الذين يخدمون في عبادات الملوك والملكات البطلميات ابتداءً من الإسكندر الأكبر، والذين يعطون العام أسماءهم. بالإضافة إلى هذه المعلومات القيمة التى تزودنا بها الوثائق، فإن ذكر أسماء الكهنة في أثناء التأريخ يمدنا بصورة أخرى مهمة من صور تواجد الثقافتين معاً، ومقاومة كل منهما لتأثير الأخرى. لقد لاحظنا من قبل أن كهانة الآلهة المصرية يغلب عليها الطابع المصرىّ ويشغل مناصبها مصريون، إلا في حالات نادرة. إن الأمر ذاته نجده في الجانب اليونانىّ حيث تمكننا الوثائق من تحديد ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين كاهناً إبونيموس للعبادات الملكية بين عامى ٢٩٠ و ٨٣ ق.م.، لا يوجد بينهم مصرىّ واحد. إن بعض الحالات والأعوام المتأخرة في الحكم البطلمىّ تدعو بطبيعة الحال إلى الشك، ولكن في ضوء الوثائق والأدلة المتوفرة لدينا الآن، لا يتعدى الأمر مجرد الشك في أن الاسم اليونانىّ هو ترجمة لاسم مصرىّ يحمله أحد المتأثرين بالثقافة اليونانية.

في الوقت الذي عاش فيه ديونيسيوس أصبح من الصعب ذكر قائمة الكهنة الإبونيموى [جمع كلمة إبونيموس: المترجم]، لأنها كانت تضم أسماء

آلهة وملوك كثيرين، واتجه التقليد إلى ذكر العبادات فقط، وحذف أسماء الكهنة والكاهنات الذين يقومون على شؤونها. وهكذا تم حذف شاغلى هذه المناصب من صيغة التأريخ بينما استمرت الصيغة تذكر أسماء الملوك المؤلهين في العبادات الملكية. ولدينا عقدان، أحدهما يونانىّ والآخر ديموطيقىّ، يسجلان قرضاً أو قرضين حصل عليها ديونيسيوس في اليوم نفسه، هو وأمه وزوجته، ويتضمنان هذه القائمة الطويلة للعبادات، ويزودانا في الوقت ذاته بشئ يتناسب مع قصة ديونيسيوس. إن اقتباسهما كاملين سوف يتيح لنا أيضاً فرصة إظهار أوجه الاختلاف بين الأسلوب اليونانىّ والأسلوب المصرىّ في تسجيل التعاملات نفسها، أو ما تشابه منها. وفى حالة النص اليونانىّ المذكور أولاً نجد أن النص طوله واحد وأربعون سطراً، تحتوى سطوره الخمسة عشر الأولى على الصيغة الافتتاحية الطويلة ذات الطابع الانسيابىّ. أما النص الديموطيقىّ فيبلغ طوله واحد وعشرون سطراً تحتل منها الصيغة الستة سطور الأولى. إن تاريخ كل من الوثيقتين يرجع إلى زمن يوافق السادس عشر من ديسمبر عام ١٠٨ ق.م.:

[الوثيقة اليونانية]

في العام العاشر من حكم كليوباترا وبطلميوس الإلهين سوتيريس فيلوميتوريس (Sōtēres Philomētores)، عندما كان شاغل المنصب في الإسكندرية هو كاهن الإسكندر [الأكبر] والإلهين سوتيريس والإلهين أديلفوى (Adelphoi) والإلهين يورجيتاى (Euergetai) والإلهين فيلوباتوريس (Philopatōrēs) والإلهين إبيفانيس (Epiphaneis) والإله يوباتور (Eupatōr) والإله فيلوميتور والإله فيلوباتور نيوس (Philopatōr neos) والإله يورجيتيس والإلهين فيلوميتوريس سوتيريس.[٧] وعندما كان قائماً بعمله أيضاً كاهن إيزيس الإلهة العظمى أم الإلهة، وحاملة الإكليل للملكة كليوباترا الإلهة فيلوميتور سوتيرا ديكايوسونيه نيكيفوروس (Philomētōr Sōteira Diakiosynē Nikephoros)، وحاملة السلة لأرسينوى فيلاديلفوس، وكاهنة الملكة كليوباترا الإلهة فيلوميتور سوتيرا ديكايوسونيه نيكيفوروس، وكاهنة أرسينوى فيلوباتور، والكهنة والكاهنات الذين يشغلون المنصب في الإسكندرية، في التاسع والعشرين من شهر أوْدنايوس (Audnaios)، في التاسع والعشرين من هاتور، وفى كروكوديلوبوليس المعروفة أيضاً باسم أكوريس، في مركز موخيتيس بإقليم

هيرموبوليس.

لقد أقرض ديونيسيوس بن أسكليبيادیس الفارسىّ [الأصل]، وأحد مستوطنى فرسان [فرقة] أبوللوفانيس (Apollophanēs) وأبوللونيوس، ديونيسيوس بن كيفالاس ... ثلاثة وثلاثين وثلث الأردب من القمح معبأة جيداً وتلقاها المقترض من مخزن الأول بمنزله، وبفائدة قدرها النصف، أى ستة عشر أردباً وثلثين. وسوف يرد المقترض القمح والفائدة ومجموعهما معا خمسون أردباً إلى ديونيسيوس، أو من يمثلونه، في شهر لوئيوس (Lōïos) الموافق لبؤونه في العام الحالى العاشر، قمحاً جديداً نظيفاً وغير مخلوط، ومستخدماً مكيالاً يوافق [المكيال المعتمد] البرونزىّ، وموفياً الكيل، وسوف يسلمه عند الميناء النهرىّ لكوريس على نفقته الخاصة، ودون الدخول في عمليات قضائية أو محاكمات أو خداع من أىّ نوع. وإذا لم يرد [القرض] كما هو مكتوب فإن عليه أن يدفع ثمناً مقابل كل أردب ثلاثة آلاف دراخمه نحاسية لا تنقص مثقال ذرة.[٨] كذلك فإن لديونيسيوس [المقرض] ولممثليه الحق في التنفيذ على المقترض ذاته، وعلى كافة ممتلكاته لأجل القمح وكافة الأشياء في هذا العقد، تماماً كما يحدث في الحالات القضائية. إن هذا العقد سارى المفعول في أىّ مكان يوجد فيه.

الشهود [ذكرت قائمة بستة شهود كلهم يحملون أسماء يونانية وأسماء أباء يونانيين].

العقد موجود في يد [الدائن] وتحت تحفظه.

[مكتوب بيد أخرى] أنا ديونيسيوس بن كيفالاس ... لدىّ الخمسون أردباً كما ذُكر، وقد أعطيت الأصل [أىّ أصل العقد] إلى ديونيسيوس.

[مكتوب بيد ثالثة] أنا ديونيسيوس معى الأصل.

[مكتوب بيد رابعة] العام العاشر في التاسع والعشرين من هاتور في قرية تينيس المعروفة أيضاً باسم أكوريس في مركز موخيتيس. سجل بواسطة بطوليمايوس.

[الوثيقة الديموطيقية]

في العام العاشر والشهر الثالث من فصل الفيضان، اليوم التاسع والعشرون من حكم الملكين كليوباترا وبطلميوس الإلهين المحبين لأمهما والمنقذين، وفى كهانة كاهن الإسكندر والإلهين المنقذين والإلهين الأخوين والإلهين الخيرين والإلهين المحبين لأمهما والإلهين المتجليين والإله المحب لوالده[٩] والإله المحب لوالدته والإله المحب لوالده والإله الخيّر والإلهين المحبين لأمهما والمنقذين، وفى خدمة الكهنة الآخرين بالإسكندرية.

تعلن السيدة سينابوللوس (Senabollous) بنت هيريوس (Herieus) وأمها هى

سنامونيس (Senamounis)، والسيدة تاسيس (Tasis) بنت باخونيس (Pakhoïs) وأمها هى تيتوزيريس (Tetosiris)، اللتان تتكلمان بلسان واحد، لرجل الخيالة فى فرقة أبوللوفانيس [ويُدعى] ديونيسيوس بن اسكليبياديس.

إن الخمسين أردباً من القمح، [ونصفها] خمس وعشرون تُجمع أيضاً خمسون، تخصك [وهى التى] معنا بوصفها ديناً لرأسمال [تم اقتراضه] بفائدة. وسوف نسلمها لك [في وقت الحصاد] في العام العاشر والشهر الثانى من فصل الصيف في آخر يوم فيه، [وقد كيلت] بالمكيال البرونزى قمحاً جديداً ونظيفاً دون أية إضافات، وسوف نسلمها في المرفأ في تينيس دون أية تكاليف نقل أو أية دعاوى أخرى. وبالنسبة لأىّ شئ لا نعطيه لك في العام العاشر الشهر الثانى من موسم الفيضان كما هو مكتوب أعلاه، فسوف ندفع لك كل مرة مائة وخمسين قطعة من الفضة، [ونصفها] خمس وسبعون تُجمع أيضاً مائة وخمسون، مدفوع ما يقابلها عملة نحاسية... عن كل أردب من القمح في الشهر التالى، بالتنفيذ الجبرىّ ودون أى تأخير. إن كل شئ لدينا وما سوف نحصل عليه يُشكل ضماناً لحقك، كما هو مكتوب. وسوف يكون باستطاعتك إجبار أىّ منا، حسب رغبتك، على أن نتصرف معك طبقاً لكل كلمة مكتوبة أعلاه. ولن يكون باستطاعتنا أن نقول لك "لقد أعطيناك القمح المذكور أعلاه، وأننا أوفينا بالتزامنا نحوك حسب الوثيقة المذكورة أعلاه" طالما أن هذه الوثيقة في يدك.

كتبه بكيسيس (Pekysis) بن هارفافائيس (Harphaphaïs) الذي يكتب باسم كهنة [الإله] تحوت.

[باليونانية] العام العاشر، التاسع والعشرون من هاتور، في تينيس في مركز موخيتيس. سجل بواسطة بطوليمايوس.[١٠]

٢ – بيتيهارسيمثيوس بن بانيبخونيس

الزمان: المدة من حوالى عام ١٤٥ ق.م. إلى عام ٨٨ ق.م.، وتشمل خمسة أجيال من العائلة.

المكان: باثيريس وكروكوديلوبوليس في مصر العليا (انظر: الخريطة رقم ٣).

الوثائق: يتكون السجل من أوراق بردى وأوستراكا، ويبلغ عدد الوثائق الديموطيقية تسع عشرة وثيقة، واليونانية إحدى وخمسين، كما توجد

وثيقتان مكتوبتان باللغتين المصرية واليونانية. وبالنظر إلى أن الوثائق قد تم الحصول عليها من سوق العاديات فإنها متناثرة بين مجموعات موجودة في برلين والقاهرة وفريبورج (Fribourg) وهايدلبرج (Heidelberg) ولايبتسيش (Leipzig) ولندن وأوكسفورد واشتراسبورج (Strassbourg) وأوباسالا. كذلك تتميز الوثائق من حيث المحتوى بأنها تشكل أكثر السجلات التى دُرست تنوعا من حيث الموضوعات.

شجرة العائلة: راجع: الشكل رقم ٦ في نهاية الفصل.

تحتوى شجرة هذه العائلة التى تضم خمسة أجيال على أسماء مصرية خالصة كما أن بعض رجالها قضوا حياتهم العملية في مجال القوات العسكرية. لقد كان هوروس (Hōros) في الجيل الثالث وبانيبخونيس (Panebknounis) في الجيل الرابع يحترفان الجندية، ونحن نعرف أن أولهما خدم في الوحدة نفسها التى عمل بها دريتون الذي قابلناه في الفصل السادس. كذلك نعرف أن توتوئيس (Totoēs)، الأخ الأكبر لهوروس، قد وُصف في إحدى الوثائق التى يضمها السجل بأنه "أجنبىّ مولود في مصر،" بينما وُصف بيلاياس (Pelaias) الذي يرجع إلى الجيل الخامس وتزوج من ابنة بانيبخونيس بأنه "يونانىّ مولود في مصر،" كما هو الحال مع مينخيس (Menkhis) الذي قابلناه في الفصل السابع. إن غالبية الأوراق التى وصلت إلينا من هذه الأسرة قد كُتبت باليونانية، وعلى الرغم من ذلك لم نقابل فرداً واحداً منها يحمل اسماً يونانياً. إن الاحتمال الذي يفرض نفسه هو أن هؤلاء الناس، على عكس الذين قابلناهم في الأسر السابقة، لم يحملوا أسماءً يونانية بديلة أو مصاحبة للأسماء المصرية لأنهم لم يحتاجوا أياً منها. لقد كانوا أعضاءً في أسر مصرية تعيش في منطقة تكاد تكون آهلة تماماً بالسكان المصريين، كما رأينا في الفصل السادس، ولكنهم استمروا يتمتعون بالمنزلة الاجتماعية المتميزة لليونانيين، التى اكتسبوها بفضل انتسابهم لأحد الأجداد اليونانيين أو المقدونيين ممن عاشوا في الأجيال الماضية.

لقد كان المصريون العاملون في القوات العسكرية يُشكلون طبقة متميزة تعلو، كما هو واضح، كثيراً من أقرانهم من السكان الأصليين، من حيث المكانة

الاجتماعية وما يصاحبها من امتيازات. وبينما كان بعض هؤلاء العسكريين الذين يرغبون في منزلة الكليروخوى يحصلون على قطع من الأراضى ومكان للسكنى والإقامة، فإن الآخرين كانوا يحصلون على أجور وحصص تموينية. إن الأدلة التى وصلت إلينا توحى أن أصحاب هاتين الفئتين قد أحسنوا استغلال الفرص التى أتيحت لهم، وأنهم قد أَثْرَوْا من ورائها. وينطبق هذا الوضع بكل تأكيد على أسرة بيتيهارسيمثيوس (Peteharsemtheus) التى تبدو عليها علامات عديدة للثراء. ومن وثائق هذا الأرشيف نعرف أنه وبعض أفراد أسرته كانوا يمتلكون مبانى وقطع أراض، وأنهم قد تاجروا فيها بالبيع والشراء، مثلما أهدوا بعضها، بالإضافة إلى قيامهم بعديد من التعاملات التجارية الأخرى.

وكان بيتيهارسيمثيوس أكبر أبناء الجيل الخامس وآخر من ذكر في وثائق هذا الأرشيف. وبينما التحق واحد أو أكثر من إخوته بالجيش، ظل هو بالمنزل للإشراف على شؤون العائلة. إنه يظهر فيما يزيد عن نصف الوثائق بوصفه عميداً للأسرة، وفيما يتعلق ببقية الوثائق فإنها ترجع إلى أجيال مبكرة، وخاصة الجيلين اللذين يسبقانه مباشرة.

وتُعرفنا وثائق هذا الأرشيف بأفراد الأسرة وبطبيعة أعمالهم، وهو الأمر الذي ننتقل للحديث عنه الآن. ومن أجل التعرف عليهم بوضوح وسهولة فسوف نستخدم الصفات العددية، أىّ الأول والثانى، في الإشارة إلى الأفراد الذين يحملون نفس الاسم، وينتمون إلى أجيال مختلفة.

إن أقدم أفراد هذه الأسرة الذي يمكننا التعرف عليه هو رجل يُدعى هورروس، وولد حوالى عام ٢٣٠ ق.م. هذا الرجل، هورروس (الأول)، هو الممثل الوحيد للأسرة في الجيل الأول ونتعرف عليه فقط من خلال الإشارة إليه على أنه ابن باتووس (Patous) (الأول). وعلى الرغم من أننا لا نعرف شيئاً عن وظيفته أو عن مكانته الاجتماعية، فلا بد أنه كان شاباً عندما بدأ المصريون في الانخراط في جيش البطالمة، كما ذكرنا في الفصل الأول، وربما بدأ معه امتياز الخدمة العسكرية الذي توارثته الأسرة بعد ذلك. وعلى أية حال فقد استمتع ابنه أو أبناؤه بكل تأكيد بهذا الامتياز، كما يمكننا أن نستنتج من حقيقة

إن اثنتين من حفيداته قد تزوجتا من رجال يونانيين لهم منزلة عسكرية.

وُلد باتووس، ابن هورروس (الأول)، على ما يبدو حوالىّ عام ٢٠٠ ق.م. ولأننا نلاحظ أن الأسرة كانت كبيرة العدد نوعاً ما في الأجيال المتأخرة التى وصلت إلينا عنها معلومات أكثر، فإنه يمكننا افتراض أن باتووس كان لديه حفيد أو أكثر، وإن لم يظهر أحد منهم في وثائق الأرشيف. أما باتووس نفسه فقد كان لديه أربعة أبناء هم: ولد يُدعى باتووس (الثانى)، وثلاث بنات وُلدت كُبراهنّ في حوالى عام ١٨٥ ق.م.، وأصغرهنّ في عام ١٦٤ ق.م. أما الأب باتووس (الأول) فقد كان حياً في نهاية عام ١٣٨ ق.م.؛ حيث تسجل إحدى الوثائق أنه اقترض مبلغ خمسة آلاف دراخمه نحاسية. وعندما مات بعد ذلك بقليل أصبح هذا الدَّيْن موضع نزاع طويل تم الفصل فيه في النهاية بواسطة اثنين من أحفاده بعد وفاته بما يزيد عن ثلاثين عاماً.

إننا نجد الأسرة وقد دبت فيها الحياة مع مجيء جيلها الثالث، فابتداءً من هذا الجيل ولمدة جيلين بعد ذلك تعرض الوثائق موكباً من رجال ونساء عديدين يتبدون لنا في بعض جوانب حياتهم الخاصة، وفى كثير من نشاطاتهم التجارية. ومن هذه الوثائق يتضح لنا سريعاً أن هذه الأسرة الكبيرة كانت تتمتع بقدر من الثراء الذي يعتمد على ركنين مهمين، هما: عملها في الخدمة العسكرية، وممتلكاتها العقارية.

كذلك كان لأفراد هذا الجيل علاقاتهم بأسرة أخرى جديدة بالنسبة لنا، إذ كان من بين المعاصرين لباتووس (الأول) رجل يُدعي بيلايا‌س (Pelaias)، وهو رجل يشبهه تماماً من حيث إنه يحمل اسماً مصرياً بينما يوصف في المكانة الاجتماعية ومن ناحية الامتيازات بأنه "أجنبى مولود في مصر،" أىّ من نسل أحد المهاجرين إلى مصر البطلمية وأبنائهم المولودين في مصر. وكان لبيلاياس وزوجته تيساس (Tisas) ولدان، هما على الأقل اللذين نسمع عنهما في المصادر، ويُدعى أولهما توتوئيس (Totoēs) وآخرهما هورروس. وقد وُلد الأول حوالى عام ١٨٣ ق.م.، وكان يدير ضيعة الأسرة بينما التحق الآخر بالخدمة العسكرية. إننا نقابل هذين الأخوين لأنهما تزوجا ابنتى باتووس

(الأول) وتدعيان تاريئيسيس (Tarēesis) وتاكميئيس (Takmēis)، وكان لزواجها تاريخ طويل يمكن أن نذكر منه ما يلى:

١ – عندما كان توتوئيس في حوالى الثامنة عشرة تزوج من تارئيسيس التى كانت حينئذ في حوالى الخامسة عشرة. بعد ذلك في عام ١٦٣ ق.م. أنجبا ولداً هو بانيبخونيس الذي أصبح فيما بعد والد بيتيهارسيمثيوس.

٢ – بعد عام ١٦٣ ق.م. ببعض الوقت انتهى هذا الزواج بالطلاق ثم تزوجت تارئيسيس من أخى زوجها السابق، ويدعى هوروس (الثانى)، وأنجبت منه ولداً يُدعى باووس.

٣ – أما توتوئيس فقد تزوج بدوره من أخت تارئيسيس التى كانت تصغرها في السن كثيراً، وتُدعى تاكميئيس، وأثمر هذا الزواج ولداً وابنتين وُلدوا جميعاً بعد حوالى عشرين عاماً أو أكثر من مولد الابن الأول لتوتوئيس من زواجه الأول. إن محاولتنا التعرف على الأحداث والظروف التى دفعت إلى زواجه الثانى قد تكون لها فائدة أكبر من مجرد إشباع الفضول. إننا نجد نفس الفارق في السنّ بين الزوج والزوجة في الزواج الثانى لدريتون الذي قابلناه في الفصل السادس، عندما تزوج الابنة الصغرى لأحد زملائه الجنود. لا شك أن توتوئيس، حتى بعد طلاقه من تارئيسيس، كان يشعر بأنه "فرد من العائلة،" ليس فقط لأن لديه ابن من زوجته السابقة، ولكن أيضاً لأنه يمتّ إليها بصلة النسب لكونه أخاً لزوجها الجديد. في أثناء ذلك كان توتوئيس يشهد أختها الصغرى وهى تترعرع في ثوب المراهقة، وإن كانت لم تحصل على قسط من التعليم. هذه الأخت نجد لها وصفاً في إحدى الوثائق المتأخرة بأنها متوسطة الطول وزيتونية البشرة ومنبسطة الوجه ومستقيمة الأنف. لا شك في أنها وتوتوئيس كانا يُشكلان بعد ارتباطهما زوجاً غريب المنظر لأنه كان يفتقر إلى الطول وأصلع الرأس وزيتونىّ الملامح ومستقيم الأنف والشعر، أىّ فيما تبقى منه، وطويل الوجه ويفتقر بكل تأكيد إلى الملاحة.[١١] وبالإضافة إلى ذلك كان الرجل غنياً وأحد الأعضاء المبجلين في المجتمع وله مكانته المعروفة فيه. لقد كان بمقدور أية فتاة أن تسلك طريقاً أسوأ من هذا الزواج، ولا يعنى هذا أبداً أن فتاتنا كانت

فقيرة، كما سنرى بعد قليل. قبل ذلك يجدر بنا أن نتحدث عن ثروة زوجها.

إن الوثائق التى يظهر فيها توتوئيس بوصفه عميداً للعائلة يبلغ عددها خمس وثائق تُغطى مدة اثنين وثلاثين عاماً.' أقدم هذه الوثائق، وهى أقدم ما في السجل بأكمله، تتضمن عقداً بالديموطيقية تم توقيعه في الخامس عشر من يوليو عام ١٤٥ ق.م. ويسجل العقد أن توتوئيس "الأجنبى المولود في مصر،" قد دفع ألف دراخمه مقابل قطعة أرض بناء تقع داخل تحصينات باثيريس، على أن تكون مملوكة بالمشاركة بينه وبين أخيه هوروس (الثانى) الذي يعمل بالجندية. بعد ذلك بنى الاثنان منزلاً على قطعة الأرض، وبعد مرور عدة أعوام أخرى باع هوروس نصيبه إلى توتوئيس. أما بقية الوثائق الخمس الأخرى التى تشير إلى توتوئيس فكلها مكتوبة باليونانية. وتسجل إحداها قرضاً مقداره خمسة آلاف وستمائة دراخمه حصل عليها توتوئيس وزوجته تاكميئيس في الحادى والعشرين من أكتوبر عام ١٢٧ ق.م. ويستحق دفعها بعد ثلاثة شهور. أما الوثائق الثلاث المتبقية فقد كتبت في الخامس عشر من مارس عام ١١٣ ق.م. في ذلك اليوم استعار توتوئيس، كما يتضح من بردية موجودة الآن في المكتبة البريطانية، من أخيه بانيبخونيس مبلغ ثمان وأربعين ألف دراخمه وثلاثة عشر أردباً من القمح، يستحق دفعها جميعاً بعد عام ونصف من ذلك التاريخ، أى بعد حصاد العام التالى. وفى اليوم نفسه، الموافق الخامس عشر من مارس، قسّم توتوئيس الذي يبلغ عندئذ من العمر حوالىّ السبعين عاماً ممتلكاته الخاصة بين ابنيه وبنتيه، وكتب في نفس اليوم وثيقتين منفصلتين لكل منهما بنودها الخاصة المختلفة عن الأخرى، وقد وصلت إلينا هاتان الوثيقتان. وبينما كانت الوثيقة الثانية هى النهائية التى عُمل بها فقد تلقت الفتاتان في كل من الوثيقتين أقلّ من نصف ما حصل عليه الولدان، وطبقاً لكل منهما أيضاً حصل بانيبخونيس، ابن توتوئيس من زواجه الأول، على نصيب أكبر من نصيب أخيه غير الشقيق، باتيس (Patēs). ولكن الوثيقة الأولى الموجودة أيضاً في المكتبة البريطانية توضح أن تفضيل توتوئيس لابنه الأول قد بلغ حداً جعله لا يترك للابن الثانى سوى "أقل القليل." ولا شك في أن أم الابن الثانى، تاكميئيس، قد حرضت ابنها

على أن يتحرك بقوة وبسرعة من أجل عدالة أكبر في المعاملة، وهو ما نجح فيه، إذ أن القرار النهائي المحفوظ على بردية موجودة في اشتراسبورج يخير بانيبخونيس عن باتيس بنصف سهم من البيت الذي سبقت الإشارة إليه، والموجود في باثيريس، وهو البيت الذي لم يحصل باتيس منه على شئ. وفيما يلي باختصار ما استقر عليه توتوئيس في نهاية الأمر: بالنسبة لقطعة أرض مساحتها ثلاث أرورات فإن كلاً من الولدين يحصل على واحدة، وتُقسَم الثالثة بين البنتين؛ كما تُقسَم بالكيفية نفسها قطعة أرض مساحتها ست أرورات وثلثا الأروره. كذلك تُقسَم قطعة أرض بناء بالتساوى بين الولدين، وفيما يتعلق بالبيت الموجود داخل التحصينات فإن نصفه يذهب إلى بانيبخونيس، والنصف الآخر يُقسَم بين البنتين. وبعد مرور تسعة شهور على ذلك التاريخ، باعت البنتان، بموافقة الأب، نصيبهما في المنزل إلى زوجة بانيبخونيس.[١٢]

لنتحدث الآن عن زوجة توتوئيس الثانية، تاكميئيس أو تاكميوس (Takmeous)، كما دُعيت إحدى المرات، وعلى ما يبدو فإن الاسم الأخير به لاحقة تدل على التدليل والإعزاز. وكما ذكرنا من قبل لم تكن السيدة وليدة الفقر عندما تزوجها توتوئيس؛ إذ أنها زُفت إليه ولا شك ومعها دوطة كبيرة، وظلت أيضاً، كما تدل الوثائق، تحتفظ في يدها بقدر من الممتلكات التى كان لها سلطة التصرف فيها كما تشاء. إنها تظهر بوصفها شخصاً مسؤولاً في خمس من وثائق السجل. أقدم هذه الوثائق تحمل تاريخاً يقابل أول فبراير عام ١٣٦ ق.م. وتسجل أنها أقرضت أخاها باتووس (الثانى) أداة مخروطية حديدية، ربما كانت أداة زراعية، تُقدر قيمتها بثمانية آلاف دراخمه نحاسية. وفى الخامس من نوفمبر من العام نفسه باعتْ هى وباتووس مقابل عشرة آلاف دراخمه شجرة جميز كانا يمتلكانها معاً، ثم أقرضته حصتها من البيع، بحيث يستحق دفعها بعد الحصاد التالى. إن الثمن المرتفع للشجرة الذي حصلا عليها يذكرنا بطريق غير مباشر بندرة الخشب التى كانت وما تزال سمة غالبة في ترْبة مصر وطقسها الجافيْن. وبعد هاتين الوثيقتين تأتى الثالثة التى أشرنا إليها من قبل على أنها ترجع إلى عام ١٢٧ ق.م. والتى حصل فيها توتوئيس وتاكميئيس

على قرض مقداره خمسة الاف وستمانة دراخمه. بعد حوالىّ عام من ذلك التاريخ أعطى توتوئيس ثلاث قطع من الأراضى لأبنائها الثلاثة. وبعد أحد عشر عاماً، فى السابع عشر من أبريل عام ١١٤ ق.م.، أعاد الأبناء هذه القطع إليها. ولمّا يمر وقت طويل إلا وبيعت هذه الأراضى إلى بيتيهارسيمثيوس في الثالث من سبتمبر مقابل ثمانية آلاف دراخمه. وكان البائعون في هذه الوثيقة هم تاكميئيس وإحدى بناتها، وقد ذُكر أنهما يتصرفان بموافقة الابنة الأخرى وأخيها غير الشقيق، الذي كان أيضاً والد المشترى. ولا تتضمن الوثيقة أية إشارة إلى الأخ الشقيق الذي كان على قيد الحياة في ذلك الوقت، كما يتضح لنا من وثائق أخرى، وهو الأمر الذي يدعو إلى التعجب بالنسبة لنا على الأقل. إن السبب في تجاهله في هذه الوثيقة غير معروف، ولا يمكننا سوى تخمينه، ولكن من المناسب هنا أن نتذكر المعاملة غير المتكافئة التى تلقاها في وصية والده، التى حُررت في العام التالى.[١٣]

إن العضو الذي يسترعى انتباهنا بعد ذلك من بين أعضاء الأسرة هو ذلك الأخ غير الشقيق، بانيبخونيس (Panebkhounis)، أو بانوبخونيس، (Panobkounis) الذي نجد اسمه مكتوباً بهاتين الصيغتين في اليونانية، بينما تحذف الصيغة الديموطيقية الحرفين الأخيرين. إنه يظهر في أوراق السجل أكثر من غيره ممن قابلنا من أفراد العائلة حتى الآن، ويرجع ذلك ولا شك إلى كونه والد بيتيهارسيمثيوس الذي يحتفظ بأرشيف هذه الأسرة. لقد وُلد عام ١٦٣ ق.م.، وحوالىّ عام ١٤٩ ق.م.، تزوج من كوباهيتيسيس (Kobahētēsis)، وهو اسم تحذف الديموطيقية أيضاً مقطعه الأخير. وحينما تم هذا الزواج كان عمرها يبلغ الثالثة عشرة فقط، وكانت تصغره بحوالى عشرة أعوام، وكانت تُعرف أيضاً باسم آخر هو مايثوتيس (Maethōtis). ولكن على العكس من كافة الأسماء المزدوجة التى قابلناها حتى الآن في الأسر التى درسناها، فإن كلا الاسمين لم يكن يحتوى على عناصر إغريقية، بل كانا اسمين مصريين خالصين، وهو ما يعد إشارة أخرى إلى التحول الكامل إلى أسلوب الحياة المصرىَ من قِبل أسر هذه الطبقة المتميزة، على الرغم من أنهم ظلوا يتمتعون

بالمكانة الاجتماعية الموروثة بوصفهم "يونانيون مولودون في مصر."

وحينما بلغ بانيبخونيس منتصف العمر نجده موصوفا في إحدى الوثائق بأنه متوسط الطول، ويبدو أنه ورث ذلك عن أمه، لأن والده كان قصيرا. كذلك نجده موصوفاً بأنه زيتونى الملامح ومستدير الوجه وذا أنف مستقيم، وبأن مقدمة رأسه تخلو من الشعر، وبه آثار جرح أيمن الجانب الذي يخلو من الشعر من رأسه. أما زوجته فقد وصفت بأنها ما بين القصيرة والمتوسطة الطول وزيتونية الملامح وذات وجه مستدير وأنف مستقيم. لقد أثمر زواجهما في فترة تقترب من خمسة وعشرين عاماً أربعة أبناء وابنتين، امتد بهما العمر حتى مرحلة البلوغ. وربما كان من بين هؤلاء الأبناء آخرون ممن ماتوا في أثناء الطفولة، أو الصبا المبكر، ولم تُتح لهم الفرصة لأن يُذكروا في الوثائق. لقد عاش بانيبخونيس بعد عام ٩٩ ق.م. كما امتد العمر بزوجته بعد وفاته، وإن كنا لا نعرف عدد الأعوام التى قضتها على قيد الحياة.

لقد كان بانيبخونيس بانخراطه في الحياة المهنية لأسرته، وباحترافه الجندية، لا يختلف عن أبناء جيله. ومثل غيره ممن لهم تلك المكانة الاجتماعية الذين قابلناهم من قبل، لم تكن واجباته في فرقته عائقاً بينه وبين الاستمرار في متابعة شؤون أراضيه وغيرها من أعماله التجارية. إنه يظهر في حوالى عشرين وثيقة تتراوح تواريخها بين عام ١٣١ ق.م. و ٩٩ ق.م.، وتشكل ثمان من هذه الوثائق، وأربع منها باليونانية والأخرى بالديموطيقية، إيصالات عن ضرائب دفعها بين أعوام ١٣١ ق.م. و ١٢٠ ق.م. وتشير اثنتان من هذه الوثائق إلى مدفوعات عينية من القمح الذي زرعه في أرضه؛ وبينما تشير واحدة منهما إليه فإن الأخرى تذكره مع أخيه. كما تشير أربع وثائق أخرى إلى مبالغ تتراوح بين سبعمائة وعشرين دراخمه وبين ألفين ومائتى دراخمه مقابل استغلال أراض للرعى تخص التاج. أيضاً هناك إشارة إلى مائتى دراخمه دفعها مقابل ضرائب مبيعات قيمتها ١٠% على أربع قطع أراض اشتراها عام ١١٥ ق.م.، وإشارة أخرى إلى ألف وستمائة دراخمه دفعها مقابل ضريبة ١٠% على بستان للكروم.[١٤]

على الرغم من أن هذه الإيصالات الضريبية دليل واضح على بعض من نشاطات الرجل الزراعية، فإن الضوء الذي تلقيه على ذلك الأمر غير مباشر ولا يوضح الكثير. توجد مع ذلك ثماني برديات أخرى تزودنا بسجل فعليّ لبعض تعاملات بانيبخونيس التجارية. لقد وردت إشارة من قبل إلى قرض مقداره ثمانية وأربعون ألف دراخمه أعطاه إلى والده، توتوئيس، في الخامس عشر من مارس عام ١١٣ ق.م. كما توجد وثيقة أخرى بالديموطيقية ترجع إلى السادس من مارس علام ١٢٥ ق.م. تتضمن اتفاقا مع رجل آخر يعمل بالجندية، كان بصدد بناء منزل بجوار بيت بانيبخونيس، على ألا يغلق مسقط الضوء في بيت الأخير أو أن يفتح نافذة تطل عليه. وفى التاسع عشر من نوفمبر عام ١٢٣ ق.م. نقابل بانيبخونيس وزوجته وهما يبتاعان من أخيها، مقابل أربعة آلاف دراخمه، ربع أرووره من الأراضى المجاورة للنيل. وفى العاشر من سبتمبر عام ١١٢ ق.م. اقترض سبعة آلاف دراخمه، بضمان قطعة أرض صغيرة من الأرض أعيدت إليه عندما ردّ المبلغ المقترض في العام التالى. وفى الرابع والعشرين من فبراير عام ١٠٧ ق.م. اشترى نصف منزل مقابل اثنا عشر ألف دراخمه، ودفع ضريبة المبيعات وقدرها ١٠% في كروكوديلوبوليس. وحيث إنه وزوجته كانا يمتلكان بالفعل قبل ذلك التاريخ منزلاً في باثيريس المجاورة، فإن شراء هذا البيت الجديد ربما كان بغرض توفير مكان لإقامتهما في المناسبات التى كان العمل العسكرىّ يضطره فيها إلى الذهاب إلى كروكوديلوبوليس، أو بطبيعة الحال، ربما كان بغرض الاستثمار. قبل ذلك التاريخ بستة أسابيع، وفى الثانى عشر من يناير وقّع بانيبخونيس وأخوه الأكبر بيتيهارسيمثيوس على وثيقة غير عادية، إن لم تكن من أهم وثائق السجل، لما تتضمنه من معلومات عن القانون في وقتها، وعن الإحساس بالمسؤولية الجماعية، ذلك الإحساس الذي يعتبر أحد متطلبات سمو المنزلة الاجتماعية *noblisse oblige*، والذى كان يميز كما هو محتمل جداً ليس فقط أسرته وحدها، بل أيضاً كافة طبقة الجنود المصريين المتمتعين بالمكانة اليونانية. إن وثيقة الثانى عشر من يناير عام ١٠٧ ق.م. تسجل مدفوعات قيمتها ثمانية آلاف ومائة دراخمه بواسطة بيتيهارسيمثيوس ووالده إلى شخص

يُدعى خايريمون (Chairēmōn) الذي يحمل اسماً يونانياً ويُعرف أيضا باسم مصرىّ هو هيرينوبيس (Herienoupis)، وهو ابن أحد العاملين بالجندية في كروكوديلوبوليس. ويتكون هذا المبلغ من أربعة آلاف وخمسمائة دراخمه دفعها بانيبخونيس عن نفسه، وثلاثة آلاف وستمائة دفعها عن عمته، سينيسيس (Sennēsis)، وهى تشكل بدورها جزءاً من مبلغ أكبر كانت قد اقترضته من زوج أم خايريمون عام ١٣٨ ق.م. قبل واحد وثلاثين عاماً من تاريخ تلك الوثيقة! أما الخمسة آلاف المتبقية من هذا القرض الذي مر وقت طويل على موعد استحقاقه، فقد دُفعت في العشرين من أبريل عام ١٠٤ ق.م.، بعد أن تنازل خايريمون عن الشروط الجزائية المفروضة على التأخير والتخلف عن الدفع. كان ذلك بعد مرور ثلاثة أعوام على دفع الجزء الأول. وكما سيتضح فيما بعد، فإن ذلك كان بواسطة مبلغ تم الحصول عليه بالاقتراض من هوروس (الثالث)، وهو ابن عمّ من الدرجة الثانية لبيتيهارسيمثيوس.[١٥]

تتبقى أمامنا وثيقتان هامتان تتعلقان ببانيبخونيس يجب التعرض لهما، وإحداهما بالديموطيقية والأخرى باليونانية. وبينما تخبرنا الأخيرة عن شراء وبيع وإعادة شراء نفس قطع الأراضى، فإن تواريخ هذه التعاملات التجارية توحى بقوة بأن ظروف البيع وإعادة الشراء كانت تُظلها الأحوال المشار إليها في الوثيقة المكتوبة بالديموطيقية، والتى يرجع تاريخها إلى وقت سابق لهذه. وإذا صح هذا الفرض، فإننا نتعرف بذلك على لمحة شديدة الرقة من الاهتمامات الإنسانية التى لا يُحدها وقت أو زمان.

دعونا نبدأ لذلك بالوثيقة الديموطيقية التى كتبت عام ١٠٥/١٠٤ ق.م. لقد سجل بيتيهارسيمثيوس وإخوته الثلاث في هذه الوثيقة موافقتهم على الموضوعات الثلاثة التالية. أولاً: كيفية اقتسام ميراثهم عن والدهم عندما يحين الأجل. ثانياً: إنهم سوف يتكفلون متضامنين بنفقات معيشة والدهم ما تبقى له من عمر. ثالثاً: إنهم سوف يستمرون في دفع نفقات معيشة والدتهم طوال ما تبقى من حياتها. من الواضح أن هذه الوثيقة تحتوى على ما هو أكثر من هذه الكلمات، ولكن ليس أمامنا سوى أن نخمن الظروف التى دفعت إليها، وهى

الظروف التى صمتت عنها الوثيقة تماماً وربما أيضا بذكاء. لقد كان بانيبخونيس، والد الموقعين على الوثيقة، يبلغ في ذلك الوقت ثمانية وخمسين عاماً، متخطياً بذلك بمراحل متوسط العمر في العصور القديمة. هل أصابه عندئذ ما يبدو وكأنه مرض الموت؟ إذا كان هذا هو الوضع فإننا نعرف أنه قد تحسن أو على الأقل استمرت حياته بعد ذلك عدة أعوام، كما سنرى بعد قليل. أم هل بدأت تظهر عليه علامات سلوكية تدل على عدم اتزانه مما أزعج أبناءه وجعلهم يعتقدون أن في ذلك خطر على ثروة العائلة؟ إن الوثيقة اليونانية التى كتبت عام ٩٩ ق.م. توحى بهذا الاحتمال. إنها تحدثنا أنه في الثلاثين من ديسمبر عام ١١٥ ق.م. ابتاع بانيبخونيس أربع قطع أراض دون ذكر الثمن. وظل الرجل يمتلك هذه الأراضى، وربما أيضاً يزرعها لمدة خمسة عشر عاماً ونصف حتى السادس من يونيو عام ٩٩ ق.م.، عندما باع الأربع قطع مقابل اثنا عشر ألف دراخمه. إننا نلحظ أن عملية البيع قد حدثت بعد خمسة أو ستة أعوام على اتفاقية الإعاشة التى توصل إليها أبناؤه. لقد كان بانيبخونيس ما يزال حياً كما يتبين من هذه الوثيقة. ولكن من الواضح أن تصرفه بالبيع في هذه القطع الأربع لم يلق قبولاً من أبنائه؛ إذ أنه استردها ثانية بعد ثمانية أسابيع دون أية زيادة في الثمن، مما يبين بوضوح شديد أن هناك تفاهماً متبادلاً بين البائع والمشترى على أن عملية البيع الأولى من قبل بانيبخونيس قبل عدة أسابيع خلت لن تجد لها سنداً أمام القضاء.[١٦]

من ناحية أخرى ماذا عن كوباهيتيسيس زوجة بانيبخونيس؟ لقد ذكرنا من قبل أنها كانت تصغره بعشرة أعوام، ومن المحتمل أنها عاشت بعده وأن الزوجين كانا يمتلكان معاً بعض الممتلكات. يتبقى علينا فقط أن نذكر أنها قد حصلت على بعض الأملاك في أثناء زواجها، إما باسمها منفردة أو مشاركة مع أبنائها. فيما عدا ذلك فإنها لا تعنى أكثر من مجرد اسم بالنسبة لنا.

توجد معلومة أخرى تستحق الذكر هنا بشكل عابر، وتتعلق بالاتجاه المألوف السائد في ذلك الوقت نحو تسجيل أعمار الأفراد، وهو الأمر الذي كان عنصراً مهماً في تحديد صفات الأطراف أمام الجهات القانونية، أو في أى

موضوع قانونىّ مثل العقود. إننا نجد بانيبخونيس موصوفا في عقد شراء المنزل عام ١٠٧ ق.م. بأنه يبلغ من العمر "حوالى الستين"؛ وهو ما يعنى أن عمره ربما يتراوح بين الخامسة والخمسين أو السادسة والستين. وفى وثيقة عام ٩٩ ق.م. التى تحدثنا عنها من قبل والتى تلى عقد الشراء بثمانية أعوام ونصف، نجده ما يزال موصوفاً بأنه في "حوالى الستين" من عمره. إن مما يدعو للتعجب أكثر من ذلك هو وصف والد بانيبخونيس، توتوئيس، بأنه في "حوالى الخامسة والخمسين" من عمره، بينما كان يبلغ من العمر بالفعل ما يزيد عن ذلك بحوالى خمسة عشر عاماً. لا بد أن زواجه من امرأة تصغره كثيراً جعله يبدو، ويظل يبدو، أصغر من عمره![١٧]

ولننتقل الآن إلى الجيل الخامس الذي كان على رأسه بيتيهارسيمثيوس، أكبر أبناء بانيبخونيس وكوباهيتيس. لقد ولد بعده ثلاثة أبناء هم بيتيسوخوس (Petesoukhos) وفاجونيس (Phāgonis)، الذي يحمل اسم جده لوالدته، وبسينِيسيس وابنتان هما سينبيلايا ونيخوتيس (Nekhoutis). وبينما كان بيتيهارسيمثيوس هو الذى يدير أراضى العائلة وأعمالها التجارية، فإن الابن الثانى، بيتيسوخوس، هو الذي التحق بالجندية المتوارثة في الأسرة. كذلك تزوجت أختهما الصغرى من رجل يعمل في المهنة نفسها، أىّ: رجل من نفس طبقتهم المتميزة. عُقد هذا الزواج في الثالث من مارس عام ٩٩ ق.م.، وعُثر على وثيقته في الأرشيف، وهى تُذكرنا أيضاً بوضوح أن أولئك القوم هم الأسر المصرية التى كانت تلتزم في حياتها بالتقاليد المتوارثة لثقافتها. فبينما كان الزوج يتمتع بالمكانة الاجتماعية المتوارثة بوصفه "يونانى مولود في مصر،" وكانت الزوجة بنتاً لرجل يتمتع بالمكانة ذاتها، فإن العقد كان مكتوباً بالديموطيقية. إن نصّ هذا العقد موجود في نهاية الفصل.

لقد كان بيتيهارسيمثيوس، عميد الأسرة، يتصرف في شؤونها أحياناً وحده، وأحياناً أخرى بالاتفاق مع واحد أو أكثر من إخوته، كما يتضح من حوالى أربعين بردية ترجع تواريخها إلى المدة من عام ١١٤ ق.م. إلى عام ٨٨ ق.م. وبينما تشكل اثنتا عشرة بردية عقوداً أو إيصالات متعلقة بقروض

فإن خمسة برديات أخرى تشكل إيصالات ضرائب مكتوبة جميعها بالديموطيقية. وتتضمن أربع عشرة وثيقة عمليات بيع وشراء أراض تمت اثنتان منها داخل العائلة، بحيث تظل الممتلكات داخلها، على الرغم من انتقالها إلى مالك جديد. وهكذا ابتاع بيتيهارسيمثيوس في الثالث من سبتمبر عام ١١٤ ق.م. ثلاث قطع أراض من تاكميئيس وابنتها سيئمبووس (Siëmpous)، والأولى هى أخته غير الشقيقة من جهة الأب. وكان زوج تاكميئيس، توتوئيس، الذي يظهر في الوثيقة بوصفه الممثل القانونيّ لزوجته وابنته، ما يزال على قيد الحياة وفى مرحلة متقدمة من العمر نوعاً ما. وفى الوثيقة الأخرى نجد الابنة الأخرى تايلولووس (Taēlolous) وأخاها غير الشقيق، الذي كان والد بيتيهارسيمثيوس، يتنازلان عن أية حقوق لهما في الممتلكات. فيما يلى نص عقد البيع:

[التاريخ] في باثيريس وفى حضور أمّونيوس المشرف على السجلات. إن تاكميئيس بنت باتووس... في حوالى الخمسين من العمر ومتوسطة الطول وزيتونية البشرة ومسطحة الوجه ومستقيمة الأنف، وسيئمبوس بنت توتوئيس... في حوالى الخامسة والعشرين من العمر ومتوسطة الطول وسمراء البشرة وطويلة الوجه ومستقيمة الأنف، مع زوج تاكميئيس ووالد سيئمبووس، المدعو توتوئيس بن بيلاياس، بوصفه ممثلهما القانونيّ، وبعد موافقة بانوبخونيس [هكذا!] وتايلولووس، أبناء توتوئيس، قد باعا الجزء الذي يخص كلاً منهم، والبالغ ثلاث قطع من الأراضى المزروعة قمحاً والمجاورة للنهر في باثيريس. وحدود القطعة الأولى كالتالى: من الجنوب أرض باخراتيس وكوليس (Koulis)، ومن الشمال أرض خينسثوتيس (Khansthōtēs)، ومن الشرق أرض آئيس (Aēs)، ومن الغرب مصرف. [تأتى بعد ذلك حدود القطعتين الثانية والثالثة محددة بالكيفية نفسها، وموضحة أن الجانب الشرقى للقطعة الثالثة يمتد بمحاذاة النيل]، أو كيفما كان المجاورون لهذه الأراضي من أية جهة. وقد بيعت إلى بيتيهارسيمثيوس بن بانوبخونيس مقابل تالينتاً وألفى دراخمه نحاسية. الضامنون هم تاكميئيس وسيئمبووس البائعتان اللتان قبل بيتيهارسيمثيوس المشترى [ضمانتها].

أنا أمونيوس سجلت ذلك.

[العاشر من سبتمبر] دُفعت في بنك باثيريس الذي يديره هيرا/ قيمة ١٠% ضريبة المبيعات بواسطة بيتيهارسيمثيوس بن بانوبخونيس، ثلاثمائة دراخمه نحاسية.

[التوقيع] هيرا/بان.[١٨]

وبعد عام من ذلك التاريخ وفى السابع والعشرين من أغسطس عام ١١٣ ق.م. باعت جدة بيتيهارسيمثيوس لأمه شريطاً صغيراً من الأرض وكان المشترون هم بيتيهارسيمثيوس بنصيب قدره خمسين، والثلاثة أخماس الأخرى كانت لتائيلولوس التى تمت له بصلة القرابة، كما لاحظنا تواً عن طريق الأب.[١٩] أما بقية المشتروات فكانت من خارج العائلة. وعلى سبيل المثال فقد اشترى بيتيهارسيمثيوس وإخوته الثلاثة في الخامس عشر من نوفمبر عام ١٠٧ ق.م. مساحة ثلاث أرورات ونصف مقابل أربعة وخمسين ألف دراخمه، وهو سعر يفوق متوسط الأسعار، ولعل السبب في ذلك أن موقع القطعة كان متميزاً لكونه بجوار النهر.[٢٠]

تنبغى الإشارة في نهاية المطاف إلى بعض الوثائق التى تتضمن قروضاً تلقتها الأسرة أو أعطتها. ففى العاشر من ديسمبر عام ١٠٣ ق.م. سدد بيتيهارسيمثيوس وإخوته الثلاثة قرضاً أخذوه من أخيهم غير الشقيق، هورروس (الثالث)، ووالده. ومن وصف القرض يبدو أن قيمته التى لم تُشر إليها الوثيقة هى الخمسة آلاف دراخمه المستحقة في العام السابق للوفاء بما تبقى من الدين القديم على عمتهم. بالإضافة إلى ذلك توجد ثلاثة قروض أخرى لها أهميتها التى تفوق غيرها، أحدها أخذه بيتيهارسيمثيوس بمفرده، والقرضان الآخران أخذهما بالمشاركة مع أخيه بيتيسوخوس الذي يعمل بالجندية. أول هذه القروض يرجع تاريخه إلى العاشر من ديسمبر عام ١٠٣ ق.م.، بينما تم الآخران في الوقت نفسه، أو في خلال التسعة شهور التالية لذلك التاريخ؛ ففى العاشر من ديسمبر دفع الأخوان، المدينان بمبلغ أحد عشر ألفاً ومائتى دراخمه، ستة آلاف ومائة دراخمه، وتبقىْ عليهما خمسة آلاف ومائة دراخمه، وقعا بها ورقة جديدة تفيد ذلك. ويبدو أنهما استخدما هذه القيمة المتبقية في دفع ما عليهما لابن عمهما هورروس (الثالث) في اليوم نفسه. أما القرضان الآخران فيتعلقان باثنى عشر ألف دراخمه و ثمانية عشر ألف دراخمه، على الترتيب. وبالنظر إلى أننا نعرف أن هذه الأسرة من الأسر الغنية وتعيش في رغد من العيش، فمن غير المحتمل أن هذه القروض الكبيرة كانت لمجابهة ظروف

ملحة، بل ربما يمكن النظر إليها على أنها من أجل الحصول على رأسمال إضافيّ يتوقعون الحصول من ورائه على ربح في بعض المشروعات الزراعية أو الأعمال التجارية. ويمكننا أيضاً ملاحظة أنه في الحادى عشر من ديسمبر، أىَ في اليوم التالى مباشرة لليوم الذي اقترض فيه بيتيهارسيمثيوس مبلغ الخمسة آلاف ومائة دراخمه، حصل الرجل عن طريق المصادرة على قطعة أرض مرهونة لديه مقابل أحد عشر ألفاً وخمسمائة دراخمه.[٢١]

إن آخر نظرة نلقيها على هذه الأسرة الفريدة والثرية من الأسر المحلية العاملة بالجندية يمكن أن تكون من خلال عقد زواج أصغر أفرادها المعروفين لدينا وهى نيخوتيس أخت بيتيهارسيمثيوس. كتب هذا العقد بالديموطيقية في اليوم المقابل للثالث من مارس عام ٩٩ ق.م.، ونصه كما يلى:

> العام الملكىّ الخامس عشر، الشهر الثانى من فصل الشتاء، اليوم الثامن عشر، من حكم الفرعون بطلميوس [العاشر] المعروف بالإسكندر والملكة بيرينيكى، أخته وزوجته [وبقية الصيغة الافتتاحية المطولة: راجع الحاشية السابقة رقم ٧].
>
> لقد قال اليونانىّ المولود في مصر بيلاياس [الثانى] بن بياس (Bias) وإيساريون (Isarion) للمرأة نيخوتيس بنت بانيبخونيس وكوباهيتيس: لقد اتخذتك زوجة لى.
>
> لقد أعطيتك مائة قطعة فضية (= خمسمائة ستاتير تساوى بدورها مائة قطعة فضية)، وعشرة أرادب من القمح (نصفها = خمسة من القمح ومجموعها عشرة أرادب من القمح) هدية زواجك.
>
> إن ابنك الأكبر وابنى الأكبر من بين الأبناء الذين ستلدينهم لى سوف يمتلك كل شئ وكافة الأشياء التى أمتلكها الآن، أو التى سأمتلكها فيما بعد.
>
> فيما يلى قائمة مفصلة بالأدوات النسائية التى أحضرتها بنفسك إلى منزلى:

حجاب واحد [؟]	قيمته ٢٣٠ قطعة فضية.
عباءة واحدة	قيمتها ٢٠٠ قطعة فضية.
جرّة واحدة	قيمتها ٢٠٠ قطعة فضية.
عُقدين	قيمتهما ١٥٠ قطعة فضية.
ثلاث أساور	قيمتها ٢٠٠ قطعة فضية.
ثلاث أساور أخرى	قيمتها ١٠٠ قطعة فضية.

منخل واحد	قيمته ١٠٠ قطعة فضية.
مجمرة نحاسية	قيمتها ١٠٠ قطعة فضة.

[وهكذا حتى بلغ المجموع بضعة الاف من القطع الفضية].[٢٢]

الحواشي:

---

(١) العقود هي: PLB 17, 19, 20 = *P. Rein.* 20, 23, 40, and Demotic 3 أما القرار الملكيّ فنجده في: *P. Teb.* 5 = *C. Ord. Ptol.* 53, lines 207-217 وعلى الرغم من أن هذا القرار قد نشر في بداية القرن [العشرين: المترجم] وكان موضعاً لكثير من التعليقات، فإن معناه الدقيق قد حدده لنا مؤخراً: J. Modrzejewski, *Le Monde grec.: Hommage á Claire Préaux,* Brussels, 1975, 207

(٢) إن النص التالى هو: *PLB* 11 = *P. Rein.* 18 أما القروض التى حصل عليها ديونيسيوس والأغراض التى يحتمل أنه استخدمها فيها فقد نوقشت في: *Bulletin of the American Society of Papyrologists,* 20 (1983), 55-58

(٣) راجع: *P. Teb.* 5 = *Select Papyri* 210 = *C. Ord. Ptol.* 53, lines 221-226

(٤) راجع: *PLB* 35 = *P. Rein.* 11

(٥) راجع: *PLB* 10 = *P. Rein.* 17 من الواضح أن أخر جملة في الالتماس الذي تهشم آخره كانت تنتهى بإحدى الصيغ الرسمية، مثلاً: "سأكون قد حصلت على حقوقى؛" انظر الأمثلة العديدة المذكورة في الفصل الرابع.

إن حدود إقليم كينوبوليس كانت تقع حوالىّ ثلاثين كيلومتراً شمال أكوريس، وربما كان سوتيونخيس زوجاً لبائيسيس.

(٦) انظر: *PLB* 7 وبالنسبة لصيغة التأريخ الموجودة في افتتاحية العقد، راجع الحاشية التالية. من الواضح أن أمّونوبوليس كانت مجاورة للمكان وإن كان موقعها غير معروف بدقة. بعد ذكر الملك الحاكم والملكة فإن الصيغة المستخدمة حتى هذه النقطة تشير إلى كهنة عبادات الإسكندر والبطالمة من الأول حتى الخامس، مع زوجاتهم، ثم بطلميوس السابع والسادس ثم السابع والثامن ثم الملك الحاكم عندئذ، بطلميوس التاسع وزوجته. وكما تذكر العبارات المستخدمة في نهاية البردية إيزيس ثم ملكات البطالمة اللائى كن زوجات بطلميوس الثامن والثالث والثامن والثانى والثامن والرابع. لقد ترجمت بعض

الألقاب في النسخة الديموطيقية التي تلي مباشرة هذه الوثيقة المكتوبة باليونانية. إن جميع الألقاب مترجمة في بداية هذا الكتاب.

(٧) حتى هذا الجزء فإن صيغة التأريخ، بعد الإشارة إلى الملك الحاكم والملكة، تشتمل على كهنة عبادات الإسكندر الأكبر والبطالمة من الأول حتى الخامس، مع ملكاتهم، وبعدها تشتمل على الملوك البطالمة السابع والسادس والسابع والثامن، وعلى الملك الحاكم الحالي التاسع وزوجته. وفي بقية الصيغة وبعد إيزيس تأتي ملكات البطالمة اللائي تزوجن الثامن والثالث والثامن والثاني والثامن والرابع. بعض هذه الألقاب اليونانية ترجمت في النسخة الديموطيقية التي تتبع مباشرة بعد الوثيقة اليونانية. كافة الألقاب قد تمت ترجمتها في التمهيد الموجود في بداية الكتاب.

(٨) تزيد هذه الغرامة عدة مرات عن سعر السوق، خاصة عند وقت الحصاد، حيث يصل المتوفر من المحصول إلى قمته، وسعره إلى أدنى مستوى له.

(٩) من الشيق أن نلحظ الكيفية التي تُترجم بها إلى الديموطيقية الكلمة اليونانية "يوباتور" التي تعني في الحقيقة "ذو الأب المجيد."

(١٠) الوثيقة المقتبسة هي: *PLB* 17 and 3 (Demotic) وكان الإله المصريّ تحوت الإله الراعي للإقليم الذي يُسمى باليونانية هيرموبوليس، نتيجة لمساواة تحوت بالإله اليونانيّ هيرميس.

(١١) إن أوصاف توتوئيس وتاكميئيس موجودة في: *P. Strassb.* 84 and 85 اللتين ترجعان إلى عامي ١١٤ و ١١٣ ق.م. لقد تكررت الخصائص الجسدية للوالدين لدى البنات، إذ أن إحداهنّ قصيرة والأخرى متوسطة الطول.

(١٢) وثائق توتوئيس هي: *P. Strassb. Dem.* 21; *P. Strassb.* 85; *P. Grenf.* II 18; *P. Lond.* 880 and 1203 أما عملية البيع بواسطة البنات إلى زوجة بانيبخونيس فموجودة في: *P. Lond.* 1204

(١٣) إن وثائق تاكمئيس حسب الترتيب المشار إليه هي: *P. Grenf.* II 17, 16 (= *M. Chr.* 138, 137) and 18; *P. Strassb.* 83 and 84 كما أن النص الموجود في هذه البردية الأخيرة مقتبس قرب نهاية هذا الفصل.

(١٤) إن إيصالات الضرائب، حسب ترتيبها الزمنيّ، موجودة في: *BGU* 1434; *WO* 1620; *SB* 9553 (3); *P. Strassb.* 82; *Matha Dem. O.* 113 and 228-230

(١٥) إن العقود هي حسب الترتيب المذكور: *P. Lond.* 1203, 10500 (Demotic) and 879; *M. Chr.* 233; *P. Strassb.* 87; *P. Lips.* 7

(١٦) الوثائق هي: *P. Adler Dem.* 9 and *P. Lond.* 1206

(١٧) الوثائق تم اقتباسها حسب الترتيب التالي: *P. Strassb.* 87; *P. Lond.* 1206; *P. Strassb.* 85

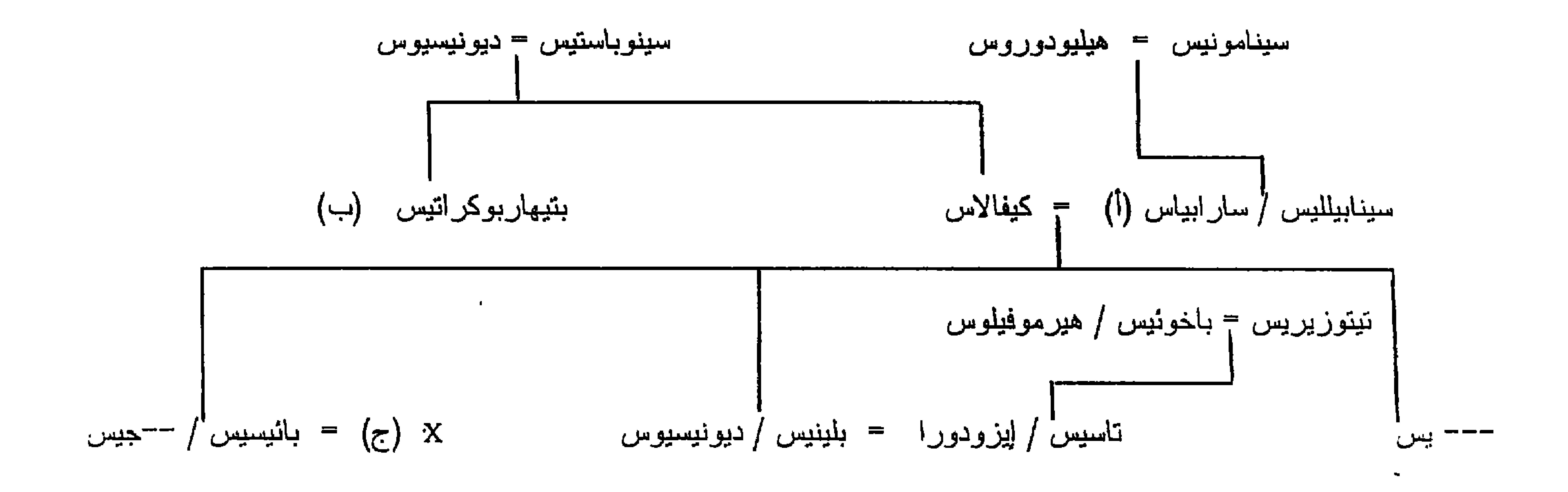
(١٨) انظر: *P. Strassb.* 84 إن وصف الأرض بأنها على ضفة النهر المقصود بها تمييزها عن غيرها من الأراضي الموجودة بأماكن أخرى يقبل عليها الناس بدرجة أقل، مثل الجزر الموجودة في النهر، حيث تتغير حدودها باستمرار نتيجة لفيضان النيل. التوقيع الموجود في نهاية الوثيقة هو: هيراكليديس، صاحب بنك، وقد كتب بشكل مختصر.

(١٩) راجع: *BGU* 449

(٢٠) انظر: *P. Grenf.* II 23 a = *Select Papyri* 27

(٢١) الوثائق المشار إليها في الفقرة هي حسب ترتيب ذكرها: *P. Grenf.* II 26, 27 and 30 (lines 7-11 and 27-29); *BGU* 1260; *P. Grenf.* II 28

(٢٢) انظر: *P. Strassb. Dem.* 43 = E. Lüddeckens, *Ehervertrage*, 45

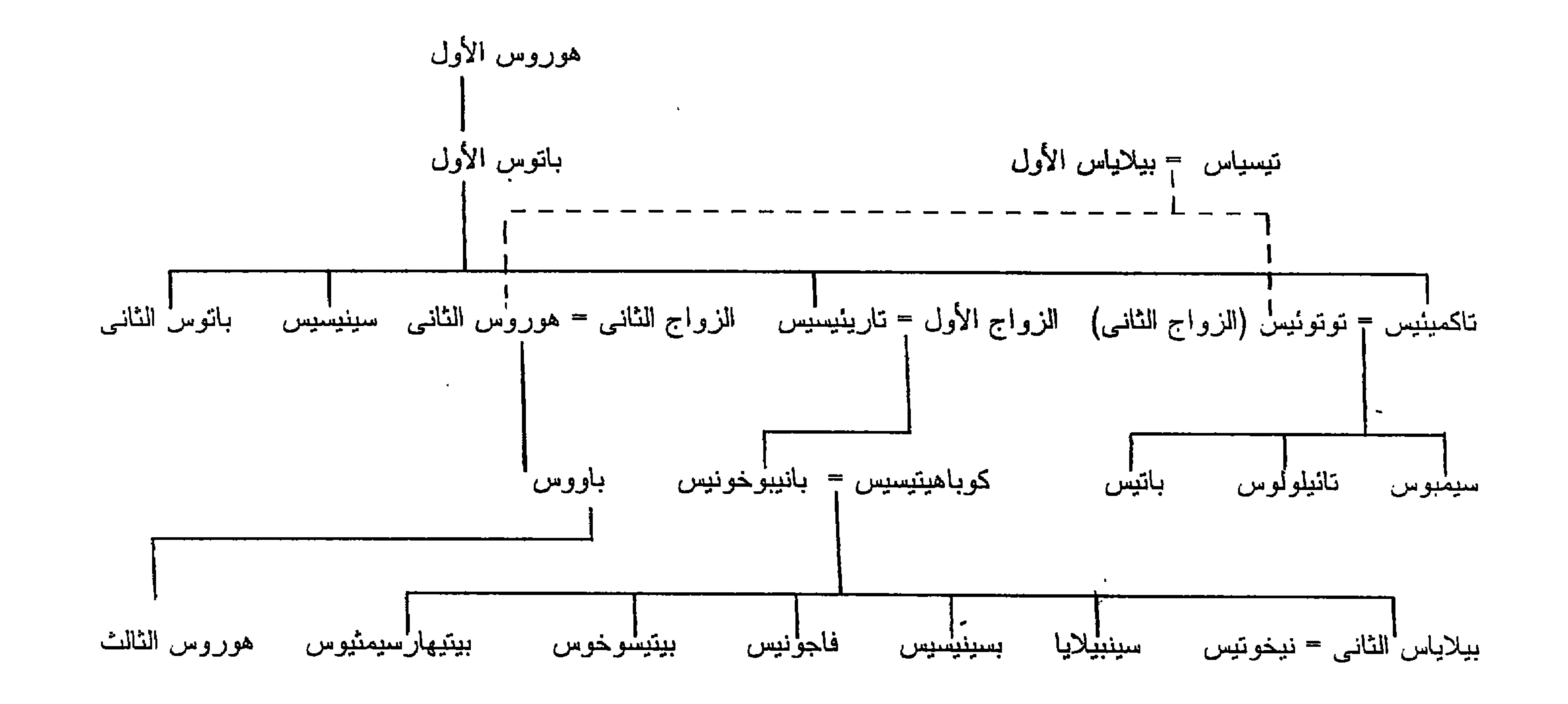


(أ) قبل عام ١٠٩ ق.م. كان اسم سينابيلليس اليونانىّ مذكوراً على أنه ديميتريا، ولا يوجد ما يوضح لنا السبب فى تغيير الاسم، كذلك فإننا نجد اسمها المصرىّ مكتوباً سينابيللوس وسينابوللوس.

(ب) إن توثويس وبيتينوفيس اللذين يظهران فى السجل دون أىّ تعريف آخر ربما يكونان أيضاً أبناء ديونيسيوس وسينوباستيس.

(ج) ربما كانت سوتيونخيس التى تظهر فى السجل زوجة أيضاً لبائيسيس؛ انظر الحاشية رقم ٥ والوثيقة المشار إليها فى ذلك الموضع.

شكل رقم (٥): شجرة عائلة ديونيسيوس بن كيفالاس.



شكل رقم (٦): شجرة عائلة بيتيهارسيمثيوس (عائلته الصغيرة فقط).

خاتمة

عندما استقر القادة المقدونيون المتنافسون على خلافة الإسكندر في عام ٣٠١ ق.م.، كل في إحدى الممالك الهللينستية (المتأغرقة) الثلاث، كان الأمر يبدو كما لو أن السدود قد فتحت أبوابها أمام العالم اليونانىّ. وبدأت موجات من البشر من رجال ونساء وأسر كاملة تَفد من دويلات مدن العالم اليونانىّ، الذي دمرته وأفقرته مائة عام من الحروب المتصلة، إلى أراضى العالم القديم في الشرق الأدنى التى أصبحت تمثل بالنسبة لهم أرض الأحلام. وعلى ما يبدو فإن أكثر الأماكن جذباً للمهاجرين، بما فيها من فرص كبيرة تفوق غيرها، كانت مصر التى قدر لها أن يحكمها، منذ ذلك التاريخ ولمدة ثلاثة قرون تالية، بطلميوس بن لاجوس وأبناؤه من بعده. إن آلاف البرديات، التى ترجع إلى العصر البطلمىّ والتى تم الكشف عنها في مصر في المائة عام الأخيرة، تعطينا صورة عن الحياة عندئذ، وهى صورة ليس هناك ما يدانيها في أىّ مكان آخر في العالم الهللينستىّ (المتأغرق)، بما فيها من تفاصيل لها خصوصيتها وطبيعتها المباشرة.

لقد استمر فيضان المهاجرين من العالم الناطق باليونانية قوياً عشرات السنين قبل أن يبدأ في الجفاف. وقد قابلنا في الفصول الأولى من هذا الكتاب، التى تتخذ مسرحاً لها القرن الثالث قبل الميلاد، أعضاءً يمثلون هذا الفيض البشرىّ. معظم هؤلاء المهاجرين وصلوا إلى مراتب الثراء في موطنهم الجديد من خلال عملهم في خدمة الإدارة الحكومية أو في الجيش أو في الخدمة المدنية أو في عديد من الأنشطة التجارية. وكان هؤلاء جميعاً يحملون أسماءً يونانية وأسماء آباء يونانيين، ويتخذون منها رموزاً للتفاخر بأنسابهم، ويجعلون منها أساساً لمكانتهم الاجتماعية المتميزة، كما نرى في الوثائق التى وصلت إلينا. وكما كان يحدث عادة في الطبقة المستعمرة الحاكمة فإنهم كادوا يتركون تماماً أمر تعلم لغة أخرى إلى جوار لغتهم إلى أعضاء طبقة المصريين الأدنى منهم مرتبة ممن يطمحون إلى تحسين مستواهم.

وفى الفصول التى تشكل النصف الأخير من هذا الكتاب، وفى أوضاع مشابهة مسرحها القرن الثانى قبل الميلاد، وبعد مرور حوالى مائة عام، نجد أن أبطال الرواية يتخذون أسماء مزدوجة مصرية ويونانية، ثم ينتهى بهم الأمر إلى حمل أسماء مصرية خالصة. أيضاً يمكننا ملاحظة أن الوثائق المكتوبة باللغة المصرية تبدأ في الظهور بشكل متزايد. بالإضافة إلى ذلك كان الرجال الذين يحملون أسماء مصرية غير مألوفة (لليونانيين) مثل بانيبخونيس ومينخيس يُلقبون بالفعل بأنهم "يونانيون [أو أجانب] مولودون في مصر." أولَيس ذلك دليل واضح على وجود امتزاج بين الثقافتين؟

لقد كان الدارسون يعتقدون لما يزيد عن مائة عام وحتى وقت قريب أن الإجابة على هذا السؤال هى: بلى، وليس هناك ما يدعو إلى تغيير هذا الرأى إذا كان الرجال والنساء الذين قابلناهم في الفصول الثلاثة الأخيرة نماذج تقليدية من سكان مصر عامة تحت الحكم البطلمىّ. ولكننا نعرف الآن من خلال ما تزايد لدينا من أوراق البردى أن مينخيس وبيتيهارسيمثيوس وغيرهم ممن تزدحم بهم الفصول الأخيرة كانوا في حقيقة الأمر أعضاء طبقة صغيرة ومتميزة من أبناء الوطن المصريين وأقلية ذات امتيازات مكونة من أسر تتكلم بلغتين بدرجات متفاوتة من القدرة. هذه الأسر دخلت تلك الطبقة نتيجة التزاوج مع رجال من أصل يونانىّ أو مقدونىّ في أحد أجيال السابقة. إن هؤلاء المصريين المتأغرقين بدرجة أو بأخرى قد برزوا في الخدمة المدنية والخدمة العسكرية، وغالباً ما كانوا يعملون في الصفوف الدنيا. ولكن بمرور الوقت تمكنت قلة منهم من الوصول إلى مناصب القيادة في الجيوش، وغيرها من المناصب الإدارية العليا، مثل منصب الاستراتيجوس والإبيستراتيجوس. ولكن حتى هؤلاء الأفراد النادرين لم يَدّعوا أبداً أنهم يونانيين، على الرغم من أن بعضهم تمكن من خلال منصبه الرفيع من الحصول على ألقاب تشريفية مثل "ابن عم الملك،" فما بالنا بأولئك الذين كانوا ينتمون إلى الصفوف الأدنى مرتبة مثل مينخيس وبانيبخونيس وأمثالهم؟ إن أحداً لم يفكر على الإطلاق، ولا حتى هؤلاء أنفسهم، أن أياً من هؤلاء الناس ينتمى إلى عنصر آخر غير المصريين.

لقد كان تعبير "يونانىّ مولود في مصر،" أداة قانونية نابغة تؤكد حقوقهم في التمتع بالمكانة الاجتماعية المتميزة التى توارثوها عن جدّ يونانىّ أو مقدونىّ، على الرغم من أنهم لم يكونوا من عنصر يونانىّ.

وبمعنى آخر ظلت مصر البطلمية طوال تلك المرحلة من تاريخها أرضاً تحتضن ثقافتين تعايشتا، ولكنهما في الأعم الأغلب لم تختلطا أو تلتحما معاً. إن الأسر ذات الأصل اليونانىّ أو المقدونىّ، التى كانت تفخر بكونها "عنصراً حاكماً"، اهتمت بالحفاظ على ذلك الوضع. إن الذين يدرسون تاريخ هذه الأوقات، وهو تاريخ ازداد ثراء بالوثائق التى عثر عليها في اللقى الأثرية خلال المائة سنة الماضية، باستطاعتهم تمييز مظاهر الحضارتين المختلفتين في كل جانب من جوانب وجودهما المشترك. إن المثال التالى حالة تستلفت الانتباه بدرجة كبيرة. وفى حالات الاحتكاك الثقافىّ العادىّ يحدث أن بعض الكلمات المستخدمة في لغة جماعة ما تنتقل بسهولة ويسر إلى لغة جماعة أخرى. ولهذا سوف يكون من الصعب المبالغة في مغزى الحقيقة التى تقول إنه لم تدخل أية كلمة من اللغة المصرية، باستثناء بعض أسماء الأماكن المحلية والمقاييس وما شابهها، في الاستعمال اليونانىّ طوال الألف سنة التى عاشتها اللغة اليونانية عبر العصر البطلمىّ والرومانىّ والبيزنطىّ. إن هذه الظاهرة لا تعنى سوى أن السكان المتحدثين باليونانية قاوموا بشدة استعمال أو اقتباس الكلمات المصرية. لقد كانوا في حقيقة الأمر يلجأون في حالة الضرورة إلى بعث وإحياء المصطلحات اليونانية التى بَطل استخدامها، ويفضلون ذلك عن استخدام الكلمة المصرية وعن إدخالها في لغتهم واستعمالهم.

وفى عام ٤٧ ق.م. خرجت كليوباترا السابعة "ثيا فيلوباتور"، آخر حكام الأسرة البطلمية، في رحلة نيلية ترفيهية مع رفيقها الرومانىّ، يوليوس قيصر. وبهذه الوسيلة حاولت تمضية الشهور الأخيرة لحملها الذي أصبح واضحاً جداً في ذلك الوقت، وأن تُرى قيصر الثروات الاقتصادية والأثرية للمملكة التى تحكمها آنذاك بفضل مساعدته. لقد اصطحبها في هذه الرحلة أسطول مكون من أربعمائة سفينة تحمل الخدم والمؤن والجنود (الرومانيين)، بينما ركب

الاثنان في زورق ملكيّ كبير الحجم، ويحوى من وسائل الرفاهية ما يفوق الخيال. وحتى إذا أتحنا الفرصة لبعض المبالغة في وصف القارب من جانب جامع الطرائف أثينايوس (القرن الثانى/الثالث الميلادى) فإن علينا أن نتخيل سفينة ضخمة تسير بواسطة عدة صفوف من المجاديف، ومجهزة بالإضافة إلى غرف النوم وصالات الجلوس بأروقة محاطة بأعمدة وبصالات للولائم وبحديقة شتوية وبمحاريب لأفروديتى وديونيسوس (الحب والخمر وما أنسب أن يلتقيا!)، كما كانت مزخرفة بكثير من أخشاب الأرز والسرو وبألوان متعددة وبرقائق الذهب.[١]

وفى أثناء سيرهما جنوباً أعلى النهر كانت الثقافتان السائدتان في مصر الهللينستية تسيران في موكب أمام أعينهما. لقد كانت نقطة بداية الرحلة يونانية خالصة، حيث كان القصر الملكيّ بالإسكندرية الذي يجاوره المجمع والمكتبة الشهيران، واللذان ظلا طوال القرنين ونصف الأخيرين قبل الميلاد المركز العالميّ للدراسات اليونانية في الآداب والعلوم. وكانت بوتقة الإسكندرية تضم بطبيعة الحال أناساً ليسوا بيونانيين، كما كانت اللغة المصرية موجودة يتحدث بها الناس في الأحياء الوطنية في المدينة، بينما كان الميناء يضم خليطاً من البشر يتحدثون مختلف اللغات. وعلى الرغم من ذلك فإن كل التعاملات المهمة في الإسكندرية وليس فقط في إدارتها الحكومية وحياتها الثقافية، بل أيضاً في مشروعاتها المحلية وتجارتها الخارجية الواسعة، كانت كلها تتم باللغة اليونانية.

وبينما كان القارب يسير في رحلته الترفيهية أعلى النهر، وأيضاً في أثناء رحلة العودة في الاتجاه المعاكس، كانت مجموعات الناس تفد إلى ضفة النهر من المدن والقرى المجاورة لمشاهدة المركب، وللترحيب بملكتهم والبطل الذي قهرها. كذلك كانت بعض فصائل الجنود من الوحدات والحاميات المحلية تقف بطول الطريق لكى تسيطر على الجماهير، ولكى تكفل الأمن للمجموعة الملكية وللهتاف مع الهاتفين. وكان هؤلاء الجنود في المراحل الأولى للرحلة الملكية يهتفون ويرحبون باللغة اليونانية، إلا أنه كلما أوغل الموكب أعلى النهر، أصبحت اللغة اليونانية أقل استخداماً، وأصبحت اللغة الوطنية أكثر

شيوعا. وبعد حوالى ستمائة كيلومترا جنوب الإسكندرية مرّ الموكب على آخر المراكز اليونانية جنوباً، مدينة بطلمية وبلدة الحامية العسكرية ديوسبوليس الصغرى الواقعة على مشارف طيبة. وبعد طيبة بمسافة قصيرة كانت تقع باثيريس حيث أقامت أسر دريتون وبيتيهارسيمثيوس. وفى طيبة ذاتها، التى كانت منذ فجر التاريخ معقل أعتى الكهنة المصريين، كان كبير الكهنة ينتظر ولا شك عند المرسى بصحبة حاشية مناسبة ليقدم فروض الولاء لمليكته، كما هو الواجب عليه. وهناك تعطفت الملكة وتفضلت بالحديث معهم بلغتهم الوطنية. لقد كانت آخر ملكات البطالمة، كما أخبرنا بلوتارخوس، هى أول البطالمة الذين تعلموا الحديث باللغة المصرية.[٢]

الحواشى:

---

(١) يوجد وصف لهذا المركب السكنىّ،" أو العوامة، في: Athenaios, 5, 37

(١) انظر: Plutarchos, *Life of Antony*, 27

معجم المصطلحات

- "ابن عم الملك": لقب تشريفي كان يُمنح بشكل تلقائي تقريباً لأعضاء البلاط الملكيّ وللرجال الذين يحصلون على مناصب عليا في الإدارة الملكية مثل الاستراتيجوس.

- أردب: هذه الكلمة مأخوذة من كلمة يونانية قديمة تنطق "أرتابيه" *artábē*، والأردب هو الوحدة الرئيسة للمكاييل الجافة، ويُستخدم للغلال وغيرها من الحبوب. وبينما تتفاوت سعة الوحدة بشكل واضح حسب الوقت والمكان فإن السعة الأكثر شيوعاً هي التي تساوي ثلاثة وأربعين لتراً. وتوجد دراسة حديثة العهد لهذا الموضوع المعقد ومصادره في: *Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphik,* 42 (1981), 101

- أروره *aroura*: تعني الكلمة من الناحية اللغوية "أرضاً زراعية". وقد استُخدم الاصطلاح في مصر البطلمية بوصفه الوحدة الرئيسة لقياس الأراضي، وهي تساوي ٦٨ر٠ من الفدان، أو ٢٧٥ر٠ من الهكتار. وما يزال اللفظ مستخدماً في اللهجة المصرية وإن كان ينطق أردِب أو إردب.

- استراتيجوس *stratēgos*: حاكم إقليم "نوموس" *nomos*، وممثل الملك والمسؤول عن القوات العسكرية وعن الإدارة المدنية ونظام العدالة في ذلك الإقليم.

- أوبول *obol*: وحدة نقدية تعادل سدس دراخمه، راجع كلمة دراخمه في هذا المعجم.

- بردى: اسم النبات المائي الموجود في مصر والذى يعرف باسم *Cyperus Papyrus, L.* وهو أيضاً اسم ورق الكتابة الذي يصنع من ذلك النبات والذى اشتهرت به مصر واستخدم في كافة أرجاء العالم القديم.

- تالينت: وحدة تعامل نقدية تساوى ستين ألف دراخمه.

- توبارخيون *toparcheion* [وجمعها توبارخيا: المترجم]: وحدة إدارية أصغر من الإقليم "نوموس".

- دراخمه *drachmē* : وحدة النقد الرئيسة في العالم اليونانىّ، وهى تتفاوت في الوزن حسب الأماكن. وكانت الدراخمه الأثينية هى الأكثر شيوعاً واستخداماً في العالم القديم. وكانت قطعة الأربع دراخمات الفضية، التيترادراخمه، تَزِن تقريباً سبعة عشر جراماً، وحسب الأسعار السائدة في نهاية عام ١٩٨٥ م فإن هذا القدر من الفضة كان يساوى حوالى جنيهين استرلينيين وعشرين بنساً، أو ثلاثة دولارات وربع، [أىّ ما يقابل اثنا عشر جنيهاً مصرياً: المترجم].

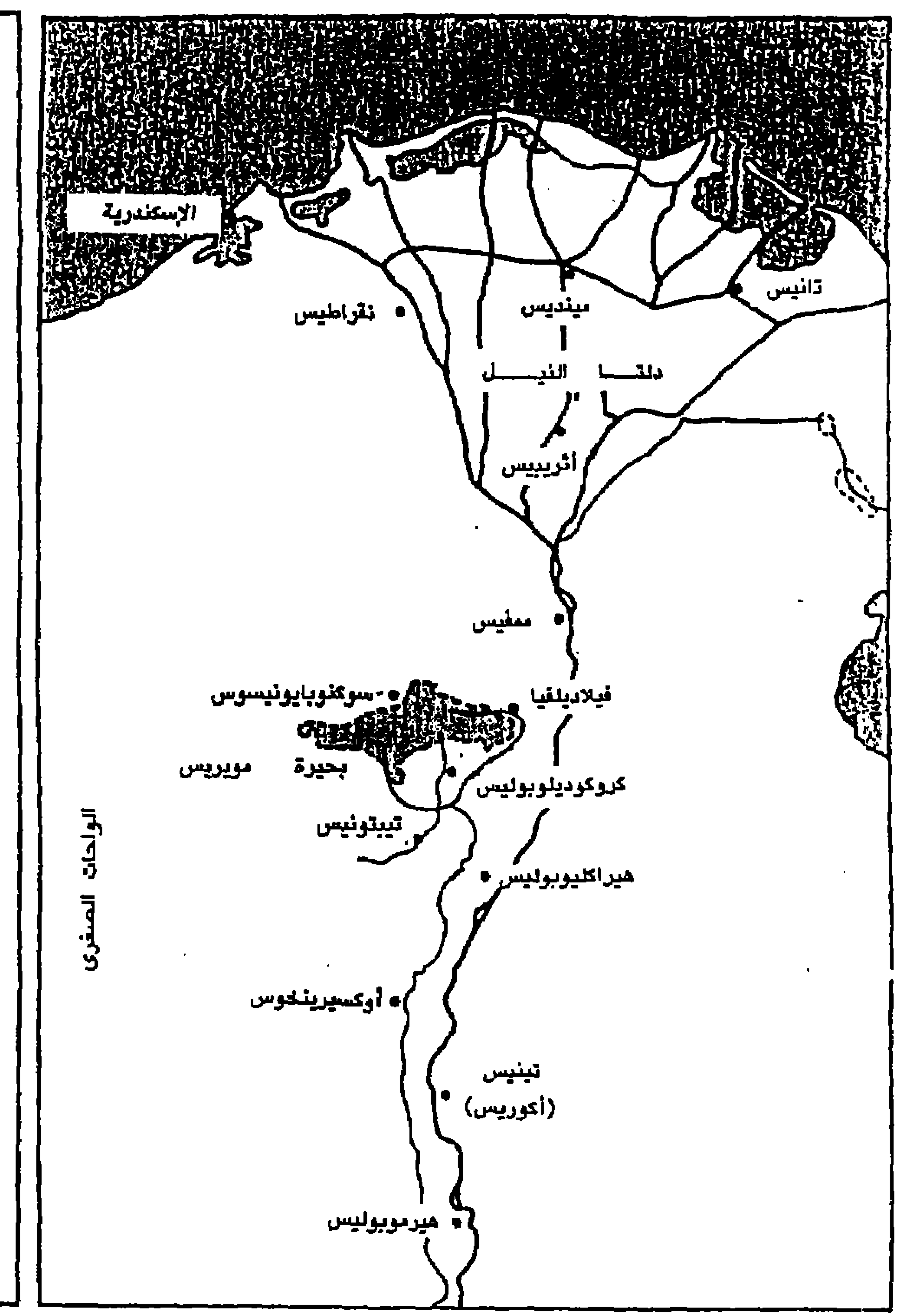
- ديموطيقىّ "شعبىّ": هذا الاصطلاح أطلقته الدراسات الحديثة على الخط الرقعة الذي كتبت به اللغة المصرية من القرن السادس قبل الميلاد إلى القرن الرابع الميلادىّ.

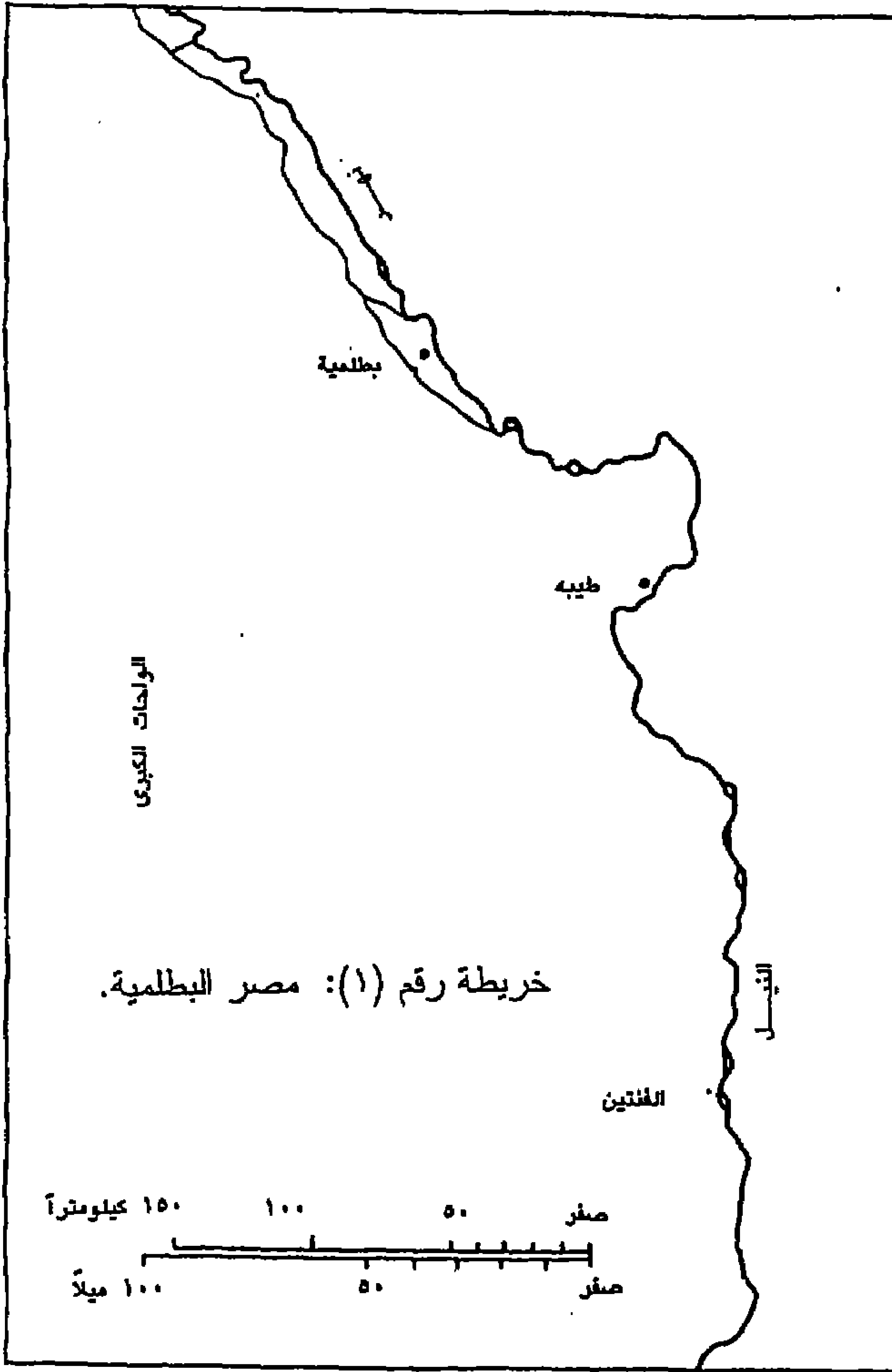
- كليروخوس *klērouchos*: كلمة يونانية تعنى حرفياً "صاحب حصة أرض"، وهو الاسم الاصطلاحىّ لرجل كوفئ بالحصول على حصة أرض "كليروس" وعلى منزل مقابل انخراطه في سلك الجندية. وبعد وقت قصير أصبحت هذه المكانة الاجتماعية وراثية يتوارثها الابن عن أبيه؛ كذلك فتح باب الانخراط في الجندية أمام المصريين الوطنيين في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد.

- كليروس *klēros*: حصة أو قطعة أرض مخصصة.

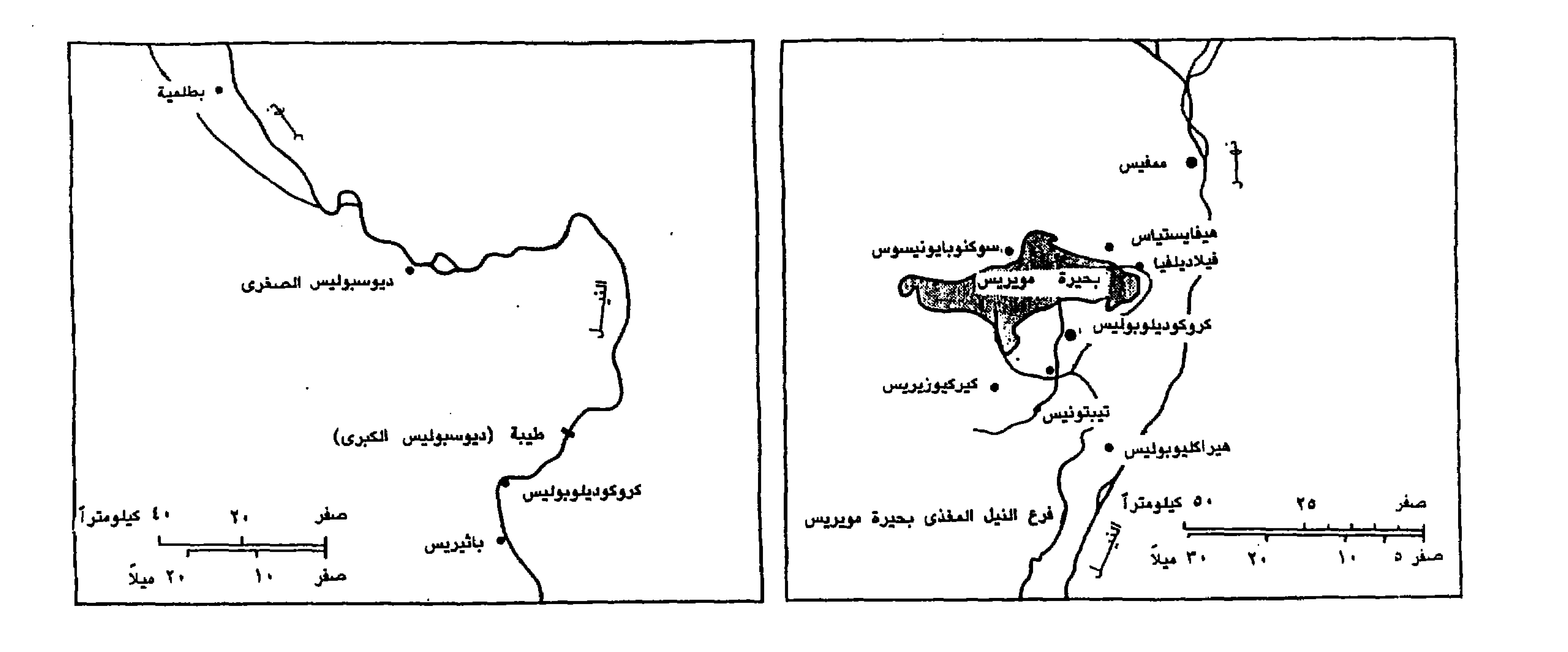
- نوموس *nomos*: كلمة يونانية جمعها نوموى وهى اصطلاح أطلق في العصر البطلمىّ على كل من الأقاليم أو الوحدات الإدارية التى قارب عددها على الأربعين في مصر، والتى كان يحكم كل واحدة منها موظف يسمى استراتيجوس.

الخرائط





خريطة رقم (١): مصر البطلمية.



خريطة رقم (٢): إقليم أرسينوى والمنطقة المحيطة به.

خريطة رقم (٣): المنطقة بين بطلمية وباثيريس.

وصف اللوحات

١ - (أ) هذا هو الوجه الخلفى (أكبر من الحجم الطبيعى) لعملة صدرت عن دار صك العملة بالإسكندرية في أواخر القرن الثانى الميلادىّ، وتبدو عليه سفينة مبحرة عبر المنارة "فاروس" أثناء دخولها الميناء (راجع الفصل الأول). وعلى عكس كافة المحاولات التى جرت في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن الحالىّ لتخيل شكل البناء القديم للمنارة، فاروس (Pharos)، التى يصفها أحد الكتاب المعاصرين بأنها "مجرد تخيلات"، فإن الشكل الفعلىّ للبناء موجود على هذه العملة والعملات المشابهة لها. لقد كان ارتفاعها حوالى ١٢٠ متراً، أما الجزء الأسفل فكان يضيق كلما ارتفعنا عن القاعدة التى يبدو من البقايا أنها كانت مربعة وطول ضلعها حوالى ٣١ متراً (أىّ مائة قدم). وبالنسبة للأشكال التى كانت على قمة هذا الجزء فهى تماثيل التريتون وهم ينفخون في أصداف محارات ترى إحدى النظريات الحديثة أنها كانت تؤدى عمل صفارات الإنذار عندما يمر خلالها هواء مضغوط. إن شخصية التمثال البرونزىّ الموجود أعلى البرج، وما إذا كان يمثل إلهاً أم بشراً، ما تزال موضع جدل كبير بين الباحثين، ولكن من المحتمل أن التمثال كان يستخدم لعكس الضوء الناجم عن الشعلة، بالإضافة إلى كونه تمثالاً تشريفياً. (الصورة مأخوذة بإذن من الجمعية الأمريكية للعملات (American Numismatics Soceity).

(ب) هذه الصورة لتمثال برونزى صغير لأفروديتى وهى تمشط شعرها وكان يشكل رأس دبوس للشعر. لقد عثر على مئات عديدة من أشياء مصنوعة من البرونز قرب قليوب، شمال القاهرة، في الأعوام الأولى من هذا القرن. هذه الأشياء كانت تمثل، على ما يبدو، نماذج للعرض في ورشة حدادة يمكن للزبائن أن يطلبوا مثلها. ويرجع تاريخ القطعة إلى حوالى عام ٢٥٠ ق.م. (وهى موجودة الآن تحت رقم ٢٢٧٣ في متحف بليزايوس، بمدينة هيلديسهايم: Hildesheim, Plelizaeus Museum).

٢- (أ) لوحة ملونة عثر عليها في حطام السيرابيون في منف (راجع الفصل

الخامس). إن العنوان المكتوب باليونانية يقول: "إنني أفسر الأحلام بإذن الإله. لعلها تكون خيراً! إن مفسر هذه الأشياء كريتيّ الأصل." وقد صممت اللوحة بحيث تكون على هيئة واجهة معبد يونانيّ له واجهة مثلثة وسقف يحمله إلهات مصرية عارية، وهو تكوين مستحدث يتوافق مع الطبيعة المقدسة المختلطة للإله سيرابيس. ويبدو تحت العنوان اليونانيّ مذبح مصور بجواره العجل أبيس. (المتحف المصريّ، القاهرة).

(ب) لقد عُثر بالقرب من الإسكندرية على عشرات من لوحات القبور الملونة التى ترجع إلى العصر البطلميّ، وكثير من هذه اللوحات تُشبه اللوحة المصورة هنا من حيث إنه تعلوها واجهة مثلثة وأعمدة على الجانبين لتجعلها شبيهة بمعبد صغير. إن النقش المكتوب يقول: "ديونيسيوس من بيثينيا، تصحبك السلامة." ومن الواضح أن المتوفى الذي يظهر في الصورة كان جندياً؛ إذ أنه يمسك بحربة طويلة، ويرتدي، على ما يبدو، حذاءه العسكريّ، ويصحبه غلامه الذي يحمل حربتين أقل طولاً وكذلك درع سيده. اللوحة ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد. (متحف الإسكندرية).

٣ – (أ) في هذه المذكرة التى ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد يشكو الكاتب من أن إحدى قنوات الريّ قد ارتفعت فيها المياة عن الحد الآمن، وتُشكل خطراً على الخنازير وعلى بقية حيوانات المزرعة. وفي نهاية الوثيقة رسم الكاتب رسماً تخطيطياً يبين مسار القناة وفكرته عن ضرورة تشييد سياج نصف دائريّ لحماية الحيوانات. (Campbell Cowan Edgar, *Zenon Papyri in the University of Michigan*, Ann Arbor, 1931, Plate VI).

(ب) هذه نسخة مكتوبة بخط جميل كان معروفاً في ذلك العصر وتحتوى على أمر أصدره بطلميوس الثالث "يورجيتيس" في مارس/أبريل عام ٢٣٧ ق.م. والكلمتان الموجودتان أعلي الوثيقة تشكلان الافتتاحية المعروفة في مثل هذا النوع من الوثائق: "بأمر الملك". أما نص هذا الأمر فيتعلق بالضمانات المتعلقة بالقضايا. (المرجع السابق، لوحة رقم ٤)

٤ – بدأت أساليب الفن اليونانيّ تؤثر على الفن المصريّ منذ وقت يرجع إلى

ما قبل مجيء الإسكندر الأكبر وما أعقبه من موجات هجرة اليونانيين. وعلى حوائط مقبرة بيتوزيريس، وهو كاهن مصرى من القرن الرابع قبل الميلاد، توجد مناظر للحياة اليومية المألوفة على حوائط المقابر منذ عهد مبكر في العصر الفرعونى وقد صورت طبقاً للقواعد والأساليب المعروفة في الفن اليونانى، خاصة من ناحية التكوين الفنىّ وتصوير الحركة والوجوه والشعر والملابس. (الصورة نقلاً عن أرشيف صور هيرمر: Hirmer Fotoarchiv).

٥ – الحائط الجنوبى لمقبرة ضخمة محاطة بالأعمدة عُثر عليها بالقرب من الإسكندرية في أوائل الثلاثينيات. وباستثناء إضافة تماثيل "أبو الهول" المصغرة على جانبى الممرات متعددة الألوان، وهو الأمر اللافت للانتباه نوعاً ما، فإن البناء يتبع الأسلوب والتقاليد اليونانية في زخارفه وتفصيلاته المعمارية. كذلك توجد أعلى الممر الأوسط صورة زيتية ربما نفذت أجزاء منها على الأقل بأسلوب الفريسكو. ويبدو فيها ثلاثة أفراد يمتطون الخيول ويرتدون زى الفرسان المقدونيين، وتقف بينهم سيدتان. ويبدو أن الأفراد الخمسة يشتركون في طقوس من نوع ما، ويوضح ذلك ما في أيديهم من أدوات دينية؛ وربما كانت هذه الطقوس جنائزية أو تتعلق بمناسبة ذكرى موتى الأسرة المدفونين هنا. وكانت هذه الطقوس تجرى أمام مذبح مصور بين الفارس الموجود في المنتصف والكاهنة التى إلى يمينه. لقد رُسمت الأشكال والملابس بألوان زاهية هى البنفسجىّ والبنىّ والأحمر والأصفر والقرمزىّ والأزرق، بينما كانت الخلفية بلون السماء الزرقاء. الصورة ترجع إلى القرن الثالث أو القرن الثانى قبل الميلاد. (Alexandria, *Annuaire du Musee Greco-Romain,* 1934-5, Plate XXVII)

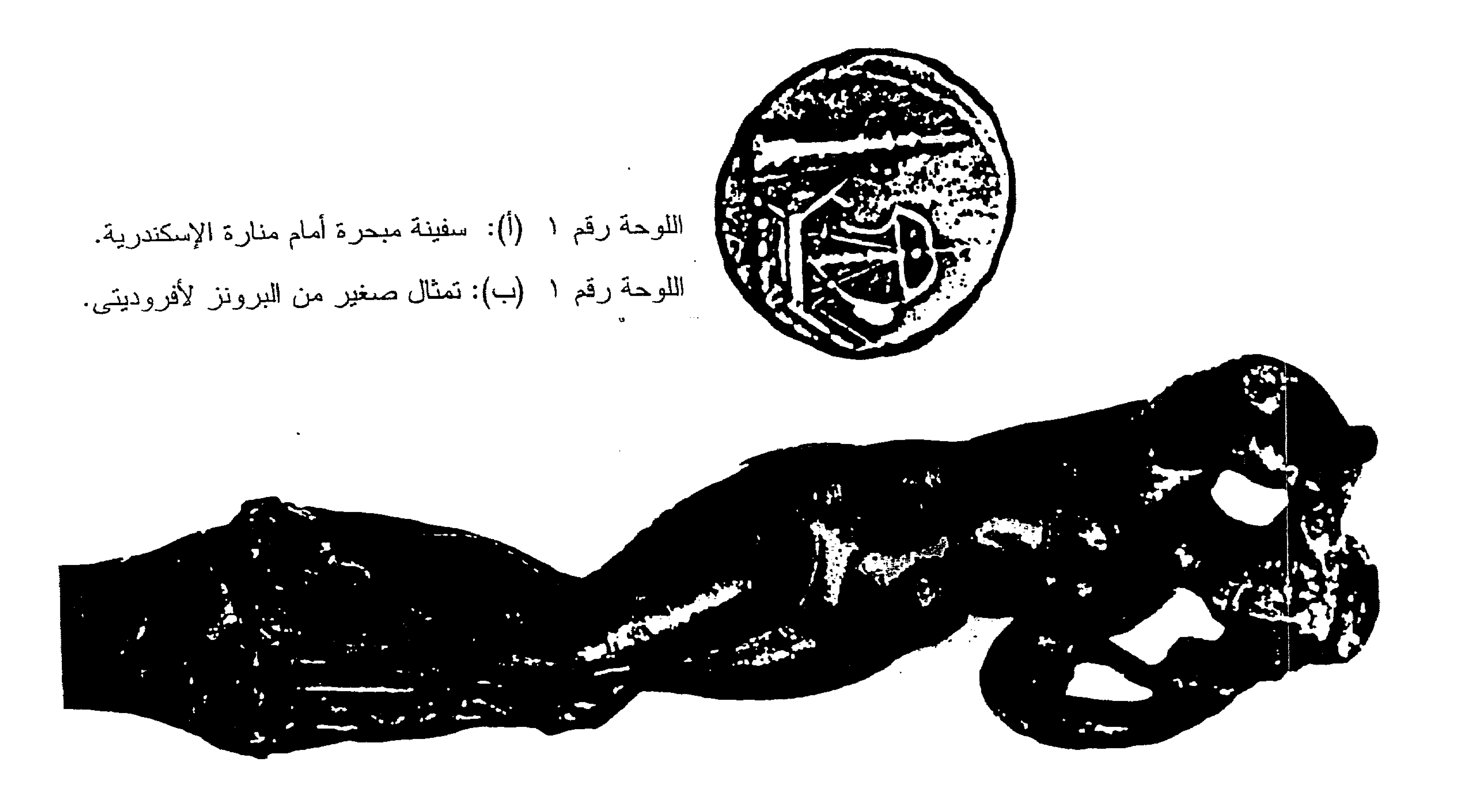
٦ – (أ) رأس من الفخار لملكة بطلمية من القرن الثالث قبل الميلاد، من المحتمل أن تكون أرسينوى الثانية أو بيرينيكى الثانية (زوجات بطلميوس الثانى والثالث، على الترتيب). إن العصابة والقرطين قد تمت تغطيتهما بلمعة صفراء تشبه الذهب. وباستثناء مكان إقامة الملكة لا يوجد شئ يدل على أنها مصرية. (Trustees of the British Museum).

(ب) هذا التمثال المصنوع من الجرانيت الذي يرجع إلى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد يصور إحدى ملكات البطالمة في شكل الإلهة إيزيس (راجع الفصل الثامن). إن أكثر الأشياء إثارة للانتباه في هذه التماثيل العديدة المتفاوتة الأحجام هو التضاد والتنافر بين الخصائص المجتمعة فيها، والذى ينمّ عن تصادم، وليس امتزاج، بين تقاليد النحت اليونانىّ والمصرىّ. راجع اللوحة رقم ٥. (التمثال موجود في قاعة الفن بجامعة ييل وقد تم شراؤه من السيدة مابيل اسكوت: Mabel Scott).

٧ – لقد صور البطالمة أنفسهم أمام السكان الوطنيين على أنهم استمرار شرعىّ للملوك الفراعنة السابقين وأقاموا معابد على النسق الفرعونىّ التقليدىّ، مثل هذا المعبد. كذلك صور البطالمة أنفسهم على جدران هذه المعابد وهم يرتدون الملابس الفرعونية، وهم يؤدون طقوس العبادات الفرعونية التقليدية. هذا المعبد الكبير في إدفو الذي يكاد يكون محفوظاً بأكمله، قد تم بناؤه في عهد الملك بطلميوس الثالث "يورجيتيس". (الصورة نقلاً عن معهد جريفيث في أوكسفورد: The Griffith Institute, Oxford).

٨ – هذا المنظر موجود على الحائط الخلفىّ لمعبد حتحور في دندره التى كانت تعرف قديماً باسم تينيترا والتى تقع إلى الشمال قليلاً من طيبة. راجع اللوحة رقم ٧. (الصورة نقلاً عن مارتن ر. ديفيز: Martin, R. Davies).

اللوحات



اللوحة رقم ١ (أ): سفينة مبحرة أمام منارة الإسكندرية.

اللوحة رقم ١ (ب): تمثال صغير من البرونز لأفروديتى.

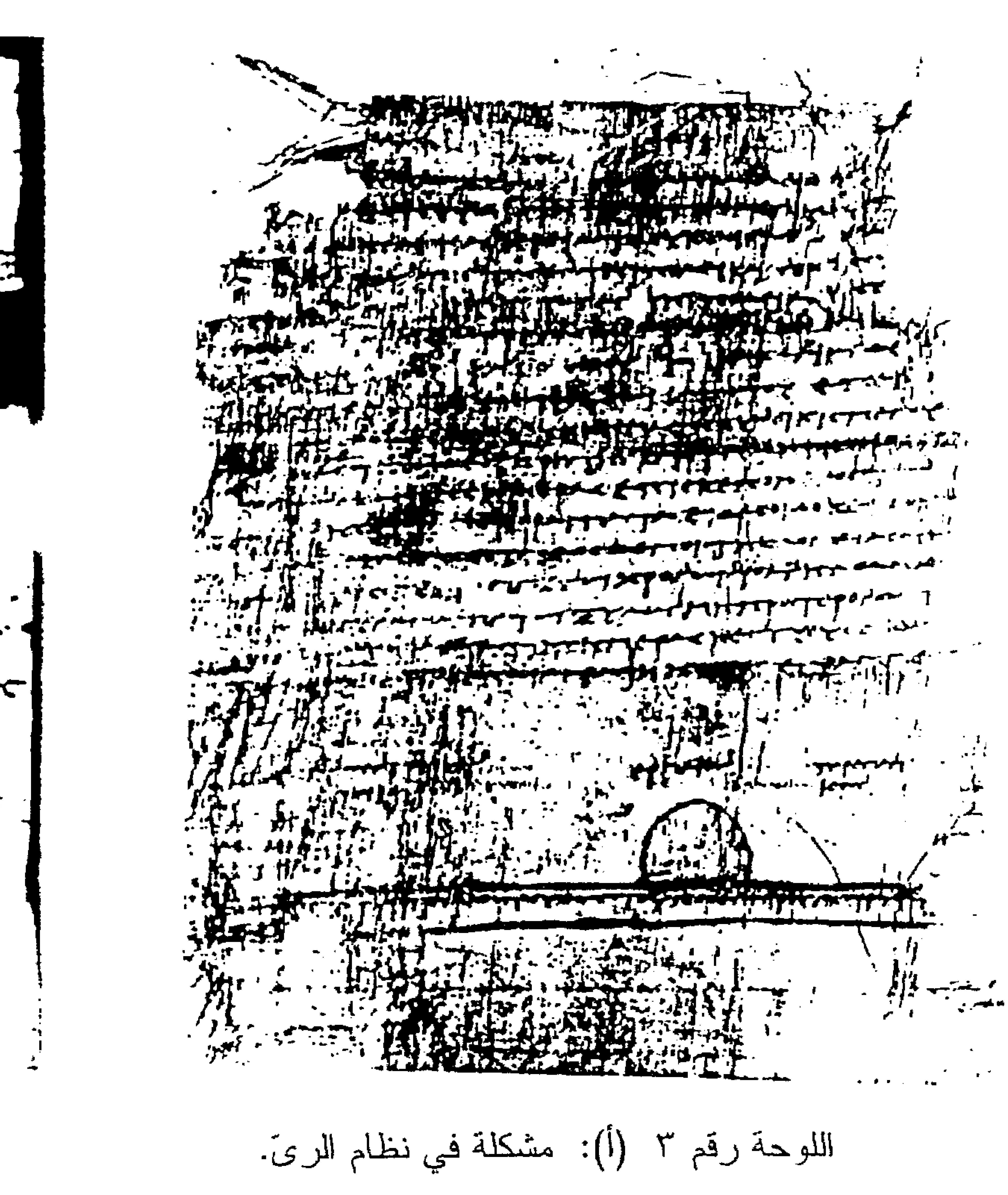


اللوحة رقم ٢ (أ): لوحة من منف للإعلان عن مفسر أحلام.



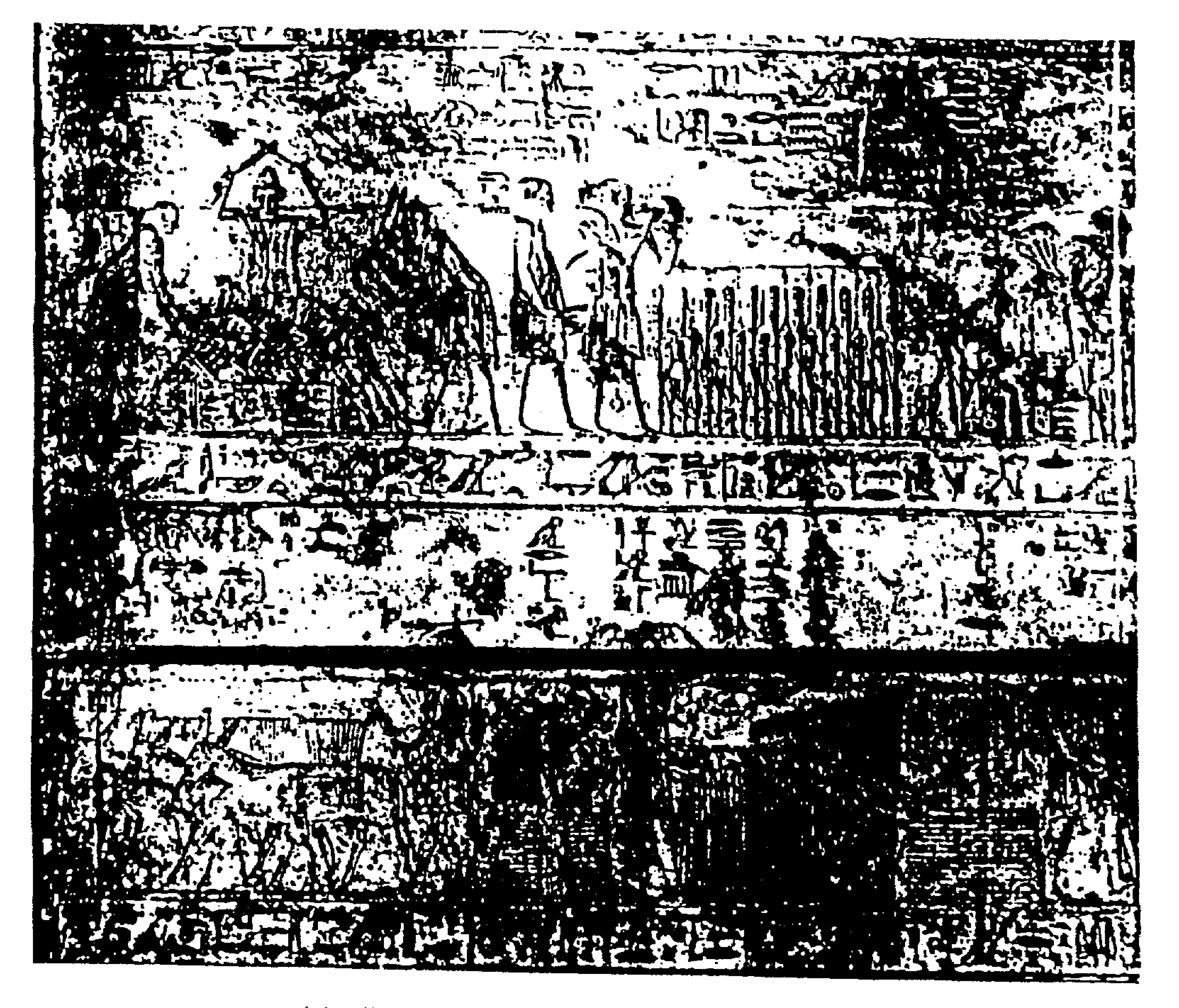


اللوحة رقم ٢ (ب): شاهد قبر لرجل يدعى ديونيسيوس.

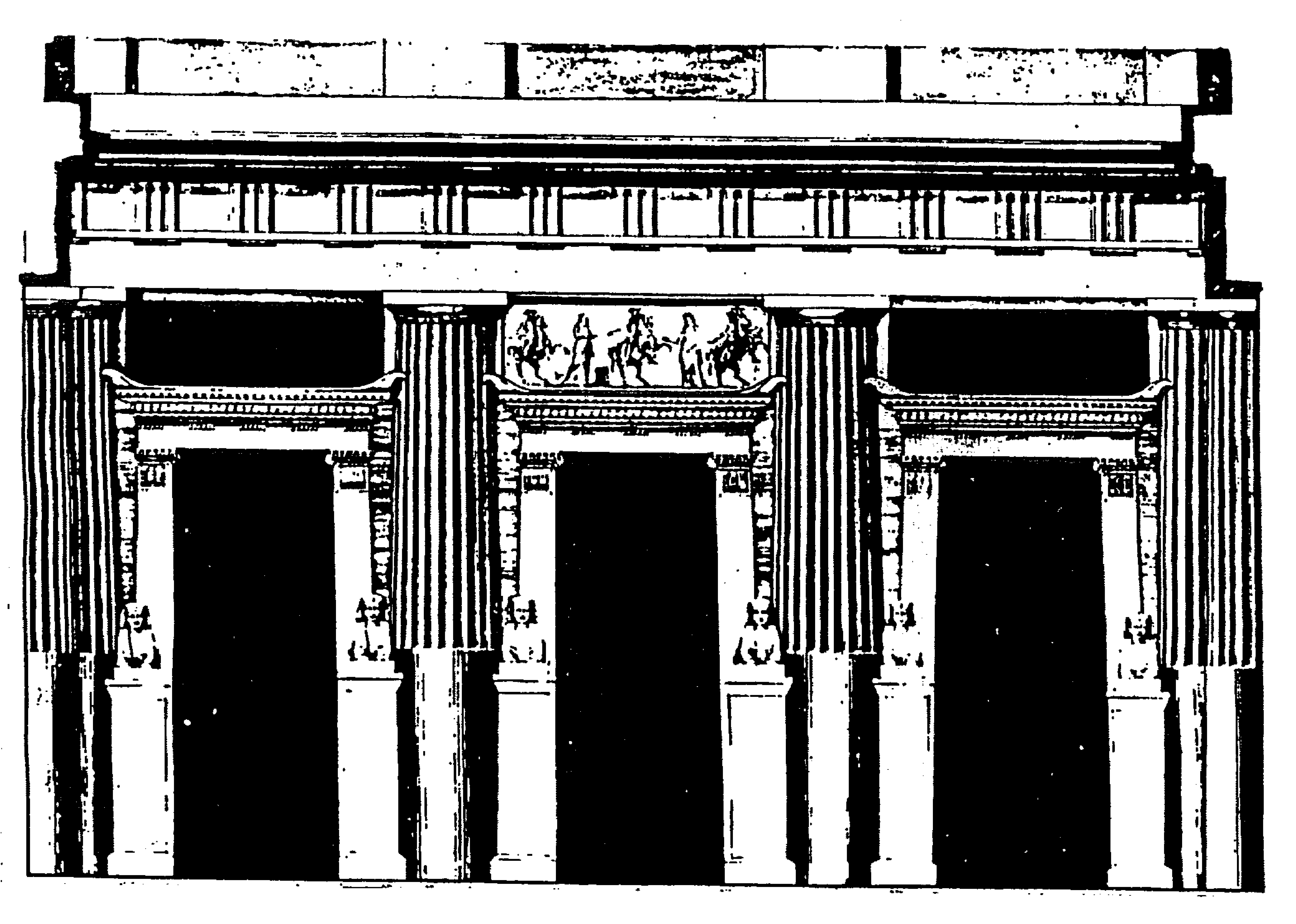


اللوحة رقم ٣ (أ): مشكلة في نظام الريّ.

اللوحة رقم ٣ (ب): قرار ملكيّ.



اللوحة رقم ٤ : مقبرة بيتوزيريس، حاملو الهدايا.



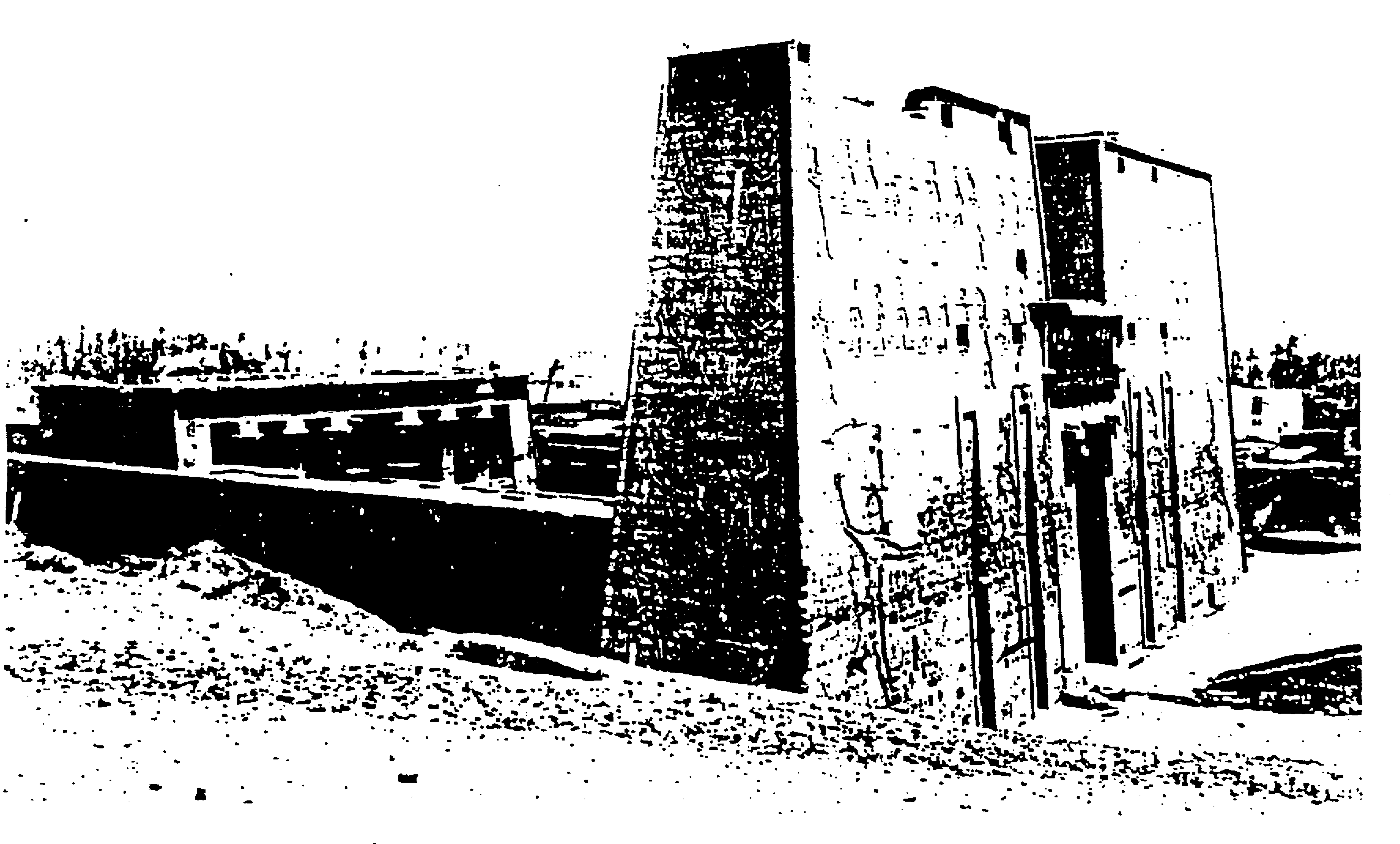
اللوحة رقم ٥ : الحائط الجنوبيّ لفناء مقبرة من الإسكندرية.



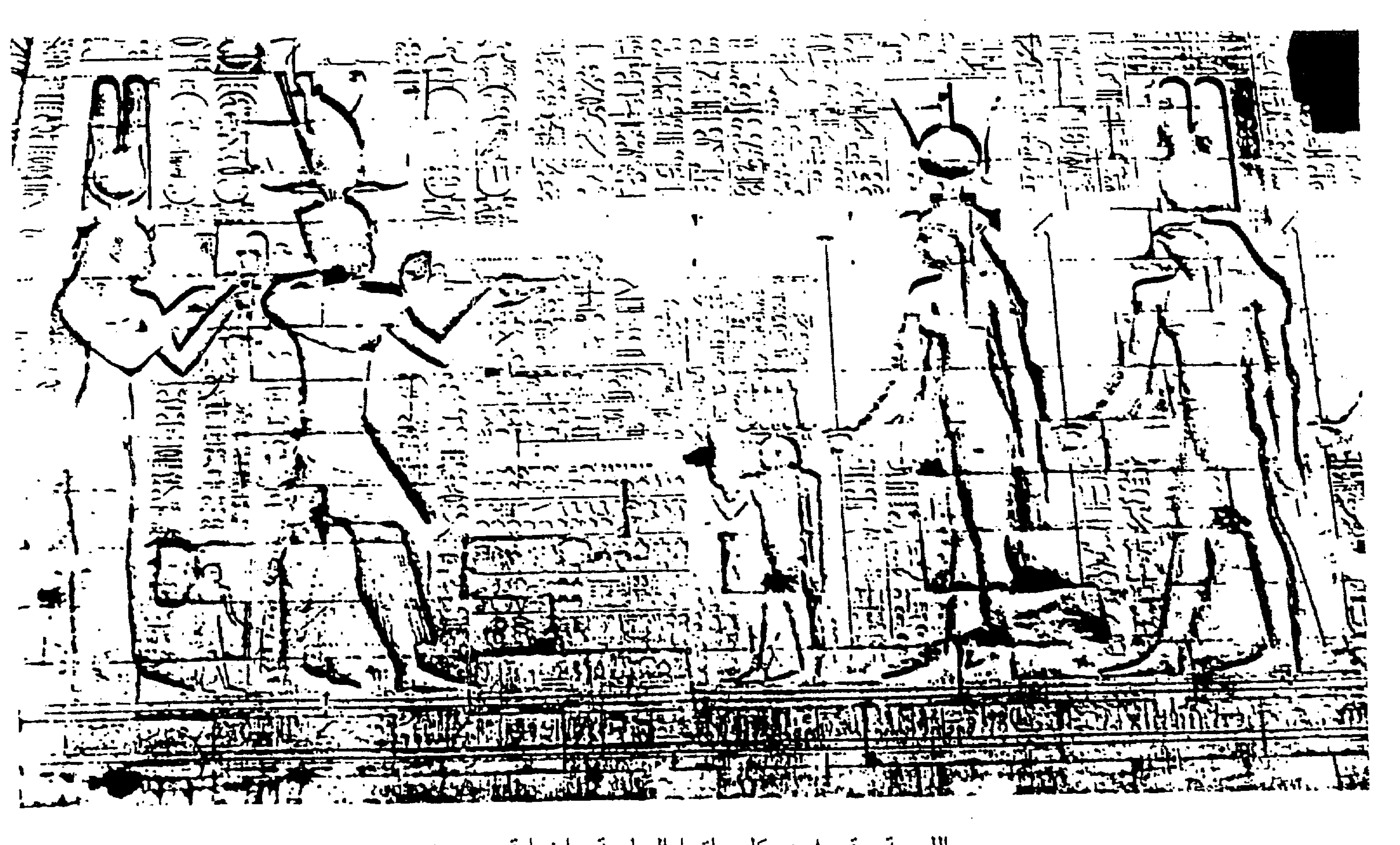
اللوحة رقم ٦ (أ): ملكة بطلمية من القرن الثالث قبل الميلاد.



اللوحة رقم ٦ (ب): ملكة بطلمية
من القرن الثانى قبل الميلاد فى هيئة إيزيس.



اللوحة رقم ٧ : معبد الإله حورس في إدفو، الصرح الأمامى.



اللوحة رقم ٨ : كليوباترا السابعة وابنها قيصرون
يتعبدان لحتحور وإيزيس والآلهة المصرية القديمة.

الفهارس

الفهارس:

الأسماء:

المدن والأقاليم:

الموضوعات:

